# أنفس الذخائر
# وأطيب المآثر
## في أهم ما اتفق لي
## في الماضي والحاضر

تأليف

الأستاذ الشيخ
الطيب المهاجي
الجزائري

---

مطبعة
الشركة الجزائرية للطبع والأوراق
بوهران

# مقدمة الطبعة

تم تاليفى لهذا الكتاب الصغير الحجم ، الكثير العلم اواخر سنة تسع وسبعين من القرن الحاضر ، الرابع عشر ، ولم اقدمه للطبع انذاك ، لموانع اقواها تشديد الرقابة على النشر ، وعدم السماح بطبع ما لا يتفق ومصلحة الاستعمار ، وما لا يوافق هواه واغراضه الدنيئة . ولهذا كان من المتوقع فى ذلك الوقت ، بل من المتحقق ان هيئة الرقابة لا تسمح لى بطبع الكتاب فى الداخل ولا ترخص فى دخوله بعد طبعه فى الخارج حيث تجده بعد الفحص معاكسا لمصلحة حكومتها ، ومناقضا لها على طول الخط اذ هو عند كل مناسبة ينتقد تصرفات الاستعمار المنافية للعدالة ويعيب قوانينه المتعسفة الشاذة التى يسنها لتطبق على خصوص الجزائرى المسلم. ان انتقادا كهذا بالطبع لا يرضى الاستعمار ، بل يغيظه ويثير غضبه ويغريه على الانتقام من كل من تحدثه نفسه طبع مثل هذا الكتاب ونشره بين الاوساط . فهذا كما قلنا سابقا هو اقوى الموانع التى تعذر معها طبع الكتاب عقب الفراغ من تاليفه . اما الآن ، وقد زالت الموانع وازيحت العلل ، وذقنا طعم حرية النشر كباقى الحريات فانى بعد مراجعة عدة مطابع قدمت الكتاب للطبع ، رغم ما تستدعى الظروف من تضاعف مصاريف الطبع الى مبلغ يفوق المعتاد بكثير ، وقد طبع الكتاب طبعا جيدا على ورق صقيل مصححا طبق الاصل ، وارجو ان يكون اثرا حسنا يسبب من الواقف عليه الدعاء لى بخير وبالله التوفيق .

الطيب المهاجى

بسم الله الرحمن الرحيم.

# بشرى

## اخي العربى اخي المسلم

إليك أزف مع الاغتباط بشرى من اعظم البشائر ترقص لها القلوب طربا وتترك الألباب سكرى ولا أبالغ اذا قلت أنها تدعك وقد امتلأ فوأدك سرورا وارتياحا تلكم البشرى هى غاية ما يتمناه كل عربى مثقف غيور يريد ان يعرف الكثير عن حاملى لواء الاسلام وقواده وعن المصلحين الاجتماعيين والدعاة الناصحين . بشرى تشرئب اليها أعناق ذوى المفاخر لا سيما وأنها من انتاج أجل العلماء الأكابر لهذا احيلك اخى على ان تتصفح معى مؤلف الأستاذ العبقرى الفذ ولعلك اخى لاتنتهى من المطالعة حتى تبلغ عقيدتك المنتهى فى الجزم بأن الكتاب ( ايام وحياة احد العباقرة والجهابذة المعنون بأنفس الذخائر ) ما وقعت عين زماننا على نظيره ولا يذهب بى الظن فى انك غير متعطش إلى الاطلاع على سيرة وحياة العظماء والعلماء والكتاب والزعماء وانتاجهم وان قل اجتماع العظمة والعلم والكتابة والزعامة فى شخص واحد فلقد اجتمعت فى شخصية العلامة المحقق والبحاثة المدقق احد بحار العلم الزواخر الملتهب غيرة على الاسلام و المحتدم غضبا على فرق الزيغ اللئام والصاعقة الماحقة لآثار الالحاد والملحدين والغارة الشعواء على الاستعمار وكل من انحرف عن الحق الظاهر خادم العلم ومدرس السنة النبوية استاذنا الشيخ الطيب المهاجى الذى تصدى للتدريس بوهران عام ١٩٠٧، وبذلك أزال ستار الجهل الفلاذي الذى غشى سواد الأمة الوهرانية وحمل مشعلين مشعل العلم ومشعل الهداية واخذ على نفسه العهود والمواثيق ان يجدد عهد السلف الصالح بنشرالدعوة الصحيحة بين طبقات الشعب ويبيد البدع والخرافات المستحكمة فى النفوس ولم يثنه عن نهجه ما أقامه دعاة اهل البدع من عراقل وعقبات وظل ثابتا على عزمه حتى

فاقتلع الأوهام من القلوب وعاد بالناس الى حظيرة الدين فظهر نجمه وذاع صيته ورمقته العيون وأسكنته القلوب فى سويدائها لما عرف فيه من علم صحيح وما اتيه من قوة البيان ودقة الأسلوب وذوقه الرفيع فهو ولاغرو حلية من حلى الدنيا وزينة من زينة الوجود روضة للأبصار ولذة للأسماع وغذاء بالغ النفع للأرواح كيف لا وهو اذا نطق وخاض الحديث كان بحرا ينثر اللآلىء والجواهر على من حوله فلا يسعهم الا التسابق الى التقاط ماينثر ، يتدفق تدفقا ويسيل سيلا لايهيجم على ذيلة الاقضى عليها وصورها فى نفوس السامعين صورة بشعة مخيفة من رآها لايسعه الا ان يفر منها فرارا ولا يعطف على فضيلة الا أنعشها وأحياها وجعل قلوب السامعين تكاد تطير من شوق اليها وما أجدره بهذا وقد أحب العم والهداية وأخلص لهما اخلاصا وامترج هذا الحب وهذا الاخلاص بايمان قوى وسكن هذا المزيج فى قلب كريم حى وبهذا القلب عقد اللواء وحمل مشعل العلم وتأهب لغزو الجهل وجحافله فشرع يبث فنون العلم بين الطلاب لأن التربة صالحة للغرس والجو ملائم للانبات .
( والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ) .
وفى هذا الاتجاه وجد ضالته فجاهد بكل قواه ووقف عليه فكره ووقته وسرعان ما أنجب على يديه رجالا دعاة خير ورسل اصلاح اشربوا حب الفضيلة وتمت فيهم نازعة الخير وانتفعت بهم الأمة . اذ منهم كون جيشه الذى خاص به المعركة طويلا وله فى كل وقت ملحمة ضد المستعمر الغاشم وأولى الزندقة والالحاد فمن ذلك الجيش من قضى نحبه ايام حرب التحرير وعلى رأسهم من كان كبش الفداء قربانا لله والوطن ابن الأستاذ البار والبطل الشهيد خريج جامعة الحقوق بالقاهرة الأستاذ القاسم وما ادراك ماالقاسم ، والباقى منهم سد ثغرات النقص التى تعانيها حاجيات البلاد من الثقافة العربية فهو فى سلك التربية والتعليم وبيت القصيد اخيرا .

| | |
|---|---|
| فقل ماشئت فيه من مديح | تجده فوق ما نطق المديح |
| تلميذكم وعارف فضلكم | الطيب بلقندوز |

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم الانسان ما لم يعلم ، واهلـه للنظـر والتفكير والفهم ، وركب فيه استعدادا هيأه لادراك معنى التصور والتصديق والكيف ، والكم والصلاة والسلام على سيد كل من ارشد وعلم وصفوة من افتى والهم وقضى فحكم والزم سيدنا محمد ، السند الاعظم وعلى آله المطهرين من كل مأثم واصحابه الذين تنزهت ساحتهم عن سائر ما يذم، والذين ثبتت عدالتهم بنص الشرع المحكم فتأهلوا لان يبلغ الشاهد منهم الغائب ،ما صح عنده وبه جزم وتسلسل هذا التبليغ بين علماء الاسلام فيما خص وعم بأسانيد متصلة، هى من خصائص هذه الامة المحمدية ، دون سائر الامم . فالحمد لله على ما من به وانعم من حفظ دينه بالنقل المتواتر عن الصادق المصدوق سيد العرب والعجم صلى الله عيله وعلى آله وصحبه وسلم ، الى يوم الدين، يوم يقوم النـاس لـرب العالمين.

أما بعد ، فيقول الفقير الى مولاه ، الغني به عما سواه ، محمد الطيب المهاجى ، جعله الله يوم الفزع الاكبـر من الفريق الناجى ، ان من دواعى الالتفات الى ما مضى وفات ومن بواعث النظر فى عواقب ما هو مستقبل آت ان يتولى الشاب مدبرا ، ويقبل الهرم نذيرا ومذكرا : « وانى جاوزت فى هذه الحياة الدنيا الفانية السبعين سنة التي يقول عنها الكثير والجم الغفير ، انها عند الجمهور مدة التعمير الكافية بمفردها عن الشهود فى حكم الحاكم بموت المفقود ترجيحا للغالب على غيـر الغالب ، اذ من لا يجاوز السبعين اكثر بكثير ممن يجاوزها وقد كانت العـرب تسميها دقاقة الاعناق ، لما بلغت من العمر المدة المذكورة ، وصارت المستلذات مهجورة واصبح الامل فى تفسيح الاجل ضئيلا ، بل كاد يكون مستحيلا ، التفت الى الماضى فألفيته ذهب سدى ، وبدون جدوى قد افنيته فيما لا يعنى ولا ينفع شيئا، ولا يغنى فحاولت بعد ان وهن العظم منى تـلافى ما فات باصلاح ما هو آت فأعجزنى الكبر واقعدنى ضعف القوة عن القيام بالمفروض ، فضلا عن المسنون والمندوب ، فأحببت والحالة هذه ان اترك بين مخلفاتى اثرا لا يورث منى ولا يتحول نفعه عنى على امل ان يقف علـيه واقف على سبيل الصدفة او بقصد الاطلاع على محوياته ، وعلى ما تضمنه فحوى مجملاته ومفصلاته ، فقد يجد ما يستحسنه او يستصوبه ، او على الاقل يرى انه لا

بأس به فيذكرنى بخير ويدعو لى بما شاء الله ان يدعو به، وحينئذ اكون قد خلفت اثرا من الآثار الحسنة التى تسبب لاصحابها التعطف والترحم من الواقف عليها والناظر اليها بعين القبول ، ولا اظن ان احدا يبخل بالدعاء لاخيه المسلم خصوصا عندما يقف له على اثر طيب ، وعمل حسن. وفى الحديث النبوى ما لفظه او ما معناه :

**((من استطاع منكم ان ينفع اخاه فلينفعه))**

شاء الله ان يكون هذا الاثر هو تقييدى لاهم ما اتفق لى فى ماضى حياتى وحاضرها مع التحدث بنعمة ما قسم لى واهلنى الله تعالى لحمله من العلوم المعطاة عطاء الآهيا بدون مقارنة سبب ، وبدون ان يكون فى ذلك لاحد ادنى كسب سوى الاتجاه وحسن القصد روى البخارى فى كتاب العلم من صحيحه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله قال :

**(( من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وانما انا قاسم والله يعطى الحديث)).**

وروى ايضا فى الكتاب نفسه من حديث طويل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

**ليبلغ الشاهد الغائب ، فان الشاهد عسى ان يبلغ من هو اوعى له منه)).**

وحينئذ ، فما كان الغائب المبلغ له وهو متأخر فى الزمن اوعى من الشاهد المتقدم الا لمنح الآهية وقسمة نبوية يأخذ منها كل ذى حظ حظه الذى قسم له بقدر ما يستمد من مدد بحار علوم الشريعة بواسطة صاحب الرسالة او بواسطة نوابه فى التبليغ عنه قرنا بعد قرن ، الى قيام الساعة. وقد قال ابن مالك فى التسهيل ما نصه : « واذا كانت العلوم منحا الآهية ومواهب اختصاصية فليس بمستغرب ان يدخر لبعض المتأخرين ما صعب فهمه على كثير من المتقدمين .» انتهى.

فطالب العلم لا يبلغ من العلوم سوى ما قسم له ازلا وسبق به القدر ويروم محالا من يحاول استقصاء العلوم والاحاطة بما ظهر منها وما بطن، اذ العلم بحر زاخر، ومن علم شيئا فقد غابت عنه اشياء . وانما الذى فى الامكان هو ان يختار من العلوم احسنها واكثرها نفعا واقربها الى رضى الله تعالى العالم بالخافيات ويوثر عن سيدنا على رضى الله عنه وكرم وجهه العلم اكثر من ان يحصر فخذوا من كل شىء احسنه وقد ضمن ذلك الامام الشافعى رحمه الله فى بيتين حيث قال :

**لن يبلغ العلم جميعـا احـد**
**لا ولـو حـاوله الف سنـة**
**انمـا العلـم عميـق بحـره**
**فخذوا من كل شىء احسنـه**

غير ان من بين العلوم ما يجب تعلمه وجوبا عينيا وما يجب كفاية فالواجب العينى ما يتوقف عليه تصحيح العقيدة وصحة العبادة والمعاملـة فهذا القسم لا يكفى فيه احد عن احد ، ولا تبرا ذمة المكلف بفعل الغير عنه والواجب غير العينى ما يكفى فى القيام به بين المسلمين جماعات أو افراد تؤهلهم مواهبهم لادائه ، ومتى قاموا به على الوجه المطلوب سقط الطلب عن الباقى، شأن فروض الكفاية اذا قام البعض بها تبرا ذمة الكل ويخرج الجميع من العهدة كما يأثم الجميع ان اهملوا الواجب الكفائى بدون عذر ويدخل فى الواجب الكفائى سائر علوم الشرع وهى الفقه والحديث والتفسير والمراد بالقيام بها حفظها وتدوينها واقراؤها وحمايتها من شبه اهل الزيغ ومطاعنهم كما يجب القيام كفائيا بما يتوقف عليه فهم تلك العلوم الشرعية من لغة ونحو وصرف ومعان وبيان واصول وحساب لا هيئة وفلسفة ولا منطق على الاصح، ولا عروض، كما هو ظاهر، ثم لا ينافى كون هذه العلوم الاربعة لا يتوقف عليها فهم الشرائع الا تكون فى حد ذاتها مطلوبة بل يتأكد طلب تعلمها كغيرها من باقى العلوم على اختلاف انواعها خصوصا ما يساعد منها على بناء المجتمع البشرى على ما ينبغى ان يبنى عليه ماديا وادبيا، وما يرمى منها الى تنمية الفكر ، وتوسيع دائرة معارفه والسير به فى طريق الرقى حتى يصل الى ما يمكن ان ينتهى اليه علم البشر ، وتسعه مداركهم ، وقـد يعرض الوجوب الكفائى للعلوم غير الشرعية المتقدمة عندما تمس الحاجة اليها ، او تتوقف عليها مصلحة من المصالح العامة التى هى مناط التشريع الاسلامى فى كل ناحية من نواحى التكليف ، ذلك لان الاسلام ديـن كافل لسعادة الدارين وحافظ الانضمة صالح المبدى والمعاد نظر الى الآخرة فأعطاها ما تستحق ، ونظر الى الحياة الدنيا فضبط احوالها وهيأ اسباب الحصول عليها ، ووجه اليها من العناية فوق ما تستحق ، الامر الذى برهن ويبرهن على بطلان ما ينسب للاسلام اعداؤه زورا من انه دين اخروى فقط ، ان من ينظر الى مبادىء هذا الدين الحنيف ويقف على تعاليمه السامية يجدها دائما تحث على تعاطى اسباب التكسب ، وتؤكد على مرور الزمان طلـب تنمية المال ، كما يجدها تسن قوانين المعاملة وتبادل المنافع وتحتاط لضمان الحقوق المالية وغير المالية ، حتى ان تلك التعاليم العالية ، تمنع كل معاملة اشتملت على غرر او غبن او جهل عوض ، او احتوت على ما يـؤدى الى

النزاع او يفضى الى فتح باب الخصام بين المتعاملين .

وآيات القرآن العزيز المشتملة على الاحكام ، معظمها فى المعاملة تنظم احوالها وتقرر شروطها وموانعها ، وتضبط اوقات المؤجل منها باليوم والشهر والسنة ، وما الى ذلك مما لا تجد مثله ولا ما يقرب منه فيما تسنه القوانين الوضعية ، وتنظمه المحاكم الغير الاسلامية . وها هى آية المداينة من سورة البقرة تنطق بما قلنا من اعتناء الاسلام بشؤون الحياة الاجتماعية والفردية مثل اعتنائه بشرح اسباب السعادة الاخروية او اشد. قال الله تـعالى :

**« يايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها او ضعيفا او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ان تظل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ، ولا ياب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان امن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم .»**

فالآية الكريمة تطالب المتداينين بكتب الدين المؤجل وبالاشهاد عليه وبكون الشهداء عدولا مرضيين خوف النسيان او الزيادة او النقصان مع حماية المعاملة بعدالة الشهود من الزور والتزوير ، كما تنص الآية على ان من ليس اهلا لعقد المعاملة لصغر او سفه او ضعف راى لا يباشر التعامل وانما يباشره وليه نيابة عنه وتزيد الآية الكريمة فتسوغ لرب الدين ان يقبض من مدينه رهنا ان لم يوجد كاتب او اراد رب الحق بعد كتب الدين زيادة فى التوثق لحقه بقبض الرهن ثم تمنع الآية فى صراحة كتم الشهادة بدون عذر ممن طلبت منه وتحكم بأنه آثم قلبه لان فى كتمها تضييعا للحقوق وتشجيعا لاهل الباطل على باطلهم ، وما الى ذلك مما تضمنته الآية من الارشادات التى ترمى الى ضبط طرق المعاملة وتعديل خططها حتى لا يطرا عليه خلل ولا سوء تفاهم بين المتعاقدين. وليست هذه الآية وحدها تتصدى

لرسم خطط المعاوضة بل كذلك غيرها من آيات الاحكام تفتح امام الناس ابواب وجوه الانتفاع والتمتع بما احل الله من الطيبات ، وترشد الى الاسباب والوسائل التى يستطيع المرء بواسطتها ان يبنى مستقبلا يكفل راحته ويضمن له حياة طيبة تحفها السعادة والرفاهية والهناء من بين تلك الآيات آية الصدقة المفروضة او زكاة الاموال التى هى احد اركان الاسلام والتى جعل لها نظام خاص محكم عادل فى اخذها وفى قسمها على مستحقها مع بيان الاموال التى تؤخذ منها ، وبيان القدر المأخوذ ومن تؤخذ منه ومن تدفع له من الاصناف الثمانية المنصوص عليها فى قوله تعالى :

**« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم . »**

فالزكاة ركن مالى ، وفرض اجتماعى طريقه المواساة والعطف على الانسانية مع حفظ النظام واستتباب الامن ، فمهما ادى الغنى زكاة ماله ودفعها لمستحقها ، فانه يكون قد قام بواجب انسانى ، وساهم فى مشروع خيرى دفع به عن نفسه رذيلة البخل ، واصبح من جانب الفقراء فى امن على شخصيته من الاغتيال، وعلى ماله من النهب والسرقة ، اذ بالطبع ان الفقير عندما يرى عطف الغنى عليه ومساعدته على تخفيف الم فقره يتأثر بذلك ويحب الغنى ، وتزول من قلبه الاحقاد والضغائن لان النفس مجبولة على حب من احسن اليها . ومتى استحكمت روابط المحبة بين الفقراء والاغنياء فان المجتمع بكل طبقاته يعيش فى امن عام وهدوء شامل ، وهذا غاية ما تتمناه الشعوب وتعمل دائما من اجله . فالحق ان الزكاة رباط اسلامى متين ربطت به وحدة المسلمين واوثق به عرى اتحادهم وكان اكبر علاقة يتعلق بها فقيرهم بغنيهم وتؤلف بين قلوبهم ، ولا يكون للضغينة والحقد اثر فى قلوبهم فسبحان الاله الحكيم جعل احكام شرائعه مبنية على مراعاة مصالح المبدى والمعاد وتلك المراعاة هى المعبر عنها بحكمة التشريع المقصودة من خطاب التكليف وخطاب الوضع . وهكذا نجد تعاليم الاسلام تعتنى بشأن الحياة وبما يصلحها ويحفظ انظمتها من الاختلال وعدم الانضباط بما لا مزيد عليه ، وحينئذ فمن الافتراءات والمزاعم الباطلة ما يتقوله اعداء الاسلام على الاسلام من انه دين اخروى ، كل همه لفت الانظار وتوجيه الهمم الى الآخرة ، وصرفها بالمرة عن الالتفات الى عالم المادة، ويروجون هذه الاشاعة المزيفة ، والافتراء المكشوف حتى بين الأوساط الاسلامية ، ثم بنوا على باطلهم هذا باطلا أسخف منه واسمج وأغرب فى مخالفة الواقع

وهو ما يلوكونه من ان الاسلام هو السبب الوحيد فى تأخر المسلمين وفى الحيلولة بينهم وبين مزاحمة الامم فى ميادين النهوض المادى والادبى والسياسى حتى اصبحوا مجردين من كل مقومات الحياة ومعنوياتها . هكذا يشيع عن الاسلام اعداؤه ما يختلقونه من الاكاذيب والافتراءات محاولين بذلك عبثا ان يشوهوا سمعته الطيبة ويلصقوا به ما هو برىء منه بشهادة الواقع ، اذ تعاليم الاسلام كفيلة بسعادة الدارين وبمصالح المبدى والمعاد كما تقدمنا ذلك مفصلا . والعقلاء ممن لا يدينون بدين الاسلام ولم يصابوا بداء التعصب يعترفون بهذا الواقع ويعلنون به فى خطبهم ومنشوراتهم ، بل اعتنق الاسلام الكثير منهم واهتدى اليه بعدما تبين له انه الحق ، ومن هؤلاء من الف فى محاسن الاسلام وشرح الاسباب واوضح الادلة التى اقتنع بها والزمته الاعتراف بالحق والرجوع اليه .

« **فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام** » .

ومن توصيات الاسلام المأثورة عن بعض السلف : ( اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ولدنياك كأنك تعيش ابدا . وبعد هذا فنحن لا ننكر تأخر بعض الاقطار الاسلامية فى العصور القريبة ، كما لا ننكر رجوع المسلمين القهقرى بعد تقدمهم احقابا كانوا فيها القدوة والمثل الاعلى فى الانشاء والتعمير . وتمصير الامصار ، وتأسيس المعاهد والكليات وتشييد المصانع واختراع الحرف المهمة التى بها قوام العالم ، وما الى ذلك من العمارة التى بقيت آثارها دالة على ان القوم بلغوا من الحضارة اقصاها ، ومن العمارة منتهاها . الا ان هذا التأخر الطارىء على المسلمين بعد تقدمهم ليس سببه الاسلام كما يقول الخراصون ، بل سببه الوحيد هو انحراف المسلمين عن العمل بتعاليم دينهم واعراضهم عن الاخذ بنصائحه وارشاداته واهمالهم لوصاياه التى لو ساروا عليها وراعوها حق الرعاية لكانوا كما كان سلفهم سادة العالم اجمع. وللامير شكيب ارسلان تأليف سماه : « **لماذا تأخر المسلمون . ولماذا تقدم غيرهم** » استوعب فيه جميع اسباب تأخر المسلمين، وهى وان تعددت ، تلتقى عند نقطة واحدة هى عدول المسلمين عن تعاليم دينهم كما قلنا . ولله الامر من قبل ومن بعد ...

« **استدراك** » — فاتنى التعرض الى الكلام على بعض ما يتعلق بالمراة اثناء البحث السابق المتعلق بما تضمنته آية الدين المذكورة ، وكان مما تضمنته مقارنة المراة للرجل فى تحمل الشهادة فتلافيت ما فاتانى ، وذكرت بعض ما يتعلق بالمراة مما يجهله الكثير من الناس حيث يعتقدون ان المراة ليست متأهلة للتمتع بما يتمتع به الرجل من الحقوق الانسانية ، قال

الله تعالى فى غضون آية الديـــن :

**« واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكــونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ».** الآية .

فهذا النص القرآنى القطعى ، صريح فى ان المراة اهل للشهادة تحملا واداء وانها ليست احط من الرجل فى درجة العدالـــة ، وفى سائـــر الكمالات الانسانية ، كما انها على قدم المساواة للرجل فى الاستقلال بالتصرف المالى وغير المالى ، فقد خولها الاسلام حق النظر فى امر نفسها ، ومنحها الحرية التامة فى ان تختار من شاءت من الرجال زوجا لها بشرط الكفـــاءة كما جعلها الاسلام مستقلة فى تقديـــر ما ترضى به من الصداق، وفى ابراء الزوج مما فرضت من صداق او شرطت من شروط بدون توقف على وليها مهما كانت رشيدة غير محجور عليها . قال الله تعالى :

**« وآتوا النساء صدوقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا . »** سورة النساء . وقال جل ذكره فى سورة البقرة :

« وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة **فنصف ما فرضتم الا ان يعفون او يعفو الذى بيده عقدة النكاح »...**

اى ، الا ان تعفو المطلقات الرشيدات او يعفو اولياء القاصرات . وقال تعالى ايضا فى نفس السورة :

**« ولا يحل لكم ان تاخذوا مما آتيتموهن شيئا الا ان يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به »...**

اى فيما دفعت من المال للزوج لتفتدى به وتتخلص عصمتها من يده ويحل لهذا الزوج ما اخذ منها ويسمى ذلك فى عرف الفـقهاء خلعا وطلاقا بعوض. واذا رفع الاسلام الجناح على المراة واباح لها التصرف بعوض فى نظير شىء غير متمول ، وهو العصمـــة ، فـــبالاولى ان يبيح لها التصرف بعوض فى متمول تنتقل ملكيته لها بواسطة عقد المعاملة على ذلك المتمول ثمنا كان او مثمنا ثم حق التصرف المالى وغير المالى على الوجه الذى ذكرنا يمنح شرعا للمراة متزوجة وغير متزوجة، وليست صاحبة الزوج من النساء مملوكة للزوج او هى بمثابة متاع من الامتعة يستعمل عند الحاجة بل هى شريكة الرجل فى الحياة الزوجية يتبادلان المودة والرحمة ويعملان معا لسعادة مستقبلهما مع احتفاظ كل منهما بالتمتع بحريته الشخصية وباستقلاله فى تدبير شؤونه الخاصة به وعقدة النكاح انما اوجبت لكل واحد منهما قبـــل صاحبه حقوقا معينة . قال الله تعالى :

(( **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** )) سورة البقرة .

وليس من تلك الحقوق ما يعتقده العامة من كون الزوج يسيطر على الزوجة ويضغط على حريتها ويحول بينها وبين التصرف بضربه على يدها كأمة مملوكة لا تقدر على شيء ، لان هذا الاعتقاد الفاسد الذى منشؤه الجهل يتنافى مع قوله تعالى :

(( **وعاشروهن بالمعروف** )).

الموجب على الازواج الرفق والمجاملة . والصداق المفروض لصحة عقد الزوجية ليس هو ثمنا مدفوعا فى مقابلة ذات المراة ، وانما هو مبلغ مالى تستحقه بالعقد عليها ، كما تستحق النفقة والسكنى . وسمى المبذول من المال صداقا ، لانه دليل على صدق المتناكحين فى موافقة الشرع . وبالجملة ، فالنساء شقائق الرجال فى الاحكام وفى سائر الشؤون الطبيعية للحياة ما دامت المراة تسير على خطة الاعتدال ، وتسلك السبيل السوى الذى يتفق وكرامة الدين ، ويحفظ عليها صيانتها وعفافها ، ويكسوها جمال الحشمة والوقار . وليس من الحرية الممنوحة شرعا للمراة تبرجها الزينة بادية الشعر مكشوفة الصدر والذراعين مرتكبة ما ينافى الحشمة والآداب تغشى محلات الرقص والخلاعة ، وتلج الاماكن التى تذبح فيها الفضيلة وتروج بها الرذيلة بكل اشكالها والوانها . ان الاسلام يمقت امثال هذه الاعمال المخلة بالشرف والمضادة للآداب ، ويقاومها اشد المقاومة كما يحارب المدنية الكاذبة التى جلبت علينا شرها المستطير والتى اغترت بزخارفها البراقة المراة المسكينة ، فدفعت بنفسها فى تيار تلك المدنية الخاسرة وجعلت كرامتها وكرامة اهليها وعشيرتها موضعا لاحاديث الناس واقاويلهم ، فكانت وبالا على نفسها واهليها وعلى المجتمع ايضا . ومع هذه الاضرار الناجمة عن مجاوزة المراة ما حد لها شرعا نرى الجرائد والمجلات تنشر دائما وباستمرار النزاع القائم بين دعاة السفور وانصار الحجاب ، وتذكر الردود التى صيرت الخلاف بعيد الشقة بين الفريقين مستمرا الى غير نهاية . فدعاة السفور رجالا ونساء يقفون صفا يناضلون عن المراة ويرون انها مهضومة الحقوق ويحاولون ان تمنح حرية تكون معها مطلوقة العنان حبلها على غاربها ، تتبرج كيف شاءت وتبدى من زينتها ما شاءت وتقتصر فى ثياب المخرج على ما تقتصر عليه فى حجرة نومها ، ويرون ان هذه المخازى من التقدم ورفع مستوى المراة . وينسون او يتناسون ما يشاهدونه من الامراض الاجتماعية الفتاكة التى اماتت الشعور والاحساس بالشرف الانسانى ، وقضت على الاخلاق وذهبت بالآداب ، ولا سبب لهذا الوباء

المنتشر سوى كون المراة تتبرج وتتهتك وتخاصر مـــن شاعت من الرجال فى محلات الرقص وتغازل من تريد مغازلته ، وتبيح له ان ينظر منها ما لا يحل حتى لمحرمها ان ينظره . ولهذا نرى الكثير من عقلاء اروبا التى هـــى مهد انحطاط الاخلاق يتضرمون على السفور وعلى ما جره من ويلات وشرور ويودون لو جعل حد لهذا الخطر المـــحدق بايقاف تيار التـــبرج الفـــاضح ويعترفون بأن الاسلام على حق فى فرض الحجاب الذى شرع لصيانة المراة ولحمايتها من طمع الطامعين. الا ان انصار الحجاب بالغوا فيه مبالغة افضت الى الحرج والمشقة ، والخروج به عن معناه الشرعى حيث حرجوا عـــلى المراة والزموها ان تكون رهينة قعر بيتها بعد غلق بـــابه وســـد منافذه ومنعوها الخروج راسا حتى ولو ادت الحاجة الى الخروج ، وهـــذا من الزام ما لا يلزم وايجاب ما لا يجب ، والواجب اللازم للمراة هو ان تكون خـــارج منزلها مستورة البدن غاضة بصرها عن كل ما يـــنافى الحشمـــة والوقار . واما ترك الخروج فقدر زائد على الواجب لم يدخل فى مفهوم الحجاب الشرعى . وهذا هو الذى فهمه اصحاب النبـــى صلى الله عليـــه وسلم من قوله تعالى فى سورة الاحزاب :

**« يايها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين » .**

روى انه لما كانت الحرائر والاماء فى المدينة يخـــرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والامـــاء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للاماء، وربما تعرضوا للحرائر فاذا كلموا فى ذلك قالوا حسبناهن اماء امر الحرائر ان يخالفن الاماء فى الـــزى والتستر ليتمايزن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع . وروى على بن طلحة عن ابن عباس قال : « امر الله نساء المؤمنين اذا خرجن من بيوتهن فى حاجة ان يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة وعن ام سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت لما نزلت هذه الآية :

**(يدنين عليهن من جلابيبهن)** خرج نساء الانـــصار كـــأن رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن اكيسة سود يلبسنها . فهذه الاخبار وغيرها الواردة عن السلف المقتدى بهم صريحة فى ان الحجاب ليس هو منع المراة من الخروج، وانما هو منعها من التبرج بالزينة كاشفة عن ساقها وبقية اطرافها مبتذلة يساومها كل مفلس . واجمال ذلك ان على المسلمة اذا خرجت من بيتها لحاجة ، ان تسدل عليها ملابسها ، بحيث تغطى الجسم والراس ولا تبدى شيئا من مواضع الفتنة كالراس والصدر والذراعين ونحوها غير

مرتكبة ما يخل بالشرف ويحط من الكرامة او يخرج عن الآداب. وليس من الانصاف للمراة منعها من الخروج على الاطلاق ، ومن يقل بمنعها من الخروج باسم الحجاب فليس بمصيب ولا هو فاهم للمراد من الحجاب الشرعى وكان عليه الا يحدث فى الدين ما ليس فيه خصوصا وان هذا التعمق المنفر يتنافى مع رفع الحرج الذى جاءت به الملة الحنيفية السمحة . وبالجملة فالاسلام بعد محافظته على شرف المراة وصيانة كرامتها منحها من الحقوق ما لم يمنحها سواه لا من الاديان السماوية ولا من القوانين الوضعية . فقد جعلها تساوى الرجل فى التكاليف الشرعية ، وفى التصرفات المالية وغير المالية ، وفى حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير وسائر مشاهد الخير بشرط امن الفتنة وعدم مخالطة الرجال ، كما جعل لها ايضا بمقتضى عقد الزوجية حقوقا على الزوج تحتفظ بها ما دامت فى عصمته ، فاذا طلقت ثبت لها بالطلاق على المطلق السكنى مدة العدة ونفقة الحمل ان كان ، واجرة الرضاع ان ارضعت ولدها من المطلق . قال الله تعالى :

**« اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كان اولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان ارضعن لكم فآتوهن اجورهن واتمروا بينكم بالمعروف .»** سورة الطلاق

كما يثبت للمطلقة بالطلاق المتعة وهى مبلغ مالى يقدر بحال المطلق فقرا وغنى يسلمه لمطلقته جبرا لخاطرها المنكسر ، والمتالم من الفراق غالبا . قال الله تعالى :

**« ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين »** . سورة البقرة .

وهكذا نجد الدين الاسلامي يتوسع فى حقوق المراة ويلحقها بالرجل فى كل النواحى الحيوية ويبوئها منزلة لا تشعر معها بأدنى حيف او هضم حق فسماحة الاسلام للمراة بما ذكرنا وبغيره من الحقوق هو اقصى ما يتصور منحه مما يحفظ على المراة شرفها وكرامتها ومالها من الواجبات بحيث تعيش محترمة تتمتع بسمعة طيبة بين الاوساط . ولكن دعاة السفور ابوا الا ان يشجعوا المراة ويغروها على الاندفاع فى تيار المدنية الكاذبة التى مسخت الانسان انسانيته وجردته من كل فضيلة والذى يحزننا ويؤلمنا بوجه خاص هو ان الكثير ممن ينتسبون للاسلام يتنكرون لتعاليم دينهم ويتحيزون الى فئة دعاة السفور ويرقصون على نغماتهم فيقولون زورا من الانصاف ان تساير المسلمة زميلتها الاوربية وتباريها فى كل ميدان وفى كل مشهد ثم لا عليهم فى ذلك ان تكون المسلمة ممتهنة مبتذلة ، يطمع

فيها الانذال ويسلومها كل دنىء ومن سخافات اولائك المنتسبين الى الاسلام كذبا ان قالوا انتصارا للمراة فى زعمهم ان عقدة النكاح تتضمن كون الطلاق حقا مشتركا بين الرجل والمراة وان ايقاعه من الرجل وحده متوقف على رضى المراة يحاولون بتلك آلسخافات ان يجردوا الرجل من حق خوله الاسلام اياه منذ اربعة عشر قرنا وجعله مستقلا به يوقعه متى شاء وبأى لفظ شاء كما هو صريح الشرع كتابا وسنة ، واجماعا والنصوص كلها قاضية بأن المراة لا حق لها فى الطلاق لا استقلالا ولا اشتراكا ، وانما لها بالطلاق حقوق تحتفظ بها لنفسها تطالب بها المطلق ان شاءت وبالاحتفاظ بهذه الحقوق المخولة لها بعد الفراق يتبين بكل وضوح ان المطلقة لا يكون عليها فى الطلاق ادنى ضرر، ولا يلحقها اقل ضيم. وهؤلاء المتنطعون قصرت انظارهم عن ادراك اسرار الاحكام الشرعية فقالوا زورا جعل الطلاق حقا للزوج وحده يسبب حيفا على الزوجة وهضما لحقوقها ثم بنوا على هذه الاقوال الفارغة والنزعات السفورية ما هو اشنع وافظع ، فقد سن بعض من يراس منهم امة اسلامية قانونا يقضى بأن الطلاق لا يمضى ولا يعمل بمقتضاه حتى يقع امام الحاكم بحضرة الزوجين وترضى به المراة فان لم ترض فان الحاكم يحكم برده والغائه ولو اوقعه الزوج الف مرة ويجبر على معاشرة مطلقته معاشرة غير شرعية عملا بالقانون الوضعى الجديد والغاء للحكم الشرعى القديم . هذا هو ما يرضاه لنا المتحيزون الى فئة دعاة السفور . ونحن معاشر المسلمين لا نرضى به ابدا ، ونقول ما هو الا فتنة فى الارض وفساد كبير ، ونقول ما قال النبى صلى الله عليه وسلم :

**« من احدث فى ديننا ما ليس فيه فهو رد ».**

وبعد هذا فالذى ينبغى ان نعلمه هو ان الاسلام يتشوف دائما الى بقاء رابطة الزوجية بين الزوجين الى الموت ، ولكنه لا يحتم على الزوج البقاء مع زوجته اذا اشتدت النفرة بينهما لتباين فى اخلاقهما ، فشرع له الطلاق حلا لمشكلة النزاع بعد ان سن للفرقة نظاما يمنع الفوضى فى الطلاق ويحول دون استرسال الناس فى العبث بالانكحة . فمشروعية الطلاق وسيلة غايتها خلاص احد الزوجين من ظلم الآخر ، او خلاصهما معا ان كان كل منهما ظالما لصاحبه ، فهو من هذه الناحية فيه تيسير ورفق ورحمة من الله بعباده تريح من دوام عشرة سيئة وعيشة منغصة . ومع هذا فالطلاق ليس مرغوبا فيه . وفى الحديث النبوى :

**« ابغض الحلال الى الله الطلاق ».**

وانما ابيح للضرورة ، ولذا ينبغى الا يصار اليه الا عند تعذر

الأصلاح بأى وجه امكن فمتى وجدت مندوحة للعدول عنه فالاولى تركه ابقاء لرابطة الزوجية ، وقد سمى الله تعالى هذه الرابطة ميثاقا غليظا كما شكك المرء فى وجدانه عند وجود نفرة فقال فى سورة النساء :

**« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .»**

فهذا التشكيك فى كون الكراهية قد يجعل الله فيها خيرا كثيرا هو من اعظم الصوارف عن الطلاق . وبالجملة فالطلاق غير مرغوب فيه شرعا كما قلنا . وعندما يتعين طريقا لا مناص منه فالذى يوقعه هو الزوج وحده ولا مدخل للزوجة ولا لوليها ولا للحاكم فى ايقاعه لان الطلاق شرعا بيد الزوج ولو عبدا مملوكا لا يقدر على شيء. نعم يتدخل الحاكم فى الزام الزوج المطلق ما ثبت لمطلقته من الحقوق بسبب الفراق . وقد ذكرنا تلك الحقوق سابقا وبينا انه لا يلحق المراة معها ادنى ضرر بالطلاق . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ثم هنا مسألة تتطلب بحثا دقيقا وكلاما مسهبا ، وهى مسألة تعدد الزوجات وجمعهن فى عصمة رجل واحد، وقد اباح الاسلام هذا التعدد وشرط للاقدام عليه شرطا لا بد منه وهو العدل بين المتعدد من الزوجات فيما يفرضه التعدد من القسم فى المبيت ومن ترك التمتع بغير صاحبة النوبة فى يومها الا برضاها وتجنب الميل الكلى المنافى للعدل . وليس تعدد الزوجات من الشعائر الاساسية التى لا بد منها فى نظر الشرع الاسلامى، بل هو من المباحات التى يرجع امرها للمكلف ان شاء فعل وان شاء ترك ما لم يتعد حدود الله ويترجح ترك التعدد على فعله لان فى تركه تفاديا من تحمل المسئولية الناتجة عن التقصير فى العدل او عن اهماله بالمرة ، كما هو المشاهد فى الاكثر من ذوى الزوجات ولا يترجح الفعل على الترك الا عند توقف مصلحة عامة او خاصة على التعدد ، أو دعت اليه ضرورة اكيدة ، كأن يكون الرجل من طبعه الافراط فى الوقاع ، ولم تعفه الواحدة وخشى على نفسه العنت وكأن تكون الواحدة مريضة مرضا مزمنا او ليست صالحة للحمل لكبر سنها او لعقمها من اصل الخلقة او لعارض يعوق النطفة عن التكوين وعن اطوار التخليق فالزام الرجل فى هذه الاحوال الاقتصار على الواحدة يأباه الشرع والعقل والمنطق ، اذ لا يليق ان يبقى مقصورا على واحدة فاقدة ما يقصد من رابطة الزوجية وعقدة النكاح متعرضا لارتكاب ما لا يحل محروما من النسل المبتغى من الزواج بل الاليق به والاوفق من جهة الشرع هو ان يعدد الزوجات بقدر الحاجة ، ويقوم بينهن بالعدل والتعدد وان كان فى الغالب لا يخلو من ضرر لما يقع بين الضرائر من الغيرة

والتنافس ، ولكنه ضرر خفيف لا ينبغي ان يترك من اجل هذا الضرر الخفيف لان ترك التعدد تترتب عليه مضار كثيرة ، وتفوت بالاعراض عنه مصالح عظيمة فمتى دعت الضرورة الى التعدد او تعينت فيه مصلحة فهو مباح بشرط العدل بل ينبغي ان يكون فى هذه الاحوال مطلوبا ومن دواعى التعدد وبواعث ترجيح فعله ان يربو عدد النساء على عدد الرجال كما هو المشاهد فى كثير من الحروب يموت الالاف من الرجال بل الملايين ويخلفون وراءهم من النساء مقدار ذلك العدد ، ومثله معه . ومن المعلوم ان المراة عاجزة بالطبع ، فقيرة دائما الى من يدبر شؤونها ويحمى عرضها من سوء الاحدوثة وتشويه السمعة ، فاذا لم يكن لها قيم يتولى امورها اضطرت ولا بد الى مباشرة الاعمال بنفسها . وفى هذه الحالة قد تلجئها الضرورة الى ارتكاب ما يدنس عرضها ويخل بعفافها وصيانتها . فهل يليق بنا او يستقيم لنا ان نقول لذى زوجة لا يباح لك التعدد وهو يريد ان يتزوج بهذه المسكينة ويضمها لزوجته ليصونها ويحفظها من الاهمال والضياع ..! اننا عندما نمنع امثال هذا الفرد من التعدد ، او نقول يمنع التعدد على الاطلاق ، نكون قد جنينا على المجتمع ، وعلى المراة نفسها حيث عرضناها للاخطار وفتحنا امامها باب المفسدة واطلقنا لها العنان ، تتخذ هذا او ذاك خليلا لها ولو سرا كما هو الواقع فى الأمم التى منعت تعدد الزوجات جاهلة او عامدة ما ينجم عن هذا المنع من المضار والمفاسد لكن الاسلام عرف ما يفضى اليه منع التعدد من الفوضى والانحلال ، فاباحه اتقاء لتلك المفاسد ، بعدما شرط لاباحته تحقق العدل . ولقد خدم الاسلام بهذه النظرية الصالح العام ، وافاد الفرد والمجتمع ووقى العالم الاسلامى ما يعانيه غيره من العوالم بسبب حظر تعدد الزوجات ، وبسبب الغفلة عن النظر فى العواقب التى منها الدين الاسلامى دائما على حذر ويقظة وتنبه ، يحتاط لها ويعد العدد لجلب منافعها ودفع ضارها قبل وقوعها . فقد نظر الى ما يترتب على تعدد الزوجات من جلب منافع ودفع مضار ، فاباحه وبنى اباحته على اساس العدل . فقال الله تعالى :

**« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الا تعولوا »**

سورة النساء

ومعنى الا تعولوا ، الا تجوروا ، وللشيخ رشيد رضى فى مناره عند الكلام على هذه الآية بحث مستفيض تكلم فيه باسهاب واوغل فى التفلسف بذكر مقدمات وتمهيدات يرجع اكثرها الى مباحث من علم الطبيعة

وعلم الاجتماع ، ثم استنتج من ذلك ان ضرر تعدد الزوجات اكبر من نفعه وعلل ذلك بما يعلم بالوقوف على كلامه فى تفسير المنار، والله اعلم بالصواب ولنقف عند هذا الحد راجين ان نكون على صواب فى تقديم هذه البحوث امام المقصود لمناسبات اقتضاها المقام تدرك بأدنى تأمل .

والآن اشرع فى المقصود بالذات فاقول سميت هذا التقييد الموجز والعمل المنجز « **انفس الذخائر واطيب المآثر فى اهم ما اتفق لى فى الماضى والحاضر** »......

وقد رتبته على مقدمة ، وثلاثة مقاصد وخاتمة وتذييل ، وربما تعرضت اثناء الكلام على هذه المواضيع الى ما يرتبط بها بأى وجه من وجوه الارتباط ، وبآية مناسبة من المناسبات ولو غير قوية ، حرصا على الفائدة وقد قيل لا اطناب مع الفائدة . والله المسؤول ان يجعل هذا التقييد المفيد والعمل المرضى السديد من السعى المقبول ، لانه من باب التحدث بالنعمة وغير خاف ان التحدث بالنعم شكر لله عليها ، وطلب للمزيد منها، والشكر معلوم انه من اجل الاعمال المبرورة وارجاها قبولا واقربها الى رضى الله تعالى. على ان تقييدى هذا لا يخلو من حل مشكلة او افادة حكم مسالة او جلب حكاية ادبية او سرد حادثة تاريخية ، كما سيقف على ذلك القارىء ان شاء الله . والاعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

ثم انى جعلت موضوع المقدمة ، التراجم والفهارس والاثبات والبرامج ، وموضوع المقصد الاول من الثلاثة ابتداء امرى نشأة وولادة، وما يتبع ذلك من كفالة ورعاية وتربية. وموضوع المقصد الثانى تعلمى الحروف الهجائية وقراءتى القرآن الكريم حفظا واتقانا وتجويدا ورواية ، ثم اتجاهى لطلب العلم والسعى فى تحصيله . ويحتوى هذا المقصد الثانى على ذكر المشايخ الذين اخذت عنهم مشافهة او بالاجازة مباشرة او بواسطة الكتابة نثرا ونظما . وموضوع المقصد الثالث ، جلوسى للتدريس وتعليمى للفنون التى تلقيتها او اجيز لى بها مع ما كان يعرض من الفتاوى والاجوبة والردود مشافهة او على السنة الجرائد الى الوقت الحاضر سنة تسع وسبعين وثلاثمائة والف هجرية ، وستين وتسعمائة والف مسيحية . واما الخاتمة فهى فى التخلص الى ذكر حوادث مؤلمة وقعت بالقطر الجزائرى فى التاريخ المذكور او قبله بيسير نابنى من ويلاتها الحظ الاوفر والنصيب الاكثر ، والله المستعان ، واما التذييل فموضوعه ذكر نسبى مع بيان المصادر التى اعتمدته عليها فى ثبوت هذا النسب الشريف حققه لنا المولى الكريم ذو الفضل العظيم .....

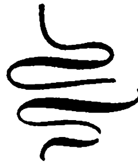
# « المقدمة »

التراجم ، جمع ترجمة تطلق على التعبير عن معنى قائم بالنفس بلفظ يؤدى المعنى بتمامه ويدل عليه مطابقة كقولنا **لا اله الا الله** ترجمة على ما فى القلب من الايمان ، وتطلق على تفسير لغة بلغة ، ويسمى التفسير بالعربية لغيرها من اللغات تعريبا وترجمة الشيخ ذكر اسمه ولقبه ونسبته الى بلد او قبيلة او حرفة ، وذكر تاريخ ولادته ووفاته مع سيرته المحتوية على ما له من مآثر ومحاسن ، وما له من المشايخ الذين تلقى منهم أو اجازوه ، وعلى عدد ما له من مؤلفات ، أن كانت ، وما الى ذلك مما يتفق له من رحلة وفتوى ومناظرة ، ويعرض من نكبة او حظوة عند امراء عصره وما يسند اليه من وظيفة او خطة ، وسائر ما تقلب فيه ايام ادوار حياته . واما الفهارس فجمع فهرسة بكسر الفاء والراء ، وبعضهم ضبطها بفتح الراء ، واما الاثبات فجمع ثبت بفتح الباء الموحدة ، والبرامج جمع برنامج بفتح الميم وكسرها ، والثلاثة متقاربة المعنى بل لا يبعد أن تكون مترادفة ، وما بينها من الفرق الدقيق لا يمنع ترادفها وتواردها على معنى واحد ، وذلك المعنى هو جمع العالم مروياته واسانيده وما تلقاه او اجيز له به من العلوم مع ذكر شيوخه وسنده المتصل بمؤلف الكتاب الذى حضره او المجاز به فى اى موضوع كان، وفى اى فن وجد من حديث وتفسير وفقه ونحو وبلاغة وتصوف ، وما الى ذلك من العلوم المتنوعة المجاز بها من شيوخه ، مع ذكر اجازتهم بالحرف ، هذا واكثر المتأخرين عدلوا عن تسمية هذا النوع بالفهرسة او البرنامج واقتصروا فى التسمية على لفظ الثبت بفتح الباء الموحدة ، وصار هو المتداول عند علماء هذا الشأن . وقد ذكر الشيخ يوسف لنبهانى رحمه الله فى ثبته الذى سماه :

**« هادى المريد الى طرق الاسانيد »** نحو الاربعين ثبتا اقتصر فى اجازته العامة لاهل عصره بشرطها المعتبر على خمسة منها وهى ثبت الشيخ عبد الله بن سالم البصرى ، وثبت الشيخ محمد عابد السندى المدنى وثبت الشيخ السيد محمد عابدين ، وثبت الشيخ عبد الرحمن الكزبرى ، وثبت الشيخ محمد الامير الكبير وهو اكثرها رواجا ، وقد اجازنى بما احتوى عليه من الاسانيد احد اشياخى كتب لى الاجازة على هامشه . وسنذكر نص اجازته فى محلها ان شاء الله ، وبخزانتى نسخة من هذا الثبت جيدة الخط . ومنذ مدة طويلة طبع هذا الثبت مرة واحدة طبعة بها

من التحريف ما يزهد فى اقتنائها وفى مطالعتها ، ثم لا يزال العلماء فى القديم والحديث يترجم اللاحق للسابق وللمعاصر ،وقد يترجم العالم لنفسه كجماعة منهم الامام السيوطى فى حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة ولسان الدين ابن الخطيب فى تاريخ غرناطة ، والحافظ تقى الدين آلـــفاسى فى تاريخ مكة، والحافظ ابو الفضل المعروف بابن حجر فى قضاة مصر ، وابـــو شامة فى الروضتين ، والشيخ عبد الباقى الحنبلى واضرابهم . وقد أختلفت مقاصد المترجمين ، فمنهم من ترجم لمن تقدمه ولمن عاصره من غير ان يخص علماء فن ولا علماء مذهب او بلد او قـــرن كابن خلكان فى وفيات الاعيان، ومنهم من ترجم لعلماء الادب خاصة يافوت الحموى فى معجم الادباء، ومنهم من خص بالترجمة اصحاب مذهبه كابن فرحون فى الديباج والتاج السبكى فى طبقات الشافعية ، ومنهم من لم يترجم الا لاهل بلد واحد كـــصاحب الشقـــائـــق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، ومنهم من ترجم لمن جمعهم قرن واحد كصاحب خلاصة الاثر فى علماء القرن الحادى عشر ، ومنهم من اقتصر فى ترجمته على رجال التصوف ومن نسج على منوالهم كالامام الشعرانى فى الطبقات الكبرى وكلهم كانت مقاصدهم حسنة رحمهم الله وأسكننا معهم دار الســـلام .

هـــذا والباعث على جعل هذه المقدمة من محويات كتابى هو انى ذكرت فيه معلوماتى واشياخى واجازتهم لى وتعلمى ، فكان الكتاب اشبه شىء بالثبت بفتح الموحدة ، ولم نقل هو هو لأنى تعرضت فيه آلى اشياء لا يصدق اسم الثبت على شىء منها ، والخطب سهل، وهنا انتهى الكلام فى المقدمة ويليه الكلام على المقصد الاول .



# «المقصد الاول»

وهو ابتداء امري . ولدت فى السنة الاخيرة من القرن الثالث غشر الهجرى بربيع الانور التى تشرف بولادة سيد البشر ، اذ كانت تلك الولادة المباركة ليلة الثانى عشر من نفس الشهر قبيل الفجر حسبما عليه جمهور المؤرخين ، وارباب السير وانى اعد ولادتى بهذا الشهر المشرف المبارك الميمون فضيلة تفضل الله على بها فله تعالى الحمد ومزيد الشكر . وقد ولدت فى الشهر المذكور بأرض الكمدة من قبيلة اولاد على احدى قبائل بنى عامر بن زغبة المعروفين بعروبتهم ، كانوا قد انتجعوا من جزيرة العرب اوائل الفتح الاسلامى للمغرب ، وبعده بقريب وفيهم على ما يقال قرشيون يعرفون بين الناس بالاجواد . آستوطنت هذه القبائل المغرب الاوسط ، منازلهم صيفا وشتاء يحدها غربا مدينة تلمسان وما حاذاها ، وشرقا واد افكان الحاجز بينهم وبين قبائل الحشم الذين يقول عنهم المؤرخون انهم ايضا من العرب ، ويفصل بينهم وبين ثغر وهران شمالا قبائل الزمالة والدوائر ويحد منازلهم جنوبا الجعافرة وبنو مرنباين ، واشتهرت هذه القبائل العامرية بين الاوساط المجاورة لها بأسام تمتاز بها وهى اولاد سليمان واولاد غاز واولاد عبد الله واولاد زائر واولاد خالفة واولاد الميمون واولاد ابراهيم ، ويعاشرهم اخلاط من البربر وبعض الاشراف الادارسة منهم اولاد سيدى على بن ايوب بقبيلة اولاد ابراهيم ، وفروع من شرفاء مهاجة وهم اولاد سيدى الهاشمى واولاد ابى راس واولاد ابى كلمونة واولاد عبد الرزاق واولاد سحنون واولاد العربى واولاد بن ويس الساكن بعضهم بحاضرة فاس منهم العلامة المفضال الشيخ الحبيب المهاجى من هياة كبار علماء القرويين . وهذه الفروع كلها بقبيلة اولاد سليمان ، ويوجد بقبيلة اولاد على من شرفاء مهاجه أولاد سيدى الفريح واولاد سيدى مفلح المعروفون بالعرايبة ، واولاد سيدى سعيد . ويوجد ايضا بقبيلة اولاد على ممن ينتسب للشرف من غير مهاجه اولاد سيدى معاش واولاد سيدى غانم ، والله اعلم بحقيقة الحال ، ولا زالت بقبائل بنى عامر بقايا من مزايا العرب وخصالهم المحمودة جبلت عليها نفوسهم ، وكانت لهم غرائز فقد اشتهروا بالكرم والشجاعة والفروسية واقتناء الخيل الجياد ، مع الخبرة بأساليب الحرب وممارستها ومصابرة العدو مهما كثر عدده وتوفرت عدته ، كما اشتهروا بأنهم اباة ضيم لا يرضون بالدنية ولا يرضخون الا لامارة من يعرف

لهم حقهم ، ويرفع قدرهم ، ثم يشركهم معه فى الوظائف السامية والمناصب العالية التى يزدادون بها شرفا على شرفهم ، وكثيرا ما كانوا يثورون على امرائهم خصوصا الاتراك عندما يلوح لهم ان الامراء قصروا فى حقهم ، وتستمر المعارك بينهم مدة حتى يتدخل فى الصلح بعض الاشراف المواطنين لهم فتخمد ثورتهم بعض الشىء . ولما بويع الامير عبد القادر البيعة الثانية العامة سنة ثمان واربعين ومائتين والف هجرية كان بنو عامر هؤلاء اول من بايع الامير وانتظموا فى سلك طاعته وكان الامير كثيرا ما ينتصر على عدوه بواسطتهم لشجاعتهم وتدربهم على حسن الرماية بحيث لا تسقط لهم رصاصة بالارض ، كما شهد لهم بذلك صاحب الاستقصى وصاحب تحفة الزائر ، ثم بعد مدة انحرفوا عن الامير عبد القادر كما هو شأنهم مع من تقدمه من الامراء وهاجروا بأهليهم واموالهم الى المملكة المراكشية فأكرم السلطان مولاى عبد الرحمن رحمه الله وفادتهم ، واحسن مثواهم واقطعهم ارضين صالحة للزراعة وغرس الاشجار وتربية المواشى ، كما ساعدهم بكل المرافق التى يتوقف عليها صلاح حالهم بصفة انهم مهاجرون . ولكن سرعان ما تنكر لهم وقلب لهم ظهر المجن بسبب وشاية همس بها فى اذنه احد امرائه المغرضين ، وهى ان دخول بنى عامر ارض المغرب لم يقصدوا به الهجرة وانما قصدوا منه تمهيد الطريق للامير عبد القادر واستمالة قلوب اهل المغرب اليه ليتمكن بذلك من الاستيلاء على الدولة العلوية ويضمها الى الجزائر ، ويقبض على ناصية الجميع . هكذا دبرت الوشاية التى ترتب عليها من الفظائع ما يأتى ، وكان اللائق برفعة مقام السلطان وسمعته الطيبة الا يعير الى هذه الوشاية ادنى التفات ، ويضرب بها عرض الحائط ، ولكها اثرت عليه كل التاثير وصيرته يتحين الفرص للانتقام من بنى عامر اما بابادتهم عن آخرهم ، واما بتوزيعهم فرادى وجماعات فى انحاء مملكته ليضعف حركتهم ويهين قوتهم ويقطع اتصال بعضهم ببعض ، ووقتئذ يستريح مما كان يشغل باله من الخيالات الوهمية التى لا تحقق لها فى الخارج . اما بنو عامر فانهم عندما احسوا من السلطان ما يكيده ويدبره فى خفاء ويضمره من الشر عزموا على مفارقة المغرب وعلى التحاقهم بوطنهم، وفعلا صاروا يرتحلون وينزلون ولسان حالهم يقول :

ان كان لا بد من اهل ومن وطن
فحيث آمن من البقى ويامننى

ولما بلغ السلطان انهم فى طريقهم الى وطنهم جمع جموعا من العساكر النظامية والقبائل المتطوعة ، والاخلاط المرتزقة وامرهم بجبر بنى عامر على الرجوع الى تخوم بلاد مراكش ! فأدركتهم تلك الجموع قرب الحدود الجزائرية فبعثوا الى قائدها وقالوا : نحن قوم مهاجرون اخترنا العودة الى بلادنا واللحوق بأميرنا ، فلا سبيل لكم علينا لا شرعا ولا قانونا فأعارهم القائد اذنا صماء ، واستمر على تنفيذ مأموريته المكلف بها من طرف السلطان . وكان بنو عامر قد اعتصموا بجبل هناك نزلوا اسفله وجعلوه خلف ظهورهم ، وكانت رصاصاتهم ، كما قال صاحب الاستقصى ، لا تسقط بالارض ، فوجه القائد لقتالهم كتائب من جموعه فرات منهم من البأس والاقدام والبسالة ما حملها على الانسحاب بدون نظام بعدما قتل اكثرها فعززها بثانية وثالثة ، فحل بهما ما حل بالاولى ، ورجعتا تجران اذيال الخيبة . وعندما راى القائد ما حل بكتائبه امر جيوشه كلها بالزحف فأحاطت ببنى عامر احاطة السوار من الساعد ، وبطل اطلاق البارود وصار القتال بالسيف والخنجر والسكين ، وقد اقبلت جموع السلطان تتهافت على النهب والسلب وتجريد النساء من حليهن ، ومن تعصى نزع سوارها من معصمها او خاتمها من اصبعها قطعت يدها بدون رحمة ولا شفقة . ولما راى بنو عامر انهم يعاملون معاملة الكفار الحربيين واستيقنوا انهم فى قبضة عدو لا يرحم ولا يكبر لديه اسر اخيه المسلم وسبيه وانتهاك حرمته صار البعض منهم يقتل ابناءه ونساءه ثم يقتل نفسه فرارا من معرة انتهاك حرمته وهو ينظر . والذى ساعد جموع المغاربة الكثيرة ومكنها من التغلب على بنى عامر هو قطع الماء عنهم من كل الجهات حتى مات الكثير منهم عطشا خصوصا الصبيان . ولقد اجتمعت سنة خمس عشرة من القرن الرابع عشر الذى نحن الآن فى آخر العقد الثامن منه بأحد زعماء بنى عامر السيد عبد القادر بن على وكان مشهورا بالفضل ذا منزلة رفيعة ومركز سام بين قومه حضر هجرة بنى عامر من مبداها الى منتهاها وشاهد سائر ما وقع اثناءها فقال لى وهو يحدث عن نكبة بنى عامر التى قصصنا بعضها :

**« لما احاط بنا جيش السلطان والقبائل المندوبة معه لقتالنا وحالوا بيننا وبين الماء ، صرنا بعد موت الكثير من الصبيان عطشا نجمع ابوال الخيل والبغال ونسقيها الصبى ، ولكن بدون جدوى حيث لم يلبث الا قليلا حتى تزهق روحه وتذهب نفسه الزكية بغير ذنب اقترفت وبلا جريمة ارتكبت . »** انتهى

ما حدث به السيد المذكور وحدثتنا ايضا زوجه ، وهى السيدة فاطمة بنت ابى طالب العامرية ، وكانت كيسة لبيبة حافظة لاخبار بنى عامر محيطة العلم بأيامهم ، حضرت غالب مواقفهم ومشاهدهم ، قالت :

**« كنت فى نكبة بنى عامر التى حلت بهم من طرف السلطان مولاى عبد الرحمن رحمه الله حاضرة فى الواقعة كغيرى من نساء المهاجرين من بنى عامر ، وقد وقعنا فى الاسر واصبحنا من المسبيات فاخذنى مع صواحب لى احد اعيان الجيش بعد ان صرنا فى سهمه من الغنيمة ، فضمنا الى عياله وعصمنا الله منه حيث لم يمسسنا بسوء. قالت : وكان لنا فى قبيلة الرحامنة اصدقاء بلغهم ما حل بنا من النكبات وما صرنا اليه من السبى ثم القسم فى الغنائم فشفعوا لنا عند من كنا فى حوزه فاطلق سراحنا. ثم قالت وبعد عناء كبير التحقنا بالبقية الباقية من رجالنا الذين كتب الله لهم النجاة من القتل والخلاص من الاسر ».** انتهى ما حدثت به السيدة المذكورة .

هذا اقل ما يقال عن هذه الواقعة المحزنة المؤلمة التى سجلها التاريخ عارا على ابناء الملة الواحدة والجنسية الواحدة والتقاليد الواحدة ! فلا حول ولا قوة الا بالله . ثم ان السلطان مولاى عبد الرحمن رحمه الله لم يقتنع بما وقع لبنى عامر من النكبات ، ومن سبى نسائهم وذراريهم وبيع المسلمات فى الاسواق بأبخس الاثمان كحربيات غنمن واستبيحت حرمتهن بالكفر والسبى ، ثم القسم فى الغنائم . كل هذا لم يكسر من حدة غضب السلطان . ولم يخفف من وطأة انتقامه الشديد بل زاده ذلك طمعا فى النيل من عدوه الالد فى نظره وهو الامير عبد القادر ، فجهز لقتاله جيشا وافر العدد كامل العدة والعدد واضاف اليه من اطراف مملكته القبائل ذات القوة والبأس ثم اسند قيادة الجميع الى نجله وكتب اليه فى صك التولية الا يرجع حتى يقضى نحب العدو او يأتى به اسيرا ، او على الاقل يطرده من الحدود المراكشية لتخوم الصحراء، وبهذا نستريح ويذهب غيظ قلوبنا ونأمن من غوائل هذا الرجل . ولما بلغ الامير عبد القادر ما يراد به ويدبر له ، كتب الى نجل السلطان مرات متعددة بما نصه :

**« اننا لا نضمر لدولتكم شرا ولا نريد بها سوءا لا حالا ولا مآلا ، وانما الظروف الجاتنا الى النزول بحدود مملكتكم والاقامة بها مؤقتا ، وانا لنامل ان تكونوا لنا ردءا ونجد فيكم عونا على عدونا وعدوكم . فلا تخيبوا ظننا بكم ولا تصيرونا كالمستجير من الرمضاء بالنار .»**

ولقد تنازل الامير فى كتابته الى حد بعيد تجنبا لسفك الدماء وابقاء وصل ما امر الله به ان يوصل ، ولانه كان يجنح للسلم ما وجد اليه سبيلا ولذا ابدى اعتذاراته كما ترى وازال كل الشكوك باعرابه عن حسن نواياه ولم يبق الا ان ترجع جيوش السلطان من حيث اتت مقتنعة بما تضمنته كتابة الامير من حصول الامن من جهته ، ولكن قائدها ابى الا ان يستمر فى سيره على الخطة التى رسمها والده ، وهى محق الامير الجزائرى ومحوه من صفحة الوجود ، او الاتيان به اسيرا فيصير عبدا مملوكا لا يقدر على شىء بعدما كان ملكا بيده العقد والحل ، وبعدما كان قوله هو القول الفصل ، وعندئذ وجد الامير نفسه بين نارين : الجيوش الفرنسية تضايقه شرقا والمراكشية تهدده غربا وابايته للضيم ووفاؤه بحق الصحبة لمن معه يحتمان عليه اقتحام احدى النارين او هما معا ليدافع عن كرامته ، ويذب عن من معه من المؤمنين الاوفياء ، ترجح فى نظر الامير ان يترك الجيوش الفرنسية جانبا لانه على علم من ان قوانينها تمنعها تعدى الحدود ويوجه قوته بمن معه من رجاله الابطال لمجابهة الجيوش المراكشية ، وكانت هذه الجيوش قد اخذت مراكزها وتهيأت للزحف فعاجلها الامير بالهجوم حتى لا يؤخذ على غرة ، فاحتدم الفريقان ، والتحم القتال وحمى الوطيس . ولقد اظهر الامير فى هذا اليوم المشهود والموقف الرهيب من الشجاعة والاقدام والكر على العدو ما لا يصدر مثله من اشهر مشاهير رجال الحرب . ولولا تعزيز مراكز الجموع السلطانية بالمدد كل لحظة ، وبدون انقطاع لما ثبتت فى مراكزها بل كانت تنهزم امام رجال الامير فى اقل من ساعة فلكية ، لا يلوى بعضها على بعض . ولما راى الامير ان من يفنى من جيوش مراكش يعوض بغيره ، وان من يسقط من ابطاله فى ميدان الشرف لا تسد ثلمته انسحب بنظام الى جبال هناك اعتصم بها مع من بقى معه من رجاله الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه .

ثم انى احيل القارىء الكريم على ما كتبه فى الواقعة من ابتدائها الى انتهائها صاحب تحفة الزائر وصاحب الاستقصى فى اخبار المغرب الاقصى فانهما استوعبا هذه الحادثة المؤلمة من كل نواحيها ، الا ان صاحب الاستقصى تعرض لاشياء لم توجد فى تحفة الزائر بعضها مطابق للواقع او طابقه الواقع ، والباقى مضاد للواقع تماما ...

يقول صاحب الاستقصى فيما انفرد به بعد كلام طويل يحاول به طمس الحقيقة ان جيش السلطان المظفر اسروا نفرا احياء فقدموا للقتل صبرا فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ، ووجدوا

عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلى والحرير ، وغير ذلك . فقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما ترى انتهى .

ثم يقول بعد هذا مما لم يوجد ايضا فى تحفة الزائر :

ولما كان هذا الفتح ، كتب السلطان الى البلاد ، وزينت الاسواق واعملت المفرحات الى آخر ما قال . اما ما كتب به السلطان الى رعاياه من التبشير بالفتح فانا سننقله حرفيا كما هو مسطر فى تاريخ الاستقصى ثم نعلق عليه هناك . واما ما سماه صاحب هذا التاريخ فتحا تقام له الافراح وتزين من اجله الاسواق، وتتطاير به البشائر ، وتتبادل فيه التهانى ، فنحن لا نراه فتحا ، بل نراه كما يراه كل مسلم خزيا وعارا ان لم نقل كما قال الشارع انه فسوق وكفر . ففى كتابى «**الايمان**» و «**الادب**» من صحيح البخاري ما لفظه، قال :

**« حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة عن منصور ، سمعت ابا وائل يحدث عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

**« سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »**

وبهذا اللفظ رواه ايضا مسلم والترمذى فى كتاب «**الايمان**» . وزاد الترمذى كما هى عادته صحيح حسن كما رواه النسائى فى «**الجرابة**» فهذا الحديث الثابت فى الصحاح ، وله من غيرها شواهد ومتابعات يرد تسمية قتال المسلمين وتقتيلهم وسبى نسائهم وذراريهم ، ثم بيع الجميع فى الاسواق فتحا. فصاحب الاستقصى مخطىء فى تعبيره بالفتح عن تغلب الجموع المراكشية ، وعن اعمالها المضادة لشرع الاسلام والمنافية للانسانية خصوصا وان هذه المعاملة القاسية عومل بها جماعة من المسلمين ، هم بالنسبة للجموع المغربية شرذمة قليلون ، لا يعد كسرهم وصدهم عن المعركة غلبة ، ويزيد المعاملة المذكورة فظاعة كون هؤلاء المسلمين يجاهدون فى سبيل الله بعدما اخرجوا من ديارهم بغير حق ، الا ان يقولوا نحن لا نرضى باحتلال الاجنبى ارضنا ، وصاروا يدافعون عن وطنهم دفاع المستميت يراسهم زعيم عظيم من زعماء المسلمين ، وامير كبير من امرائهم يجاهد جهادا تعين عليه بفجىء العدو ارضه ، كما تعين على الدولة المغربية نفسها لانها اقرب بلاد المسلمين الى القطر الجزائرى المنكوب والمصاب بالاستعمار الفرنسى الذى هو اشر استعمار فى العالم . غير ان تلك المملكة بدل ان تقوم بما تعين عليها من اعانة قوم مسلمين ، يقاومون عدوا جبارا

يحاول الاستيلاء على ارضهم عدوانا وظلما . بدل هذا كله طعنــت تلك الدولة المسلمة اخوانها هؤلاء طعنة من خلف افنت رجالهم واوهنت قوتهم وكانت السبب الوحيد فى تسليم الامير عبد القادر وطنه العزيز لدولة هى اعدى الاعادى للاسلام والمسلمين ، ولكنه ما سلم ولا اظهر الضعف بــل تظاهر بالقوة حتى شرط لنفسه ولوطنه شروطا لم تف الحكومة الفرنسية بشىء منها . وكان امر الله قدرا مقدورا .

ان علماء الاسلام مجمعون على وجوب اعانة من عجــزوا من المسلمين على دفع العدو المسلط على بلادهم مهما تناءت اقطارهم وابتعدت ديارهم ، ويراعى فى تأكيد طلب الاعانة الاقرب فالاقرب . قال المواق عند قول خليل فى باب الجهاد : **« وعلى من بقربهم ان عجزوا »** . ما نصه ابــو عمر يتعين على كل احد ان حل العدو بدار الاسلام محاربا لهم ، فيخــرج اليه اهل تلك الدار خفافا وثقالا ، شبابا وشيوخا ، ولا يتخلف احــد يقدر على الخروج من مقاتل او مكثر ، وان عجز اهل تلك البلاد عن الــقيام بعدوهم كان على من جاورهم ان يخرجوا على حسب ما لزم اهل تلك البلدة وكذلك من علم ايضا بضعفهم وامكنهم غياثهم لزمهــم ايضا الخــروج . فالمسلمون كلهم يد على من سواهم . وزاد المواق قوله وقال ابــن بشير : اذا نزل قوم من العدو بأحد من المسلمين ، وكانت فيهم قوة على مدافعتهم فانه يتعين عليهم المدافعة ، فان عجزوا كان على مــن قرب منهم نصرتهم انتهى محل الحاجة من المواق. وقال ابن جزى فى قوانينه : ويتعين الجهاد بأمور احدها تعيين الامام ، والثانى ان يفجأ العدو بعض بــلاد الاسلام ، فيتعين عليهم دفعه فان لم يستقلوا لزم من قاربهم ، فان لم يستقل الجميع وجبه على سائر المسلمين حتى يندفع العدو الى آخر ما قال . وبالجملة ، فاعانة العاجز عن دفع العدو مفروضة عند جميع الائمة ، ومتــعينة على المسلمين قريبهم وبعيدهم ، حتى تحصل الكفاية . ولــو ان دولة مراكش قامت بواجبها نحو الامير عبد القادر وساندته ، او على الاقل تركته وشأنه ولم تشغله لقص علينا التاريخ غير ما ذكر ، ولحكى لنا ما تقــر بــه عين المسلمين . واما الامير عبد القادر ، فقد قام بواجبه الدينى والوطــنى ، ووقف امام دولة تعد من اعظم الدول ، وقاومها ست عشرة سنة . ولو لم يخنه من ابناء جنسه امثال الزمالة والدوائر اولا ، ولم يخذله المغاربة آخرا لانتصر على الجيوش الفرنسية رغم خبرتها بأساليب الحرب وانظمة القتال ويبقى هذا الانتصار الباهر تتناقله الاجيال ، ولكن القضاء غالب . والامير وان لم تكتب له الغلبة فى النهاية كان له اثناء المدة المذكورة وقائع مشهورة وايام فى عدوه مشهودة ، كما كانت له مدة امارته مواقف شريفة اعترف بها

عدوه المحارب له من الفرنسيين كما اعترف له بذلك وبكفاءته للامارة العالم كله اجمع سوى صاحب الاستقصى فانه لم تطاوعه نفسه ان يكتب فى تاريخه ولا مرة واحدة لفظة الامير وانما كان يذكره باسمه العلم الحاج عبد القادر ويا ليته اقتصر على هذا القدر ، ولم يتعده عند كل مناسبة ، بل ولغير مناسبة الى التعريض بالامير والتقليل من شأنه ، وكثيرا ما يرميه تصريحا بما هو برآء منه كقوله فسدت نيته ونكص على عقبه وكقوله قتاله ما هو الا فتنة فتن بها المسلمين وما الى ذلك مما يرى صاحب الاستقصى انه يقربه زلفى الى الدولة التى يخدم ركابها بكل الطرق الممكنة حتى بجحد الامارة ونفيها فى زعمه عمن ثبتت له شرعا وكان فى الواقع احق بها واهلها. ولله در القائل:

**« ما ضر شمس الضحى فى الافق طالعة**
**الا يرى ضوءها من ليس ذا بصر »**

بقى ان نفى بما وعدنا به من نقل الكتاب الذى نسبه صاحب الاستقصى لجلالة السلطان مولاى عبد الرحمن رحمه الله تعالى ، والذى قال فيه انه بشر رعاياه بالفتح كما تقدمت الاشارة اليه ، وهذا نص الكتاب بعد الديباجة التى هى براعة استهلال تشعر بالمقصود من الكتاب وهو الشتم والرمى وتمزيق العرض :

**« فان الفاسد الفتان وخليفة الشيطان ابعد فى الجسارة ، وامتطى مطى الخسارة واستوسع سبيل العناد ، واستضل سبيل الرشاد ، وقال من اشد منا قوة وسولت له نفسه الامارة الاتصاف بالامارة واراد شق عصا الاسلام ، وصدع مهج الانام فاعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح واستبطن المكر والخداع وفاق فيه عابدى ود وسواع وشاع فى طرف الايالة ضرره وساء مخبره وهو فى خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوى بها اهل الجهالة والعملية والضلالة فياسنا من رشده ، وعرفنا مضمر قصده ، فجهزنا له محلة منصورة ذات اعلام منشورة ، جعلنا فى وسطها ولدنا الابر سيدى محمدا اصلحه الله واسندنا اليه امرها ، وقلدناه تدبيرها ، وعهدنا اليه ان تسعى فى حقن الدماء جهد الامكان ويحتال على اقامة اود هذا الفتان ، وان يعالج داءه بكل دواء ، والا يتبع فيه الاغراض والاهواء ، وان يجعل القتال آخر عمله وعدمه غاية امله ، فلما راى عدو نفسه احاطة الجيوش به وجه وفدا من قبله يدعى التوبة فيما مضى ، والكون على وفق المقتضى فاجبناهم بان احب الحديث الى الله اصدقه ، ان صاحبكم هذا ان اراد الخير**

**انى نفسه واحتاط لدينه وعمل لرمسه يختار احد ا مرين : اما ان يدخل الى ايالتنا هو ومن معه آمنين على انفسهم ومالهم ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا او يصحر . فطلبوا منا الامهال حتى يوجه وابعضهم يـخبرونه بالملاقات ، ويستدركون الامر قبل الفوات ، فاجبناهم الى ذلك ، فما وصلوا حتى ضرب على المحلة ليلا ، فرده الله بالخيبة واشوه ابوة وترك قتلاه صرعى بعدما حمّل منهم عددا وجه ليدفن منهم فى قفوله ، ويـخفـى ما حـل به فى افوله فتقدمت اليه المحلة الغالبة بالله وقاتلته قتالا اذاقته فيه الوبال والخبال، فكانت الكرة عليه فاجفل اجفال النعام واستدبر المعركة وهام ، ومات من خاصته ورؤسائه واه لشدته وذوى باسه عدد معتبر ، ومن هو ادهى وامر وعادت جموعه جمع تكسير وجنوده موزعة ما بين قتيل واسير ، وسخر بهم بعد ان كانوا ساخرين . وغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ، ومـن الله استمد التوفيق والهداية الى ارشد طريق والسلام ، فى الثـانى والعشرين من محرم الحرام فاتح سنة اربع وستين ومائتين والف .»** انتهى نص الكتاب الشريف بحـروفه .

نحن لا نؤمن بكون هذا الكتاب صادرا عن اذن السلطـان ، ولا نصدق بانه وافق عليه ، كما لا نصدق انه كتب فى عصره . بل الذى نعتقده ونجزم به جزما مطابقا للواقع ، كما يجزم به كل عاقـل هـو ان الكتـاب مختلق وملفق لحاجة يراد قضاؤها فنسبـه صاحبه زور ا لجلالة السلطان على امل ان يروج بواسطة هذه النسبة ما تضمنه الكتـاب من الالـفاظ الجارحة والعبارات المستهجنة التى كلها شتم للامير عبد القادر وقدح فى عرضه النقى مع نسبته للمروق من الدين واتباعه هـواه ونبذه لـلاحكام الشرعية وعصيانه لاوامر السلطان ، ومـا الى ذلـك مـن السخـافات والبذاءات التى هى لشناعتها ودناءتها ولدلالتها على سقوط هـمـة مرتكبها، لا يبقى معها ادنى شك فى كون مقام السلطان الرفيع يجل عن ان يتنازل الى هذا الدرك ، ويأمر بتسطير ما لا يتصور صدوره من عاقل ، فضلا عن فاضل. ولذا فاننا كما قدمنا على يقين من كون السلطان منزها عن امثال هذه الترهات مبرءا منها كل البراءة ، خصوصا وان جلالته مشهور بالفضل ، معروف بالنبل على جانب عظيم من الـتـقوى والورع مع رجاحة العقل واصالة الراى ، ورفع الهمة ، وما الى ذلك من كمالات آل بيـت النبوة الذين طهرهم الله تطهيرا ، وفى مقدمتهم جلالة هذا السلطان المعظم مولانا عبد الرحمن بن هشام رحمهما الله . ولو لم يكن لجلالته من المناقب الا ما

خصه به عمه السلطان مولاى سليمان من الوصاية له بتقليد الملك بعده وتقديمه اياه على انجاله الكرام لكفاه فخرا وسؤددا . كيف ومناقبه رحمه الله لا تحصى قد سارت بها الركبان وبقيت غرة فى جبين الدهر الى انقضاء الزمان . خلد الله ذكره وجعل ذريته هم الباقين .

ثم ان صاحب الاستقصى لما اوغل فى شتم الامير عبد القادر تلويحا وتعريضا وتصريحا ، وبالغ فى تضليل الراى العام بالتلبيس ومسخ الحقيقة استشعر من نفسه انه يناقش الحساب ، ومن نوقش الحساب عذب ، قال ما نصه بالحرف :

**« واعلم انه قد يقف بعض المنتقدين على ما حكيناه من اخبار هذا الرجل فينسبنا الى التعصب وسوء الادب والجواب اننا ما حكينا الا الواقع ». انتهى كلامه .**

وهكذا يعترف صاحب الاستقصى بتعصبه وسوء ادبه من حيث لا يشعر . اما قوله فى الجواب عن نفسه ، اننا ما حكينا الا الواقع فهو خلاف الواقع ، اذ الواقع ان اكثر كلامه على الحادثة غير صحيح وغير قريب من الصحة ، وانما هو تمويهات وتلبيسات يحاول بها عبثا القاء المسؤولية على عاتق الامير عبد القادر وتبرير الاعمال الوحشية التى ارتكبتها الجيوش المراكشية فى تلك الحادثة المحزنة ، ثم الذى استفدناه بالسماع الفاشى، ومن تتبع الواقعة من اولها الى آخرها ، كما هى مدونة غير متحيزين لاحدى الطائفتين هو ان فعلة السلطان التى فعلها اولا ببنى عامر بعد الاحسان اليهم ، وثانيا مع الامير عبد القادر مبناها على مجرد وشاية مختلقة اثرت على جلالته ، فكان منه ما كان ، وصورة الوشاية ذكرناها سابقا ، سامح الله الجميع ، وجعلهم اخوانا على سرر متقابلين .

وفى السنة التى ولدت فيها المؤرخة بالتاريخ السابق ، ثار السيد ابو عمامة بمن حوله من القبائل على جيوش الاحتلال الفرنسى جنوب وهران ، فكان يهاجم مراكزها ، ويضايق مسالكها بتعرضه لقوافلها فى تنقلاتها ، فيعطل سيرها ويسلب محمولاتها من سلاح ومتاع ، وكثيرا ما يقع بينه وبين جيوش الاحتلال اشتباكات ينال من تلك الجيوش وتنال منه، وفى مدة ثورته انحبس المطر واصيبت المزروعات بالجفاف ، وصارت النباتات على وجه الارض هشيما تذروه الرياح فهلكت المواشى وارتفعت اسعار الحبوب ، واشتدت الضائقة فساءت الحالة جدا . وقد زادها سوءا

ما سنه قائد جيوش الاحتلال من قانون يقضى على الفلاحين وارباب الانعام وسائر سكان البادية ، بأن يحضر كل فرد منهم دابة مسرجة او مبرذعة فى الوقت المعين ، ومن لم يمتثل او يتخلف عن الوقت يسجن او ينفى او يعاقب بغرامة مالية يدفعها حالا او يباع عليه لاجلها كل ما يملك . واذا حضرت الدابة ركبها الجندى الفرنسى او حمل عليها متاعه وعتاده ، وربها ملزوم بأن يقودها بالجندى حيث ما حل وارتحل ، فيغيب الاهلى بدابته الثلاثة والاربعة الاشهر، ولا يعود لاهله حتى يخلف بغيره من اهل محلته او قريته . وهذا القانون الجائر سمى اذ ذاك بين الاوساط بالسخرة لانه قضى بتسخير الناس لخدمة الجندى الفرنسى . وهكذا اغرت هذه الثورة جيوش الاحتلال على زيادة التنكيل بمسلمى الجزائر واضطهادهم ، وعندما ايقنت الدولة الفرنسية ان امر السيد ابى عمامة فى ازدياد وثورته يتسع نطاقها يوما فيوما ، جمعت قوتها وجابهته بجنود لا قبل له بها فتحقق ان ثورته لا تنجح فى الوقت الحاضر ، وان كفاحه لا كبير فائدة تترتب عليه فسلم نفسه على كراهية لقائد الاحتلال على شروط كانت حبرا على ورق لم يوف له ولا بواحد منها فيما بعد . شأن فرنسة فى عدم احترام عهودها . وصدق الله العظيم اذ يقول :

**« وما وجدنا لاكثرهم من عهد وان وجدنا اكثرهم لفاسقين »**.

ثم ان ثورة هذا الزعيم الجزائرى ، وما تقدمها او تأخر عنها من الثورات الجزائرية المتعاقبة ، احداها تتلو الاخرى لتبرهن للعالم اجمع على ان الامة الجزائرية ، لم ترضخ للاستعمار فى يوم من الايام ، ولم تبق امامه مكتوفة الايدى ، بل كانت مهما سنحت لها الفرصة ، وساعدتها الظروف تقم بثورة موفقة ، فتكبد جيش الاحتلال خسائر فادحة فى الارواح والعتاد ثم تسكن تلك الثورة بعض سكون لمقتضيات واسباب نذكرها فى الخاتمة ان شاء الله .

ثم لنرجع الى اتمام المقصد الاول :

نشأت بين ابوين عطوفين ربيانى صغيرا ، وادبانى فأحسنا تأديبى كما غرسا فى قرارة نفسى حب الفضيلة ، فكنت اتباعد من ارتكاب ما يذم واتجنب مواضع التهم ، فحسنت والحمد لله سيرتى وصينت عما يشين او يدنس . وكان والدى رحمه الله تعالى يلقننى على صغر سنى كلمة الشهادة ويشرحها لى شرحا بسيطا يحمله عقل الصغر ، كما كان يلقننى بعض السور من قصار المفصل حتى حفظت من سورة **الضحى** الى سورة الناس . وابتدات القراءة فى اللوح من سورة **والليل اذا يغشى** حسبما نذكر

ذلك فى محله ان شاء الله كان والدى من بين اخوتى يقربنى ويدنينى ويضمنى اليه فى حجرة نومه ، وكنت احيانا استيقظ فأشاهد تهجده وتلاوة اوراده وهو لا يشعر انى مستيقظ ، ومن شدة عنايته بى وكثرة اعتنائه بأمرى انه كان يرعى ذهابى واياى ويراقب سائر اعمالى وحركاتى ، خصوصا بعدما قص على الرؤيا الآتية :

**« الرجل الصالح السيد عبد القادر بن رماس عرف بالدرويش لتمسكه بطريقة يلقب المتعلقون بها الدراويش ، كان هذا السيد معتقدا بين الناس مشهورا بالتقوى ، قد التزم الاذان احتسابا ، فكان يؤذن لاوقات الصلوات الخمس وحده ، وفى جماعة حضرا وسفرا صيفا وشتاء رحمه الله. اتى منزلنا ذات يوم وانا اذ ذاك ابن عشر سنوات على الاكثر ، فقال لوالدى بحضرة من فى البيت : اعتن بأمر هذا الولد ، يشير الى واتوصى به خيرا فانى رايته فى المنام بين جماعة من الصالحين احياء واموانا عرفت بعضا منهم وهم يتفاوضون فى امور غيبية هى من خصوصيات اولياء الله. هذا ما قصه السيد المذكور بحضرتى »..**

وكثيرا ما كان والدى يحدث بذلك ، ولكنى الى الآن لم ار من نفسى ما يحقق هذه الرؤيا ، وارجو ان يحققها الله فى المستقبل .

## « تعليق »

ذكر جماعة من العلماء غالبهم من المتصوفة ان اولياء الله ، يعقدون اجتماعات شهرية او سنوية ، يطلقون عليها فيما بينهم اسم الديوان ، يتشاورون اثناءها فيما ينجزونه فى ذلك الشهر ، او تلك السنة من الحوادث الكونية ، فما ارادوا تنجيزه وقع فى الوقت المحدد له ، وما لم يريدوه لم يقع ، ويعبرون عن ذلك بالتصرف فى العالم العلوى والسفلى . وللشيخ ابى راس المعسكرى فى ذلك تأليف سماه :

**« انصباب رحمة الله فى انعقاد ديوان اهل الله »**

وذكر ان هذا الديوان يغشاه من الانوار ما يغشى ، ويكسوه من المهابة والاجلال ما لا يتكيف . وفى كتاب **«الابريز»** لسيدى احمد بن المبارك الفاسى ، فيما سمعه من شيخه سيدى عبد العزيز الدباغ كلام طويل فى وصف الديوان وفى ما له من انظمة وترتيبات ، مع ذكر من يحضره من الاحياء والاموات ، وما يعرف به الحى من الميت ، وحضور

الملائكة والجن وما الى ذلك مما يقف امـــامه العقل حائرا ، يسأل عـــن الباعث على عقد هذا الديوان الفريد فى نوعه ، وما الغاية منه ، وماذا يترتب عليه من متجدد غير سابق . والامر كما هو معلوم مفروغ منه ، قد رفعت الاقلام وجفت الصحف وما تعلق علم الله ازلا بوقوعه من الممكنات وقع وما قضاه الله لا يرد كما هو صريح الآيات والاحاديث واجماع سلف الامة المحمدية وخلفها ، ومدار صحة العقيدة هو الجزم بأن اللـــه تعالى وحده المنفرد بالايجاد والاعدام والنقض والابرام والاعطاء والمنع والضر ، والنفع لا يسأل عما يفعل ، والجزم ايضا بأن كل شىء بقضاء وقدر . اليس كل هذا وذاك مما يبعث على الحيرة ويبعث على السؤال عن الحكمة التى من اجلها ينعقد الديوان حتى يهتدى اليها العقل ، ويطمئن من قلقه بتلك الانظمة والكيفيات الغريبة .. بلى، ان الحيرة موجودة ، والحكمة فى بادىء النظر مفقـــودة ولكن الاسلم هو الا ننازع الامر اهله واهل مكة ادرى بشعابها والذيـــن قرروا المسألة واقروها فى مؤلفاتهم ، فضلهم معروف ورسوخهم فى العلم مشهور وخيريتهم مشهود بها ، فلا ينبغى ان يقال لهم لم .. وكيف .. بل نتوقف ونجوز ان يكونوا على حق ، ولا يقدح فى حقيتهم كـــون المسألة لـــم يطلع لها على علة ولم يدرك انها معقولة المعنى ، اذ يـــوجد الكـــثير من الاحكام الشرعية غير معقولة المعنى ، وتسمى تعبدية ، بمعنى اننا مأمورون بالعمل بمقتضاها على وجه التعبد ، ولا يتوقف العمل بها على الاطلاع على العلة ، وتكون من مواقف العقول نعم الاحكام التعبدية ، لا تخلو من حكمة وسر يترتب عليها ، وان لم تصل الى ذلك عقولنا ، والا كانت عبثا وهو على الله محال قال جل ذكـــره :

**« وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين »**.

ولنرجع الى المقصود : قد كنت قدمت ان والدى يراقب اعمالى، فبلغه ذات يوم انى ارتكبت ما لا يليق ، فعنفنى وبالغ فى توبيخى ثم هددنى بالضرب ، وكان ذلك بحضرة عمى سيدى محمد الحبيب وهـــو اكبر من والدى سنا وكان معروفا بالصلاح معتقدا بين الناس يحكون ان له كرامات يشاهدونها احيانا تصدر منه فقال لوالدى وقد استحسن ما دفعـــت به التهمة عن نفسى ، لا تعنفه فانه يلوح عليه من النجابة ما يؤهله لاكتساب العلوم والمعارف ، وسيبلغ ذلك ان شاء الله . وكانت فراصته صائبة ، والمؤمن ينظر بنور الله ، وما يماثل هذا او يقاربه . انى كنت اول ابتدائى لقراءة العلم احضر انا وجماعة من اترابى دروس فقيه من فقهاء بلدنا ، وكانوا ينافسوننى التفوق فيما نتلقاه من الشيخ ، ويزاحموننى فى السبق

الى اجوبة الاختبارات التى يلقيها علينا . وكان من عادتى المستمرة انى بعد فراغ الدرس ورجوعى الى المنزل اسأل والدى عما استشكلته او صعب على فهمه . وكان يستحسن ذلك ويعده منى حرصا واعتناء ، وقد اتيته يوما على عادتى فسألته ، وبعدما اجاب عن سؤالى قال لى : انى رايت رؤيا اقصها عليك، رايت انى حضرت مجلسا ضم جماعة من العلماء والصالحين فيهم من عرفت وفيهم من لم اعرف وهم يتحدثون فيما بينهم فجرى فى حديثهم ذكرك وذكر عدد من الطلبة الذين يحضرون معك الدروس ومن غيرهم، فقال احد من فى المجلس : ما تقولون فى ولد فلان ، وهو يعـنيـك بقوله ولد فلان اهو افضل ام فلان ... فقالوا كلهم : ولد فلان افضل ، ثم قابل بينك وبين ثان وثالث ورابع الى ان اتى على جميع الذين ذكرت اسماؤهم فى المجلس ، وفى كل ذلك يقول اهل المجلس جميعا : ان ولد فلان افضل ، ثم زادوا فقالوا ان ولد فلان افضل حتى من الشيخ الذى يحضر عليه . هـكذا قص على والدى هذه الرؤيا الحسنة ، وهو يستشكل افضليتى للشيخ ، ولكن قد جعلها ربى حقا فقد تفوقت فى المعلومات على كـل مـن كان يحضر معى دروس الشيخ المذكور ، كما فقته هو نفسه فى عدة فنون شاركت فيها ليس له ادنى المام بها ، وانما كان له مشاركة فى خصوص المسائل الفقهية. وبعد هذا : فمعاذ الله ان اقول ذلك مفاخرا او مباهيا ، او جاحدا فضل ذى فضل ، بل غاية ما هناك انى تحدثت بنعمة ربى ، وحكيت ان الرؤيا صادقة قد جاءت كفلق الصبح ، والمؤمن يرى الرؤيا الصالحة ، او ترى له روى الامام مالك رحمه الله عن هشام بن عروة عن ابيه انه كان يقول فى هذه الآية : (( **لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** )). قال هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ، او ترى له . وروى الامام ايضا عـن اسحاق بن عبد الله بن ابى طلحـة الانصارى عـن انس بن مالك ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

**(( الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة واربعين جزءا مـن النبـوة .))**

كما روى ايضا عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

**(( لن يبقى بعدى من النبوة الا المبشرات ، فقالوا وما المبشرات، يا رسول الله .. قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالـح او ترى له جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة )).**

وهذه الاحاديث ، الثلاثة رواها الامام فى الموطأ وبها ينتهى المقصد الاول بعد المقـدمـة ....

# « المقصد الثانى »

تعلمت الكتابة فى مدة قريبة بواسطة كيفية ، هى فى نظرى اقرب الكيفيات فى تعليم الكتابة واسهلها على التلميذ ، فقد كان المعلم يرسم فى اللوح حروف الهجاء منقوطة مشكولة بالحركات الثلاث او السكون ، وبعد رسم مسميات الحروف يلقننا اسماءها حفظا ، فالمسميات مثلا الف (ا) ب تثجحخ الى آخره ، واسماؤها الالف الباء التاء ، او الف باء تاء ، وكذا الباقى . ومن هذا القبيل الحروف المقطعة فى اوائل السور تكتب مسمياتها وتقرا اسماؤها مثلا كهيعص مسميات واسماؤها كاف ها يا عين صاد . وهكذا ما كان منها على على حرف واحد نحو ق ن نقراه قاف نون . قال احد شيوخ القراء لم يحضرنى اسمه :

**« وكـــتـــبـــوا المـــســـمـــى فى الاوائـــل**

**وقـــراوا الاسم فـــخـــذ يـــســـائـــل »**

ثم بعدما ترسم الحروف فى اللوح على الكيفية المارة يقول المعلم اخرجوا مثلا النون من بين الحروف المرسومة فاذا اخرجها التلميذ يقول له انقطها بما تستحق ، واشكلها بالفتحة ، ثم يقول ، اخرج الجيم وانقطها واشكلها بالفتحة وصلها بالنون ثم اخرج الحاء واشكلها بالفتحـــة وصلها بالجيم ، ثم يقول للتلميذ ، انطق بهذه الحروف مرتبة دفعة واحدة على هذه الهيئة ، فينطق بها التلميذ ، هكذا نجح ، ثم يقول لنا المعلم ، هكذا تتركب الكلمات كلها من هذه الحروف المرسومة . ولعـــل هـــذه الكيفيـــة انجح الكيفيات لتعلم الكتابة فى ايام قلائل كما قلنا . افتتحت قراءة القـــرآن فى اللوح بسورة **والليل اذا يغشى** ، وكنت حفظت تلقينا من سورة **الضحى** الى سورة **الناس** ، كما تقدمت الاشارة اليه ، وحفظت فى الختمة الاولى على والدى من سورة **البقرة** الى سورة **النور** . وفى الختمة الـــثانية جمعت القرآن حفظا ولى من العمر تسع سنوات ، ثم ختمت فى اللوح بعد الختمتين احدى عشرة ختمة مفرقة على الشيوخ الاتى اسماؤهم : قـــرات بمكتب قريتنا على ابن عمنا الزاهد الورع الشيخ **سيـــدى محمد بن سيدى قدور** ابن الاقرع . قرا هذا الشيخ بالقبائل الريفية التابعة لملكة مراكش فحفظ

القرآن بها حفظا جيدا ، ثم عاد الى مسقط راسه ونصب نفسه لاقراء القرآن احتسابا لا يطلب اجرا على تعليمه فنفع الله به الصغار والكبار طبقة بعد طبقة الى ان انتقل الى جوار مولاه ، وقد جاوز الثمانين سنة قضاها كلها فى التعبد بالقرآن الكريم ، تعلما وتعليما وتلاوة . رحمه الله تعالى ، رجع هذا السيد من المغرب بخرافة سمعها من المغاربة فرسخت فى ذهنه وانطبعت فى حافظته وصار يتحدث بها فى المجالس ويحكيها دائما لتلامذته وهى ان مولاى الحسن سلطان المغرب سيطرد الفرنسيين من أرض الجزائر التى احتلوها بغير حق ويرمى بهم الى البحر . وكان رحمه الله تعالى يجلس على قارعة الطريق الممتد من حدود المغرب الى تخوم الجزائر وكل مشرق او مغرب يمر به يسأله، فاذا قال له انا مغربى يقول له ما لفظه او معناه : **«ما بال السلطان تأخر عن طرد الفرنسيين الى هذا الوقت ونحن ننتظر بفارغ صبر ما يفعل السلطان »** . واستمر رحمه الله يومن بهذه الخرافة حتى لقى الله . وسبب رسوخ ايمان الشيخ بها هو ما يعتقده المغاربة فى السلطان من انه لبركته ولنسبه الشريف ، قادر على ان يمحق الكافرين ، وقادر على ان ينقذ المسلمين ويخلصهم من اعدائهم ، كل هذا كان يزيد الشيخ المذكور ايمانا بخرافته عندما يسمعه من المغاربة ايام قراءته بالريف المغربى ، فى عهد جلوس مولاى الحسن على عرش المملكة المراكشية . وكان جلوسه بعد وفاة والده السلطان سيدي محمد رحمه الله تعالى سنة تسعين ومائتين والف ، ومات فى ذى الحجة متمم عام احد عشر وثلاثمائة والف . وبقيت اطماع الشيخ المحدث عنه متعلقة بسلاطين المغرب وآماله قوية فى ان الفرج للقطر الجزائرى يحصل على ايديهم ، ولكنه لم يلبث بعد وفاة مولاى الحسن الا قليلا ، وتوفى ولو انه تمادى به الاجل لراى بعين راسه الاستعمار الجشع كيف ضم القطر المغربى الى القطر الجزائرى وصير الجميع مستعمرة له يستعمل فيها نفوذه ، ويفرض على اهلها قوانبنه الجائرة ، ثم هو بعد رسوخ قدمه بالقطرين الشقيقين يحاول ادماجهما فى الجنسية الرفنسية ويجردهما من عروبتهما . ولكن الله تعالى كف بأسه وخيب سعيه وجعل كيده فى نحره ومن على القطرين ، فها هو القطر المغربى الشقيق نال استقلاله ، وتخلص من نير الاستعمار الى الابد وها هو استقلال القطر الجزائرى على الابواب ، ولله كل يوم فى خليقته امر ، ثم قرات على الشيخ سيدى محمد المولود بن ابراهيم ، كان هذا الشيخ مشهورا بمعرفته رسم القرآن الكريم طبق رسم المصحف العثمانى يرد عليه الطلبة من النواحى القريبة والبعيدة ليصححوا عليه الرسم المدون فى مورد الظمآن للخراز وغيره من دواوين الرسم . كان رحمه الله حسن

الصوت ، اذا قرا اثرت قراءته على السامع واكسبته رقة وخشية ومكنت من قلبه حلاوة الذكر الحكيم . مات سنة اثنتين وستين وثلاثمائة والف ، ودفن قرب ضريح سيدى سليمان الماجى ، وقد حضرت دفنه وصليت عليه اماما بطلب من انجاله ، وكان المجمع كبيرا والمشهد رهيبا ، رحمه الله ومن قرات عليهم القرآن الكريم ، الشيخ سيدى محمد بن عبد الله اللعبانى المعروف باتقان القرآن حفظا ورسما ، افنى هذا الشيخ جل عمره فى تعليم القرآن فى كثير من قرى بلده بحسب طلب الناس منه التعليم بقراهم . وكان لشدة فقره يأخذ على تعليم القرآن الكريم اجرا شهريا او سنويا يتقاضاه من اولياء الصغار . اما الكبار الذين هم بصدد تصحيح الرسم فلا يأخذ منهم سوى ما يتبرعون به لمناسبة او حدوث موجب .

« استطراد »

اخذ الاجرة على تعليم القرآن اجازه جمهور السلف، وفى مقدمتهم الامام مالك رضى الله عنه قال ابن الحاج فى المدخل ما نصه : ومن كتاب البيان والتحصل ، سئل مالك رحمه الله تعالى عن اجازة المعلمين فقال لا بأس بذلك يعلم الناس الخير فيعطى . قيل له ، انه يعلم مشاهرة ويطلب ذلك ، فقال : لا بأس به ، ما زال المعلمون عندنا بالمدينة يفعلون ذلك . انتهى . وفى المدونة ، لا بأس بالاجازة على تعليم القرآن كل سنة او كل شهر بكذا او على الحذاق للقرآن او على تعلمه كله او سدسه بكذا ابن رشد اجارة ذلك كله هو المذهب واجمع عليه اهل المدينة ، وهم الحجة على من سواهم انتهى . استدل مالك والجمهور للجواز بأحاديث صحيحة وحسنة سالمة من اية علة قادحة ، فى السند او فى المتن اصحها حديث البخارى ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

**« ان احق ما اخذتم عليه اجرا كتاب الله »**.

ومنع جماعة من علماء السلف اخذ الاجرة على تعليم القرآن واستدلوا للمنع بأحاديث منها حديث ابى ابن كعب من رواية ابن ماجه قال علمت رجلا القرآن فأهدى لى قوسا فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال :

**« ان اخذتها اخذت قوسا من نار »**.

**« ان اخذتها اخذت قوسا من نار »** فرددتها

ومنها ما رواه ابو داود وابن ماجه من حديث عبادة ابن الصامت قال النبى صلى الله عليه وسلم لعثمان بن ابى العاص :

« **لا تتخذ مؤذنا ياخذ على آذانه اجرا** ». ومـا الى ذلـك من الاحاديث التى صرفها الجمهور عن ظاهرها واولوها بتأويلات ردتها كلها فى المعنى الى احاديث الجواز دفعا للتعارض . وللشوكـانـى فى نيل الاوطار كلام حسن لخص فيه ما قيل فى المسألة ، فليراجع ذلـك من اراد الوقوف عليه ، ثم بعد مفارقتى لمكتب الشيخ المذكور سيدى محمد بن عبد الله اللعبانى وانا اذ ذاك قد ناهزت البلوغ ، سافرت صحبة اخى السيد محمد الصادق الى قرية المناصرة قرب بطيوة وكانت عادة الطلبة بهـذه القرية ان يطوفوا على الابواب فى الصباح والمساء يجـمعـون غذاءهم وعشاءهم ، وبعد مشاق واتعاب ونبح كلاب ، يعودون الى المكتب بأطعمة مختلفة الالوان متباينة الشكل والمقدار قد اختلط رطبها بيابسها وحارها بباردها ، وجامدها بمائعها ، فصارت بالخلط بشعة كريهـة المذاق ، بل استحالت الى مادة سامة لو فحصها الطبيب وحللها تحليلا كيـمـاويا لمنع تناولها حتى على من لا يجد ما يسد رمقه . لهذا لم امكث بهذه القرية ذات العيش الشظف سوى شهرين ، قرات اثناءها على الشيخ المعلم بها الربع الثالث من القرآن الكريم ، ثم انتقلت لقرية السلاطنة احدى قرى قبائل الغرابة فألفيتها ذات قرار ومعين ، يتنعم فيها الطلبة بألذ المأكولات وارغد المعايش . ولكن المعلم بها قاصر خال من المعارف ، ليس فى قدرته ان يبلغ الطالب ما يريده منه فتسللت ليلا ولم اودع المعلم حياء منه ، وسرت على قدمى متوجها الى احدى قبائل بنى عامر ، وبعد ثلاثـة ايام وصلت الى قبيلة اولاد زائر ، وقصدت قرية اولاد المزوار بعين الحد ، وسابـقا كنت اسمع ان الشيخ سيدى عبد السلام بن صالح يعلم بهذه الـقريـة علوم القراء ، فتحملت مشاق السفر وتجرعت مرارة ا لغربة ، كما استسهلت كل صعب ، واستعذبت كل ظمأ ونصب لاجل الاخذ عن هذا الاستاذ الاكبر ما يندر وجوده فى بلادنا من علوم القراء . ولما تحملت المتاعب واستسهلت المصاعب ادركت المنى وزال ببلوغ الغاية كل عناء شعر :

« **لاستسهلن الصعب او ادرك المنى**

**فما انقـادت الآمـال الا لصابر** »

كان الشيخ سيدى عبد السلام بن صالح هو شيخ القراء ببلادنا وهو الذى اليه المرجع فى علوم الاداء رسما وتجويـدا وروايـة خصوصا الروايات السبع المنسوبة للائمة السبعة : نافع وابن كثير ، وابن عامر ، وابى عمر ، وحمزة ، وعاصم ، والكسائى . فاذا قيل هذه القراءة سبعية

فهى منسوبة الى جميعهم ان اتفقوا او لبعضهم ان اختلفوا ، وهذه السبع هى المتواترة باتفاق الفقهاء والاصوليين والمحدثين ، ووراءها سبع قراءات مختلف فيها ، وهى قراءة يعقوب ، وابى جعفر ، وخلف . وهذه الثلاثة الصحيح انها متواترة ، واما الاربع الباقية ، وهـى قـراءة ابن محيصن واليزيدى ، والحسن البصرى والاعمش فشاذة باجماع من يعتد باجماعه وهذه القراءات الاربع عشرة هى التى ذكرها صاحـب اتحاف البشر فى قراءة الاربعة عشر ثم حكم القراءة بالشاذ المنع ان اعتقد القارىء انها من القرآن لا ان اعتقد انها من قبيل التفسير ، اذ هى خبر آحاد والقرآن ثبت بالتواتر ، وكما تمنع القراءة بالشاذ تبطل صلاة الـقارىء بها ان خالفت رسم المصحف العثمانى كقراءة فبرىء والله مما قالوا بدل « فبراه الله مما قالوا » وكقراءة فامضوا الى ذكر الله بدل « فاسعوا الى ذكر الله » ، لا ان وافقت فى الرسم وخالفت فى هيأة الكلمة كقراءة : افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت بسكون القاف وضم التاء مبنيا للفاعل فيه ، وفى الافعال الثلاثة بعده بدل سكون التاء بالبناء للمفعول . والله اعلم .

اقول لما استقر مقامى بقرية عين الحد الآنفة الذكر ، لازمت بها الشيخ المذكور ، اعنى سيدى عبد السلام بن صالح الفريسى نحو الاربع سنوات، ختمت عليه اثناءها القرآن فى اللوح مرات بقراءة نافع من رواية ورش وقالون ، ومن عادته بعد تصحيح الالواح وتصويب ما خلف رسم المصحف ان يتلو ما تيسر من المتكوب فى اللوح لتؤخذ من فيه كيفيـة الاداء وترويض اللسان على مخارج الحروف ،فاذا افتتح القراءة بالسورة بسمل وبغيرها لم يبسمل فى الغالب وربما بسمل عملا بقول صاحب الدرر اللوامع .

**« واخـتـارهـا بـعـض اولـى الاداء**

**لفـضـلـهـا فى اول الاجـزاء »**

اى اختار البسملة بعض القـراء فى اول الاجـزاء كالاحـزاب والارباع والاثمان من اجل فضلها ثم يقرا قراءة مرتلة ، كلمة كلمة لا يقف فى غير محل الوقف الا عند انقطاع النفس ثم يعيد ما وقف عليه ليصله بما بعده ، وانما يقف حيث يكون الوقف تاما مختاراً او حسنا حسب قـانون القراء ، كما انه يفخم الراءات على الاصل الا لسبب يقتضى ترقيقـها ، فانه يرققها ويغلظ اللامات المفتوحة بعد الطاء والظاء المشالة والصاد المهملة كاطلع وظلم وصلب ، كما يخرج غنة الادغام والنون والميم الساكنتين من الخيشوم مع مراعاة صفات الحروف من استعلاء ، واطبـاق واسـتـطالة

ورخوة وتسفل وفتح وجهير وهمس ، وصفير وتفش ، وما الى ذلك مما ذكره اهل الاداء ، ثم هو يؤدى كل ذلك بدون تكلف وبدون تصنع وبلا ترقيق وترعيد صوت ، بل يرسل الطبع يسير سيرته المعتادة ، فيمثل رحمه الله تعالى للسامع قراءة ابن مسعود او ابى موسى الاشعرى رضى الله عنهما وقد اخذناها من فيه والحمد لله غضة ثم عرضناها عليه فيما بعد ، فجمعنا بين السماع والعرض ، كما اخذها هو بقبائل الريف المغربى عن شيخ القراء الاستاذ سيدى حد المشهور بقراءة السبع . هذا وانا لنسف لما نرى عليه بعض قراءنا اليوم يمطط فى القراءة ويتكلف اخراج الطبيعة عن مألوفها مشتغلا بالتطريب والترعيد لصوته ، فتفوت بذلك الحكمة المقصودة من التلاوة ، وهى التدبر والاتعاظ واستحضار عظمة المتلو .

قال الغزالى: تلاوة القرآن حق تلاوته ان يشترك اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف ، وحظ العقل تفسير المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر والانزجار والائتمار ، فاللسان يرتل والعقل ينزجر والقلب يتعظ . انتهى كلام الغزالى .

وفى الجامع الكبير للسيوطى رحمه الله تعالى من حديث ابى ابن كعب ان النبى صلى الله عليه وسلم « صلى بالناس فقرا عليهم سورة فأغفل منها آية فسألهم هل تركت شيئا فسكتوا ، فقال ما بال اقوام يقرا عليهم كتاب الله تعالى لا يدرون ما قرىء عليهم فيه ولا ما ترك . هكذا كانت بنو اسرائيل خرجت خشية الله من قلوبهم فغابت قلوبهم ، وشهدت ابدانهم الا وان الله عز وجل لا يقبل من احد عملا حتى يشهد بقلبه ما يشهد ببدنه »..

كان الشيخ سيدى عبد السلام بن صالح الغريسى الذى نتحدث عنه احد الاعلام الاثبات فى علم القراءات كما ذكرنا سابقا يؤمه بكثرة الطلبة المتعطشون لعلم القراء ليأخذوا عنه هذا العلم الذى انفرد به فى بلادنا ، وقد تخرج عليه الكثير منهم الشيخ احمد الشارف بن طكوك رئيس الزوايا السنوسية بالقطر الجزائرى والساكن بزاوية اولاد شافع ، وبها اخذ عن الشيخ سيدى عبد السلام ، وممن اخذ عنه الشيخ المختار العشعاشى اصلا الزمالى دارا واقبارا ، والشيخ الحاج بن عب المشرفى ثم المعسكرى والشيخ محمد ولد البيتر من قبيلة اولاد عبد الله وخلق ليس فى امكانى سرد اسمائهم فضلا عن ذكر تراجمهم ، وكان من عادته المستمرة ان معلمى المكاتب القرآنية بتلك النواحى يدعونه للتبرك به والسماع منه،

فيلبى دعوتهم دائما ، وكنت فى الغالب اصحبه فيكلفنى كتابة بعض الواح طلبة المكتب النازل به كأنه يلفت بذلك انظارهم الى مبلغ اتقانى لرسم القرآن الكريم ومهارتى فى حفظه ، وقد ختمت عليه القرآن ختمات كما قدمت وقرات عليه الدرر اللوامع لابن بر فى التجويد وتصوير الهمز من مورد الظمآن للشريشى المعروف بالخراز ، وبعض الشاطبية . كما قرات عليه متن الاجرومية بشرح الشيخ خالد الازهرى وحاشيته لابن حمدون مع حل ابيات الالفية لابن مالك التى يستشهد بها صاحب الحاشية المذكورة فى غالب ابواب الآجرومية . ولقد استفدت فائدة تامة بقراءتى عليه الآجرومية التى كان يحسن القاءها ، ويقرب بواسطتها المعنى البعيد بعبارة سهلة لا تعقيد فيها ، وبأسلوب حكيم مع التطبيق على مشولها واستخراج الجزئيات من كلياتها ، ثم يعقب ذلك بتدريبات وتمرينات تفتح امام التلميذ ابواب التمكن من الفهم الصحيح ، خصوصا باب معرفة علامات الاعراب فانه كان يتوسع فيه كيثرا بتكرير مسائله وباحصائها عددا فيقول مواضع الاعراب ثمانية وعلامات عشرة ، ومواضع النيابة سبعة ، وكلها فى المتن ، ثم يقول مدار مبادىء النحو على باب معرفة علامات الاعراب ، ويقول ان بعض الاشياخ لا ينتقل عنه الى ما بعده حتى يكرره مرتين او ثلاثة . وكان فى الغالب يسوق اثناء الدرس حكاية تعين على فهم الموضوع، منها ما حكاه لنا عند تقريره لقول ابن آجروم التثنية ترفع بالالف ،وتنصب وتجر بالياء . ان احد فقهاء البادية استمنح الامير عبد القادر رحمه الله ما يمير به اهله من حبوب الزكاة فمنحه الامير حملا وكتب لحارس الزكاة : اعط الفقيه حملا ، فاستقل الفقيه المبلغ وزاد نونا بعد الف حملا ليكون المبلغ حملين . وكان الامير لا يولى الوظائف الحكومية الا من له المام بالمبادىء النحوية . فلما قرا الحارس الكتاب قال هذا الكتاب مزور . قال الفقيه وكيف يكون مزورا وهو مختوم بخاتم الامير ...! قال الحارس ان فى الكتاب لحنا ، وكاتب ديوان الامير لا يلحن ، وكان يكتب حملين بالياء التى هى علامة نصب التثنية . واما الالف فعلامة رفع للتثنية . فاعترف الفقيه بالتزوير ولم يعط سوى حمل . فكانت هذه الحكاية بمثابة مثال جزئى وضح لنا قاعدة اعراب المثنى . وجميع حكاياته فى اثناء دروسه هى من هذا القبيل توضح معنى او تعين على فهم مسألة او تزيل اشكالا . ومن عادته حث تلامذته دائما على طلب العلم ، ويحببه اليهم ويرغبهم فى تحصيله ويقول : اصلحوا السنتكم بتعلم النحو ، فان اللحن نقص ولا عبرة بقول القائل :

**« ما ضر ذا تقوى لسان معجم »**

ودائما يكتب لكل طالب فى اسفل لوحه ما يناسبه من المتون فى اى فن تتوجه اليه رغبة الطالب نثرا ونظما . وهكذا كان دابه دائما الحرص على نفع ابناء جنسه وايصال الخير اليهم . وقد اجازنى بكل ما تلقيته منه مدة اقامتى بمدرسته ، وبعد مفارقتى اياه بلغنى انه انتقل الى مدينة عين تموشنت ، وبها توفى بعد الثلاثمائة والف فى حدود العشرين من القرن الرابع عشر او قبل العشرين بقليل . رحمه الله تعالى وجزاه خيراً .

ولما اكتفيت بما اخذته عنه من علوم القراء ثنيت عنان العزم الى طلب العلم ، وكان ابن عمنا ان لم نقل ابونا العطوف الشيخ سيدى محمد بن الفريح يدرس بمنزله العامر مختصر الشيخ خليل رحمه الله فكنت بعد رجوعى من سفرى لقراءة القرآن احضر عليه ولازمت دروسه خمس سنوات ختمت عليه المختصر فى هذه الخمس اربع ختمات او ازيد . وكان حافظا لمتن المختصر يقرؤه عن ظهر قلب مستحضرا لمسائله مطلعا اطلاعا كاملا على ما قاله شراحه وارباب حواشيه . قرا بقرية الباشيرية من عين الشرفاء على الشيخ الطيب بن البشير احد كبار الفقهاء واعرفهم بمسائل خليل منطوقا ومفهوما . وكان مشهورا بالصلاح مشهودا له بالولاية ، عمى فى آخر عمره ، فاذا توقف فى مسألة قال لمن حضره : ناولونى كتاب كذا ، فيقبض على الكتاب ويمر يده من اعلاه الى اسفله ، ثم يفتح الكتاب ويقول انظروا هنا فيوجد محل المسألة بدون ان يتخطاه ولا بورقة واحدة ، فكان يعد ذلك من مكاشفاته ، وكان شيخنا المذكور يراعى حقه ويسعى جهده دائما فى ترضيته ، ويصله بأوفر الصلات . وكثيرا ما يستدعيه لحمله فيتفرغ لمقابلته والاشتغال بضيافته وخدمته حتى انه يعطل ا لدروس ايام اقامته عنده ، ووقت انصراف هذا السيد العظيم يحضر شيخنا بين يديه نجليه الكريمين السيد محمدا والسيد احمد يقدمان له هدية سنية تليق بمقامه الرفيع فيبرك عليهما ويدعو لهما بخير ، وينقلب الى اهله مسرورا ، ثم قرا ببنى شقران على الشيخ احمد والشيخ مصطفى المداحيين ، كما قرا على غيرهم من فقهاء الوطن . ولكن هؤلاء الثلاثة هم المعول عليهم فى طول مدة الاخذ عنهم ، وهم الذين اجازوه ، واذنوا له فى تدريس الفقه ، وبعدما تصدر للاخذ عنه تخرج عليه العدد الكثير من طلاب الفقه منهم ولى الله الشيخ الاجل سيدى عبد القادر بن محمد ، والشيخ ابو بكر ، والشيخ احمد ابن الحريزى ، والشيخ المولود بن شعبان السليمانيون ، والشيخ احمد التلاوى ، والشيخ مولاى احمد السحنونى ، والشيخ عبد القادر المقلش

البراسى ، والشيخ محمد بن عيسى السعدى ، والشيخ محـــمد بن خزار الزمالى فى خلق .

ومن المتخرجين عليه اخى الشقيق الشيخ عبد القادر ، كما تخرج عليه ابنه الشيخ محمد . وكان نادرة فى الحفظ مستحضرا للنقول ، لا يغيب عن ذهنه ما حفظ وسمع مهما طالت المدة ، خلف والده على دروسه . كان شيخنا هذا سيدى محمد بن الفريح الذى نحن بصدد الحديث عنه ، كثير الحظ فى الاقبال على مدرسته ، وفى الاخذ عنه ، يرغب الطلبة فى الحضور عليه والتلقى منه ، لذا تجد حلقاته غاصة بطلاب الفقه . وكان والده السيد أبن عبد الله بن الفريح يحب العلم واهله ، وله ثروة عظيمة تنمو دائما ، وتتضخم بواسطة منتوجات الفلاحة التى كانت موضع عنايته . واهـــم محترفاته يعد لها معداتها من دواب وآلات حرث وحصاد ودراس واستجار العملة . وكان يسلط هذه الثروة النامية على هلكاتها فى الخير ، فينفق منها طول السنة على طلبة مجلس ولده شيخنا المذكور رغم كثرة عددهم . ولما توفى رحمه الله صار الشيخ ينفق على الطلبة من خالص ماله حسبما كان والده ، وربما اضطر فى آخر السنة الى ارتكاب ديون ينفقها على الطلبة فى المدة الباقية للعطلة الصيفية . ثم انه كان مع تواضعه ، وخفض جناحـــه ولين جانبه ، مهيبا معظما فى العيون ، محبوبا بين الأوساط التى يساكنها، كما انه كان عالى الهمة ، رفيع المقام . اما الكرم والسخاء والرحمة بالضعفاء والعطف على المساكين فحدث ولا حرج ، وهو ايضا يتمتع بسمعة طيبة بين كل الطبقات . حج سنة ثمان وتسعين من القرن الثالث عشر ، وعرج فى طريقه الى بلده بعد الحج على دمشق الشام ، ونزل ضيفا على الامير عبد القادر الجزائرى ، فراى منه ومن حاشيته من الحفاوة والاقبال والاكرام ما لا مزيد عليه ، يحضره الامير فى كل مجالسه الخاصة بالعلماء والوجهاء وذوى الشخصيات البارزة ، ويدنيه ويقربه منه ، ثم ينوه بشأنـــه ويقول لجلسائه : هذا عالم جزائرى من بيت ماجد شرفنا بزيارته فيعظـــم الشيخ فى اعين الحاضرين وغيرهم . وكان ذوو الحاجات يتوسطون به ويلتمسون منه ان يكلم الامير فى مساعدتهم وقضاء مصالحهم ، وقد اشتهر مدة اقامته بدمشق بالوساطة حتى ان انجال الامير يتوسطون به ، فقد حكى لنا ان احد انجاله قال لى ، ان سيدى الوالد يفضل اخوتى على ويقدمهم للمناصب العالية ويوليهم الوظائف السامية فأرجوك ان تذكرنى عنده لعله بواسطتكم يمنحنى بعض ما يمنحهم او على الاقل يسوى بينى وبينهم فى الحظوة لديه . فقلت له يا اخى ان الدنيا لكم بغلة مسرجة تركبونها متى شئتم، وستركبها انت ان لم يكن غدا فبعد غد. فاقتنع بكلامى وعافانى من ذكره للامير. كما

حكى لنا ايضا انه كان ذات يوم جالسا فى معية الامير، فدخل عليه احد بنيه يطلب منه الاذن له ولبعض اخوته فى الاصطياد، فاذن لهم وكان اليوم الذى اذن لهم فيه شديد البرد كثير المطر متراكم الثلوج فقلت يا مولاى انى لمشفق عليهم حيث خرجوا حفظهم الله فى هذا النهار الذى على ما تعلمون ، فقال الامير : لا يخفى على ذلك ، ولكن اذنت لهم ليتـدربوا على تحمل المشاق ، ويتمرنوا على تكبد المتاعب ، وعلى الثبات امام الشدائـد . واضاف الى ذلك قوله . ان الدهر ذو تقلبات ، والايام كثيرا ما تتنكر ، فينبغى للعاقل ان يعد للطوارىء عدتها ، ويسأل الله العافية ، ثم قال لى ورد فى الحديث ما لفظه او معناه :

**« اخشوشنوا فان الحاضرة لا تدوم »**

فسكت ، وندمت على ما صدر منى ، وان لم يظهر على وجه الامير ما يحمل على الندم . ثم قال الشيخ : وعند مفارقتى اياه بعد اقامتى فى ضيافته قريبا من ستة اشهر ، لقننى اوراد الطريقة القادرية واذن لى فى ان القنها من طلبها منى . هذا وما قوبل به الشيخ من مزيد الحفاوة والمبالغة فى الاكرام لم يكن لمجرد ما جبل عليه الامير من قراء الضيف وادخال السرور عليه وخدمته بنفسه الكريمة ، بل لما بينـه وبن والد الشيخ مـن الروابط والصلات والمودة التى تقادم عليها الزمان ، فجددت بزيارة الشيخ . وقد حافظ عليها الامير ، ورعاها حق رعايتها ، شأن الاحرار الذين يراعـون وداد لحظة . ولذا بالغ فى الاحتفال بالشيخ على ما ذكرنا ، وتلك المـودة القديمة العهد هى صحبة الامير التى وفى بها والد الشيخ وابن عـم والده السيد بن فريجة ، ذلك انهما شهدا مع الامير جميع غزواته وخاضا سائر حروبه ، ولازماه من ابتداء امره الى ان فرقت بينهم صروف الدهر ، وانتقل الامير الى المشرق على كراهية منه لمفارقة وطنه العزيز ، بعدما شرط على القائد العام لجيش الاحتلال الفرنسى ، ان كل من حمل السلاح وقاتل معه الجيوش الفرنسية يكون بعد رجوعه لقبيلته آمنا على نفسه وحريمه وماله فاعتمد من كانوا مع الامير فى محلته على هذا الشرط وعادوا الى قبائلهم ، ولكن سرعان ما رجعوا صار الاستعمار يقبض عليهم فرادى وجماعات بدعوى انهم يقومون بدعايات واسعة النطاق ، ويبثون بيـن الاوساط ان الامير عبد القادر سيعود قريبا الى الوطن وينظم دولـتـه . وهذا هو المعروف فى الاستعمار عند انتقامه من الابرياء والتنكيل بهم ، يختلق اكاذيب ويخيل اليه انها تبرر اعماله الوحشية ، وفظائعه الهمجية التـى سودت صحيفة تاريخه وسجلت عليه العار والخزى الى الابد . ان من بين اولئك

الذين القى عليهم القبض ، والد والدتى السيد بن فريحة الذى تقدم انـه صاحب الامير عبد القادر فى السراء والضراء . وبعدما القى عليه القبض غرب الى الارض الفرنسية واعتقل هناك فى مكان مجهول ، الى ان مات او قتل غريبا لا يعرف ادفن ام ترك فريسة للوحوش والذئاب . ثم اننـا لا نستغرب صدور امثال هذا من المستعمرالذى عودنا ما هو مجبول عليه من انه لا يرقب فى مؤمن الا ولا ذمة ، وبعدما رجع صاحب الترجمة ، وهو الشيخ محمد بن الفريح من سفر الحج اشتغل عـن التدريس بضرورياته العائلية ، وتدبير شؤونه الداخلية والخارجية ، ولم يعد الى التدريس الا بعد مدة لا تقل عن عشرين سنة ، ثم استأنف القراءة بجد ونشاط . وفى هذا الدور ابتدات حضور دروسه ، وكان معـى نجله المذكور الشيخ محمد ، عرف بمكنوس ، ويحضر معنا جماعة من اقرانى ، ومن المقاربيـن لى فى السن . وفى هذه الآونة ، راى والدى الرؤيا التى تقدم الكلام عليها ، ولكونى من اقرباء الشيخ ، وذوى رحمه مع شدة فقرى ، كان يصلنى ويخفف عنى آلام فاقتى التى اضطرتنى بعد وفاته الى ان اجرت نفسى سنة لتعليم الصبيان القرآن الكريم . وكانت وفاة هذا الفقيه الاجل الذى كانت حياته الطيبة كلها نفع لخلق الله سنة ثلاث وعشرين من القرن الرابـع عشر ، وخلف ابنـه الشيخ محمد المذكور فتولى شؤون عائلة والده المركبة مـن ذكور واناث وارامل وايتام كما قام بالقاء الدروس التى كان والده يلقيها فى محله وواضب على ذلك سنوات ، ثم انتقل الى الحاضرة واستمر بها يفتى ويرشد ويصلح ذات البين الى ان التحق بصالحى اسلافه يوم الخميس الثالث والعشرين من شعبان سنة ثمان وستين بعد الثلاثمائة والالف ، وخلف انجالا يعدون بين الاوساط من الطبقات العالية ، لم يرثوا منه دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا منه ما اشتهر به من كرم خلقى وبذل جبلى « صير الدرهم المضروب لا يألف صرته ، ولكن يمر عليها وهو منطمق»

ثم بعدما قضيت اجل اجارتى لتعليم الصبيان ، وهو سنة كما تقدم، استأنفت مزاولة الدروس ، فقرات على الشيخ محمد بن العربى الشرفى باب الموارث من مختصر الشيخ خليل . وكان مستحضرا لتصحيح المسائل ، يفصلها تفصيلا يبلغها الى العدد الذى تنقسم منه دون كسر ، ويعرف بالبداهة من يرث ومن لا يرث ، ومن يرث بالفرض او التعصيب ومن يجمع بينهما ، تلقى مسائل الارث بمدرسة مزونة من شيوخها الذين يقتصرون دائما على قراءة متن الشيخ خليل، ولا يخطر على بالهم اقراء غيره من متون الفقه ولا من متون غير الفقه ، ثم ان جماعة من اعيان مدينة سيك جلبوا لها الشيخ محمد الكندوز التنسى ليحيى هذه البلدة المتعطشة لمن يبث فيها العلم الصحيح

المتلقى من اربابه، فجاءها هذا الاستاذ الاكبر يحمل علوما غزيرة وفنونا كثيرة فكنت من اول الذين عكفوا على دروسه ، وقد دخلت هذه المدينة بلا زاد ، وبدون ان يتعلق املى على شىء يمكن الاعتماد عليه ولو بعض اعتماد سوى واسع فضل الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه فبعدما رآنى هذا العالم النفاع مقبلا على حضور دروسه باجتهاد ومزيد حرص واعتناء ، اشركنى مع طلبة مدرسته فى المؤونة الجارية عليهم من سكان البلدة . وهذه المدينة موقعها الجغرافى الطيب التربة ، المعتدل الهواء ، جعلها آهلة بالسكان ، تقع مساحتها اسفل جبل منبسطة فسيحة الارجاء ، ولذا كان الامير عبد القادر ينزل بها ينتظر اجتماع القبائل المنتدبة معه للهجوم على الجيش الفرنسى بوهران ، وبالثغور القريبة منها بهذه الرقعة الفسيحة من الارض اختط الاستعمار الفرنسى مدينة سيك المذكورة كما اختط غيرها من المدن والقرى الحديثة العهد من بعد الاحتلال ليبث قدمه بأرض الجزائر وليمهد السكنى للمعمرين الذين هجروا اوطانهم وانهالوا على القطر الجزائرى فاكتسحوا اراضيه الخصبة وضيقوا على اهله الاصليين واجلوهم الى الشواهق ورؤوس الجبال ، اتسعت العمارة بمدينة سيك وبنيت بها الحمامات والفنادق واسست بها المصانع والمعامل اوسعها نطاقا معامل عصر الزيتون المعروف بجودة الزيت الذى تصدر منه كميات الى الخارج ويكتنف هذه البلدة حوائط وبساتين مختلفة الاشجار واصناف المزروعات حتى البقول والخضراوات تسقى كلها بماء عذب يصل اليها فى جداول يمدها سد هنالك غرب المدينة يبعد منها بنحو الخمسة عشر ميلا وتجتمع مياه هذا السد من نهر مكرى المعروف عند العامة بوادى المبطوح ، ومن امطار سيول الجبال المحيطة به واحيانا يكثر المطر فيطغى ماء هذا السد حتى يغمر مساحة كبيرة من الارضين القريبة منه ولا ينكشف عنها الا قرب فصل الصيف وهذه المياه المجتمعة توزع بالساعة الفلكية على الفدادين التى اكثرها فى ملك الاوروبيين الذين احتكروا خيرات البلاد الجزائرية ، واستبدوا بأرباحها واستحوذوا على منتوجاتها ومحصولاتها الزراعية وغير الزراعية وبالنواحى القريبة من مدينة سيك قرى كثيرة من عدة قبائل تأخذ اغلب حاجياتها من نفس المدينة . ولذا جمعت بين الحاضرة والبادية فى كل المرافق الحيوية تقام بها يوم الاثنين من كل اسبوع سوق تباع بها الدواب والبقر والاغنام، كما يباع بداخل البلد اصناف الفواكه والخضر وبها دكاكين ومتاجر تبيع السلع والبضائع على اختلاف انواعها بالجملة والتفصيل ، كما يوجد بها مخازن ملأى بالحبوب طول السنة ، خصوصا الحنطة والشعير وبها مسجدان تقام بهما الجمعة ومكاتب قرآنية يوجد منها فى كل حومة مكتب

واخيرا اسست بها مدرسة تضم بين جدرانها نحو الثلاثمائة تلميذ تشرف عليها جمعية العلماء وترتب فيها من الاساتذة من فيهم الكفاية ، ولهم الكفاءة التامة فى مباشرة التعليم . وعندما قامت الثورة الجزائرية آلتى نحن فى عامها السادس ، اغلقت السلطة الفرنسية هذه المدرسة العربية التى اسست لاحياء لغتها ومحاربة الامية ، كما اغلقت مدارس القطر بتمامها ، وسدت ابوابها فى وجوه اولاد الامة تلاميذ وتلميذات . وهكذا جنى الاستعمار على العلم جناية لا تغفر ، وارتكب جريمة زادت صحيفته السوداء سوادا على سوادها ، وسجلت عليه عارا يبقى ابد الآبدين ثم انى اقمت بمدينة سيك سنة فقط ، قرات فيها على الشيخ محمد آلكندوز معظم مختصر خليل والآجرومية مرات ، وقطر الندى لابن هشام ، والفية بن مالك ، كما قرات عليه لامية الافعال فى الصرف والسمرقندية فى البيان ومتن اساغوج فى المنطق وهو قرا على الشيخ الشعيبى الآتى ذكره ، ولا اعلم انه قرا على غيره كان الشيخ الكندوز حافظا يلقى دروسه كلها بالاملاء فيملى من حفظه الشىء الكثير من النقول المتعلقة بموضوع الدرس ، ولكن معه حدة لا يقبل السؤال، وربما انتهر السائل ثم يجيبه بأكثر مما سأل ودروسه رحمه الله لا تخلو من البحوث العميقة التى يبدى منها النكت الدقيقة ، ويستنتج بواسطتها الاشباه والنظائر عندما تظهر له العلة الجامعة بينها فى الحكم درس فى عدة اماكن بطلب من اهلها كزاوية الشيخ ابن طكوك بأولاد شافع من قبيلة مجاهر وزاوية الشيخ عبد الباقى بوادى الجمعة ، وبقرية اولاد سيدى الفريح من قبيلة اولاد على ، ثم يعود لمدرسة شيخه بقبيلة صبيح ويحضر دروسه كلها ، ثم يقرا للطلبة بعض الدروس فى اوقات مخصوصة ولما مات استاذه الشيخ الشعيبى فى التاريخ الآتى قام مقامه فى كل مكان يتعاطى من تدريس وافتاء وتحكيم فى النوازل ، وما الى ذلك من الخدمات التى كان الشيخ الشعيبى يقدمها للاسلام والمسلمين الى ان توفى رحمهما الله وجعل منزلهما فى اعلى عليين كان الشيخ الكندوز دائما يحدثنا فى الدرس وخارجه عن علوم الشيخ الشعيبى ومعارفه ، ويذكر لنا اجتهاده فى نفع الطلبة وحرصه على افادتهم مع استغراقه الاوقات فى تدريس الفنون المتنوعة ، فكانت رغبتنا تشتد فى الرحلة الى السماع منه والاخذ عنه ، وفعلا سافرت فى من سافر الى مدرسته بقبيلة صبيح التابعة لمقاطعة حكومة مدينة تنس ، وبعد تكبد مشقة المشى راجلا التحقت بمدرسة هذا العالم الكبير العلى القدر الرفيع المقام شيخ الاساتذة واستاذ الجهابذة الحامل لواء الزعامة العلمية بالقطر الجزائرى الشيخ المولود بن الحسين الشعيبى التنسى ثم الجزائرى ، كان المقتدى به فى العلوم والمعارف بين ما تراه فقيها

اصوليا تراه لغويا نحويا بليغا اديبا جمع فأوعى ، وبلغ فى العلوم منقولها ومعقولها الغاية القصوى ، قرا مبادىء العلوم ببلـده ثم رحل الى تونس فقرا بالكلية الزيتونية على جماعة من اكابر العلماء يأتى ذكرهم ، وبعـد مدة استأنف رحلته من تونس سنة اربع وثمانين من القرن الثالث عشر ، والتحق بالجامع الازهر الانور فتلقى انفس العلوم من كل فن واخـذ عن مشاهير علماء الازهر كلهم او اكثرهم مؤلفون ، وسنذكرهم فيما بعد ، ولذا كانت مدرسته رحمه الله فرعا من فروع الجامعة الازهرية لا ينقصها سوى انها اسست بالبادية بعيدة عن الحواضر ، ولو انها انشأت باحدى المـدن الكبيرة فى الوطن الجزائرى لكان لها صيت فى انحاء المعمورة . لكن الشيخ الشعيبى اختار تأسيس مدرسته فى البادية ليحارب الجهل الذى فشا بها اكثر من الحاضرة ، وقد كتب اليه بعض تلامذته يطلب منه أن يـذكر له اشياخه التونسيين والمصريين ليدرجهم فى ترجمته فـأجابه بعد الديباجة بقوله : اما بعد ، فقد بلغنا كتابكم متضمنا التماسكم منا ان نبين لكم عدة مشايخنا التونسيين والمصريين فأجبتك لما اقترحته، قرات على بعض الطلبة المتطوعين بجامع الزيتونة الآجرومية وما قاربها من الكتب الصغار كالازهرية والقطر ، والشذور ، وغير هذه المتون الصغيرة من المطولات على الاشياخ الآتية اسماؤهم وهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شارح البردة والشيخ الطاهر النيفر الصفاقصى ، والشيخ البارودى الحنفى والشيخ حسونة عباس الحنفى والشيخ عثمان الشامخ والشيخ البشير الزواوى مصحح المطبعـة التونسية ، والشيخ مصطفى بن الطيب الحنفى ، والشيخ العربى المغربى الصالحى . ثم سافرت الى مصر عام اربعة وثمانين من القرن الثالث عشر ومشايخنا التونسيون كلهم قد اخذوا عن الشيخ ابن عاشور ، فهـو شيخ المشايخ ، وهو اخذ عن الشيخ الخضار ، وهو اخذ عـن الشيخ الكواش وهو اخذ عن الشيخ سيدى صالح الكواش الذى كان يقول : يموت العلم ان مات صالح ، يعنى نفسه ، وقرات بالازهر الانـور على استاذنا شيخ الاسلام وقدوة الانام سيدى محمد عليش عليه سحائب الرحمة والرضوان واسكنه الله تعالى فسيح الجنان ، والشيخ احمد الرفاعى محشى بحرق ، والشيخ عمر القسنطينى ، والشيخ عبد الـوهاب قاضى الاسكـندرية ، والشيخ الصاوى والشيخ الروبى والشيخ البسيونى والشيخ حسونة داود والشيخ اسماعيل الحامدى محشى الكفراوى على الآجـرومية ، والشيخ احمد الاجهورى صاحب تقريرات هامش شرح البيجورى على جوهرة اللقانى فهؤلاء هم مشاهير مشايخنا المصريين والتونسيين ، اسكنـهم الله اعلى عليين ، وجعلنا يوم القيامة باذيالهم متعلقين ، وشيـخ السراية كشيخ

المباشرة، فالشيخ عليش شيخه مصطفى البلاقى صاحب الخطب الجمعية المشهورة وهو اخذ عن الشيخ محمد الامير صاحب الجموع، والامير اخذ عن ابى الحسن على ابن محمد الصعدى العدوى المالكى محشى الخرشى ، رحم الله الجميع وجزاهم عنا وعن المسلمين خيرا ، والحمد لله الذى جعلنا من المنتسبين اليهم . انتهى .

كان الشيخ الشعيبى زاهدا ورعا لين الجانب، يجالس المساكين ويعطف عليهم ، ويسعى فى قضاء ما يرفع اليه من حاجاتهم ، كما كان يحسن اليهم ولو بالقول الميسور . اما الاغنياء وارباب الوظائف الحكومية ، واصحاب الالقاب الضخمة فانه كان يتجنب مخالطتهم ما امكنه ، ذلك مع كونهم يرغبون دائما فى مقابلته ، ويحرصون على الجلوس ولو لحظة بين يديه . كان رحمه الله غيورا على الشريعة ، لا يخاف فى الصراحة بالحق لومة لائم . ولقد اوذى فى الله مرارا والحقته محن تلقاها بثبات وربط جأش ، منها انه سجن ما لا يقل عن ثلاثة اشهر بسبب وشاية بعض قضاة وقته عند الحكومة وقال انه يعقد الانكحة ويكتب الوثائق ، ويقول لا عبرة بوثائق القضاة ، ولا بأحكامهم فى النوازل ، فعملت الحكومة المحلية بوشاية قاضيها الذى اصطنعته لنفسها وحكمت على الشيخ بالسجن تلك المدة ، ومن غريب المصادفة ان هذا القاضى الواشى اصيب بأمراض مزمنة انهكت قواه وانحلت جسمه ، وطالت مدتها حتى سئمه اهله وضجروا وتجنبه اقرب الاقرباء اليه ، وكان الناس اذ ذاك يعتقدون انه ما حل به ما حل الا من اجل وشايته بالشيخ الشعيبى والله اعلم .

كانت كلمته نافذة بين الاوساط ، فاذا قال فان قوله هو القول الفصل ، واذا افتى فى نازلة لم يلتفت لفتوى من خلافه كائنا من كان يفصل فى الخصومات بمقتضى قوانين الشريعة الاسلامية فينقاد الخصوم لما حكم به ، ويسلمون تسليما . وكان رحمه الله شديد النكير على اهل البدع من بعض الفرق والطوائف ، خصوصا من يصدر منهم ما يمس بشرف الدين او يخل بآداب الشرع ، كالاقاويل المشوبة بما يوهم الحلول او سوء الادب مع الحضرة الالهية ، وما اكثر القائلين بتلك الاقاويل من ارباب الدعاوى الباطلة . عصمنا الله تعالى من الخطأ وسلك بنا السبيل السوى ، لم نر للشيخ الشعيبى تأليفا ولا بلغنا انه الف فى فن من الفنون . ولقد طلب منه التأليف مرارا وتكرارا ، فيقول الاشتغال بالتعليم انفع من انفاق الوقت فى التأليف . ثم يقول : وماذا عسى ان يكتب من يتصدى للتأليف .. وقد كثرت والحمد لله المتون والشروح والحواشى ، وحتى التقارير بحيث لم يبق

قول لقائل ، وغاية ما يكتب المتصدى للتأليف ان يجمع النقول ويذكر الخلافات التى يمكن الوقوف عليها قبل كتابته وبعدها . هذا ما كان يجيب به من يقترح عليه التأليف ، اذ هو على جانب عظيم من الاخلاص فى العمل فلا يلتفت الا الى ما هو انفع للمسلمين ، واكثر ثوابا ، واعظم عند الله اجرا ، نعم له الكثير من الفتاوى والوثائق والرسائل التى كان يجيب بها مراسليه ، كما له تقريرات مفيدة متنوعة ، كان يقررها اثناء دروسه فيكتبها الطلبة بهوامش ما يحضرون به من متن او شرح . ولقد كتبنا على هامش حاشية البيجورى على السمرقندية تقريراً مسهبا قرره لنا على تخييلية السكاكى ، وتلك الكتابات اكثرها بيد تلامذته نقلوها من خط يده الكريمة وقد التمسنا من بعضهم اعارتها لندرجها فى ترجمته فضن بها ، ثم عثرت له فيما بعد على ما يأتى منقولا من خطه فأثبته هنا بعد اصلاح الفاظ غيرها الناسخ ، من ذلك ما كتبه مخاطبا به بعض من يعتمد فى ثبوت الصوم والفطر على مجرد تخمين او ظن ضعيف :

« اما بعد ، فمن حكم بثبوت الصوم او الفطر قبل مجىء وقته ، يجب ان يقال له كما لا يمكنك ان تحكم بذكورة الجنين او انوثته قبل وضعه لا يمكنك ان تحكم بثبوت رؤية الهلال او بنفيها قبل الليلة الاخيرة من الشهر التى بها يتضح امر الهلال وجودا وعدما مهما كان لك نوع تمييز ، اذ كل من الامرين معلوم البداية ، ولكن لا يدرى احد ما يحدث فى النهاية ، الا ان نكون اعتمدت تخمينات المنجمين الذين ان اصابوا مرة اخطأوا مرات ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لفظه او معناه :

« كذب المنجمون ولو صدقوا »

اليس من الواجب علينا ان نكذب من كذبته السنة ، ولا نبالى بما يقوله البتة على ان حكم الصوم والافطار اصبح من الضروريات التى لا تخفى حتى على العوام ، فلا ينبغى ان يصل النزاع بين المسلمين الى هذا الحد فى مسألة سد الشارع باب النزاع باناطة الحكم فيها صوما وافطارا برؤية الهلال او بكمال عدة الشهور ثلاثين يوما ، والله الموفق» . انتهى

كما وقفت له رحمه الله تعالى على وصية يوصى بها بعض تلامذته، قال بعد الديباجة :

« وكن اخى على الحق مقبلا وبعلمك عاملا واياك ، اياك ومتابعة الهوى وان تحذو حذو من ضل وغوى من اشرار الطلبة الذين تصدوا لافتاء عوام المسلمين بالاقوال الضعيفة المدارك ، بل ربما كانت باطلة ، فاحذرهم

ايها الاخ ، فان بهم جنة وعلى قلوبهم اكنة وقد ضلوا واضلوا ، وما كانوا مهتديـــن .» انتهى

هذا بعض ما وقفت عليه للشيخ الشعيبى ، وهو رشفة من نهــر او نقطة من بحر . كان رحمه الله فى السنوات الاخيرة يصوم رمضان بمدينة البليدة بطلب من اعيانها وفضلائها ، يقرا ليلا بعد التراويح درسا فى التفسير ونهارا ما يطلب منه من توحيد او بيان او منطق . وكان اهل الــبلدة على اختلاف طبقاتهم يحضرون دروسه ، وفى مقدمتهم معلمو الطلبة الذين منهم الشيخ عبد القادر بن جلول الغريسى المستوطن البليدة . وغالب دروس هذا الشيخ الفية ابن مالك ، وكان لا يقيل للشيخ الشعيبى عثرة ولا يتجاوز له عن هفوة ، وكثيرا ما يعترض عليه بما لا طائل تحته ، ولكــن الشيخ سموح يرد اعتراضاته بالتى هى احسن ، من ذلك ان الشيخ الشعيبى كان يقرا متن السمرقندية فىعلم البيان ، ولما اعرب قول المتن عسيرة الضبط حالا قال له الشيخ الغريسى معترضا عليه عسيرة الضبط تركيب اضافى تعرف فيه المضاف بالمضاف اليه المحلى بأل والحال لا يكون معرفة ، فأجابه بقوله اعتراضك فى غير محله ، لان عسيرة صفة مشبهة لا تفيدها اضافتها اللفظية لا تعريفا ولا تخصيصا ، بل هى باقية على تنكيرها فاعرابها حالا صحيح موافق للقواعد العربية ، وفى الالفية لابن مالك التى هى موضوع درسك فى الوقت الحاضر ما هو صريح فيما قلنا قال ابن مالك :

**« وان يشـــابــه المضـــاف يفـــعــل**

**وصـــفـا فعــن تنكيــره لا يعــزل »**

ثم قال له انى انزه ساحتك عن ان تكون من الغفــلة بهذه المثابة رحمهما الله . وهكذا يظهر الشيخ الشعيبى دائما على خصمه فى المناظرة التى يعرف اساليبها ويحسن طرقها ويتنبه لما فيه الزام الحجة للخصم من كلام الخصم نفسه

كان الشيخ عبد الحليم احد اساتذة المدرسة الثعالبيــة بعاصمة الجزائر يتردد دائما على البليدة ، فاتفق ان تكلم بحضرة الشيخ الشعيبى وقال الاعيان النجسة اذا استحالت مادتها الى مادة اخرى طهــرت ، ثم قال النطفة مثلا مادة نجسة قذرة ، ولما استحالت الــى مادة اخرى وهو الحيوانية طهرت ، فالعلة فى طهارتها الاستحالة ، فافرغ صاحب الترجمة الرد عليه فى قالب الترجى ادبا معه وقال : لعل علة طهارة الحيوان الحياة لا الاستحالة ، فكل حيوان ولو خنزيرا او تولد من العذرة هو طاهر لعلة

الحياة، واضاف الى ذلك قوله : ان النطفة فى اول اطوارها تستحيل الى علقة ، ولم يقل احد بطهارتها ، بل نجاستها متفق عليها لانها دم مجتمع ، فلو كانت العلة فى طهارة العين النجسة هى الاستحالة الى مادة اخرى لحكمنا بطهارة العلقة بعد انفصالها ، لان العلة تجيب الحكم ، ويلزم اطرادها بحيث اذا وجدت وجد الحكم ، ولذا يقال الحكم يدور مع علته وجودا وعدما ، فالحكم بنجسة العلقة بالاجماع يلزم عليه وجود العلة ، وهى الاستحالة دون معلولها ، وهو الطهارة واللازم باطل، واذا بطل اللازم بطل الملزوم فلم يبق الأ ان نقول ان التطور والاستحالة وتسمية العين النجسة باسم طارىء على التسمية الاصلية، لا يصلح واحد منها او جميعها ان يكون علة للطهارة ... الا ترى ان الخمر اذا تحجرت صارت طاهرة ، ولكن علة طهارتها ليست هى استحالتها الى الحجرية ، بل علة طهارتها زوال الاسكار ، كما ان علة نجاستها هى وجود الاسكار . وعندئذ قال الشيخ عبد الحليم :

« يا اهل البليدة ، مدينتكم شأنها اقل من ان يدرس بها مثل هذا العالم ...

وهكذا اعترف الشيخ للشيخ بالفضل ، وانما يعرف الفضل من الناس ذووه ، وبالجملة فالشيخ الشعيبى يحمل العلم الصحيح النافع ، تلقاه بالكلية الزيتونية ، وبالجامعة الازهرية . وقد قدمنا انه تلقاه من علماء اكابر ، وجهابذة عظام . وقد اجازوه كلهم بما هو جدير بان يجاز به . اذ كانت اجازتهم له عامة شاملة للمنقول والمعقول والفروع والاصول بأسانيد متصلة مروية عن اثبات وعدول ثقاة خصوصا علوم الحديث وما يتبعها من مصطلح وتعديل وتجريح وتاريخ وتراجم اهل هذا الشأن . رحمه الله وجعل الفردوس مثواة ، واسكنه دار الرضى والرضوان . كان هذا الاستاذ الاكبر يقرا كما قدمنا التفسير بالبليدة فى شهر رمضان من كل سنة ، يبتدىء حيث انتهى . ولما بلغ سورة **الكهف** توفى فطلب اهل البليدة من تلميذه الشيخ الكندوز المار ذكره ان يخلفه فى قراءة التفسير ليالى رمضان حسبما اعتاد الشيخ من كل عام ، فأجاب طلبهم ، وابتدا التفسير من سورة **الكهف** حتى تمم النصف الثانى من القرآن الكريم ، فكان امر الشيخ وتلميذه اشبه بأمر الجلال المحلى ، وتلميذه الجلال السيوطى ، حيث فسر المحلى نصف القرآن وادركته المنية . وفسر السيوطى النصف على نحو اسلوب المحلى فكنا نعد ذلك من حسن الصدفة وعجيب الاتفاق . رحم الله الجميع ، واسكننا معهم دار السلام بسلام . ثم بعدما اقمت بمدرسة الشعيبى

مدة وصححت عليه معلوماتى السابقة ، وتلقيت منه ما كنت اتمنى الوصول اليه والحصول عليه اجازنى اجازة عامة كتبها بخط يده الكريمة . وهذا نصها بالحرف :

**« بسم الله الرحمن الرحيم .**

**الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين .**

**اما بعد ، فيقول العبد الفقير الى مولاه ، الغنى القدير ، المولود بن على بن المولود بن محمد بن الحسين بن معمر بن البسكرى بن ابى شعيب ، قد التمس منا الفقيه العالم الاديب ، والفاضل النجيب ، السيد الطيب بن المولود العربى المهاجى التبرك بالاجازة بعد اقامته لدينا للتعلم والاستفادة والآن اراد التصدر للتعليم والافادة ، ففيما اقترحه منا ناجزناه ، وفيما تلقاه منا اجزناه كما هو ايضا مجاز منا بما اجازنا به مشايخنا رحمهم الله تعالى راجيا من الله سبحانه حصول بركتهم لى وله موصيا له بتقوى الله العظيم وان يسلك فى اموره المنهج القويم ، وان يلازم راجح المذهب فى الافتاء والتعليم ، والا ينسانا من صالح الدعوات فى الخلوات والجلوات ، وفى مجامع الخير وادبار الصلوات . وفق الله اخانا هذا لصالح الاعمال ، وبلغنا واياه منتهى الآمال ، وصلى الله على سيدنا محمد الصادق الامين وآله وصحابته اجمعين ، والحمد لله رب العالمين ».** انتهى

وكتب بهامش اجازة الشعيبى شيخنا الشيخ محمد الكندوز ما لفظه :

**« الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ، فيقول العبد لله تعالى محمد الكندوز بن سالم ، لما اجاز استاذنا العلامة الشيخ المولود الشعيبى الفقيه السيد الطيب بن الفريح المهاجى ، طلب منى وضع خطى ايضا ، فامتثلت ذلك لما شاهدته فيه من كمال الاهلية للتدريس والتحقيق للمسائل والتاسيس . والحمد لله رب العالمين»** . انتهى .

- توفى الشيخ الشعيبى سنة اربعين وثلاثمائة والف من هجرة من له اكمل الشرف ، وكانت وفاته ثامن ذى الحجة ، ودفن بمدرسته يوم عرفة، رحم الله تلك النفس الزكية الطاهرة الصفية ، ومن جملة الذين حضرت

دروسهم اياما قلائل : الشيخ الوقور سيدى الحبيب بن البخارى المدرس بجامع الاتراك بوهران ، ويتصل نسبه بصاحب الضريح المشهور بالقلعة الشيخ سيدى عبد القادر بن يسعد ، كما حضرت دروسا عمومية ليلية على الشيخ ابن القاسم بن الطيب المعروف بابن كأبو وقرات مختصر الكافى فى العروض على الشيخ احمد المصرى الزمورى وعلى الشيخ محمد التواتى التونسى مبادىء الحساب ووهبنى شرح الغمرى على متن الشبيبى فى علم المواريث والفرائض المذيل بكتابة احد اجداد الواهب وكتب بهامش الشرح ما يلى :

**« الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله واصحابه ومن والاه وبعد ، فانى وهبت هذا الشرح المبارك الجليل الى اخينا ومحبنا فى الله العالم العلامة الحبر الفهامة الشيخ سيدى الطيب المهاجى ادام الله حياته وعمر بافعال البر زمانه واوقاته . حرره خديم العلم والعلماء محمد الشريف التواتى اخذ الله بيده ، وكان له فى يومه وغده .**
انتهى .

كان هذا الشيخ قدم من تونس ودرس بمدينة تموشنت مدة بطلب من بعض فضلائها ، ثم جاء الى وهران فمكث بمدرستنا نحو الشهر ، وقد قابلناه بما يستحق من التعظيم والتكريم . وفى اثناء هذه المدة قرات عليه مبادىء الحساب كما ذكرنا ، وكان يحضر درسنا الليلى فى التفسير الى ان سافر ، كما كان يحضر أحيانا درسنا فى الفقه ، او فى غيره من الفنون نهارا وكنت ذات يوم اثناء درس الالفية ناولته شرح ابن عقيل وقلت له ، اقرا هذا البيت ليتبرك بكم الطلبة ، فطاوعنى ، وقرا قول الناظم :

**« للانتهـا حتـى ولام والى**
**ومـن وبـاء يـفـهـمـان بـدلا »**

مقرر المتن والشرح تقريرا حسنا وبين معنى البيت الذى استشهد به ابن عقيل وهو قول الشاعر :

**« ليـت لى بـهـم قـومـا اذا ركـبـوا**
**شنـوا الاغـارة فـرسانا وركـبـانـا »**

وقال محل الشاهد هو قول الشاعر لى بهم قوما اى بدلهم فقال له

قائل من المجلس ما وجه نصبك لفظ بدلهم ... فأبدى وجها غير صحيح لم يقبل منه فالتفت الى وقال ابد رايك فقلت ان لفظ بدل منصوب على الظرفية يقال اخذت دينارا بدل درهم ، اى مكانه ، فاستحسن الشيخ التواتى هذا الوجه وقال ، الحقيقة بنت البحث ، ثم بعد مدة من مفارقته ايانا سافرت الى تونس فألفيته فى دكان يتعاطى مهنة التوثيق فرحب بى واحسن فى مقابلتى ودلنى على شراء بعض الكتب ، ومن اشياخى المجيزين لى حافظ المغرب ، الشيخ ابو شعيب الدكالى حضرت عليه دروسا فى التفسير والحديث ، واجازنى اجازة عامة كتبها بيده بهامش نسخة من ثبت الشيخ الامير مخطوطة هى محفوظة بخزانتى، واحال اسانيده كلها على هذا الثبت. وهذا نص اجازته بالحرف :

**الحمد لله الذى نضر وجوه اهل الحديث وحسن ذكرهم فى القديم والحديث ، وصحح عقائدهم ، ورفع قدرهم ، والصلاة والسلام على القائل بلغوا عنى ولو آية وعلى آله واصحابه نجوم الهدى وائمة الدين . اما بعد، فقد استجازنى اخونا وحبيبنا العلامة النقاد سيدى الطيب بن ابراهيم المهاجى فأجزته بعد مذكرات نفيسة ودروس فى الصحيح ، كما اجازنى مشايخ جلة منهم العلامة سيدى سليم البشرى والشيخ احمد الرفاعى ، والشيخ محمد الطموني ، والشيخ على الصالجى عن الشيخ منة الله عن العلامة الامير . الى آخر ما ذكر من اسانيده ، واجازتى هذه عامة فى كل معقول ومنقول ، وفروع واصول ، اصلحنا الله واياه وهدانا ، وهدى بنا والله المستعان . فى ثلاثة عشر من شوال سنة اثنين واربعين وثلاثمائة والف ، خادم السنة ابو شعيب الدكالى وفقه الله .** انتهى .

كان هذا العالم الواسع الرواية ، الكثير الحفظ يترجم عن نفسه ويحدث بما سنذكره على لسانه فيما بعد ، قال حفظت القرآن وكثيرا من المنثور والمنظوم قبل المراهقة كتحفة ابن عاصم والفية ابن مالك والشاطبية ومختصر خليل . وكنت اتقاضى جائزة سنوية رتبها السلطان مولاى الحسن رحمه الله لمن يحفظ متن الشيخ خليل رحمه الله ، وبلغت محفوظاتى المنظومة فيما بعد ستة عشر الف بيت . وقد حضرت بالمغرب على اكابر العلماء فى علوم مختلفة ، وبعدما اجازونى ، سافرت الى مصر والتحقت بالازهر الشريف ، وبه اذ ذاك من مشاهير الجهابذة ، الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر ، والشيخ محمد عبده واضرابهما ، فقرات من العلوم

الراقية ما فاتنى حضوره بالمغرب واتفق ان صادفت بمصر حافظ اللـغة الشيخ محمود الشنكيطى فقرات عليه فى الادب الكامل للمبرد ، وكان يحضر درسه هذا كثير من مشايخ الازهر ، وقد دعى ذآت ليلة الى مأدبة اقـامها تكريما له بعض من يحضر درسه فصحبته بطلب منه وحانت صلاة المغرب فقدمنى للامامة ، فقرات سورة **الم نشرح** ثم قدم لنا مأدبة العشاء ، وكان عليها جماعة من علماء الازهر فقال لهم الشيخ الشنكيطى ، وكان معه نوع حدة : ما تقولون فى قول الله تعالى **ان مع العسر يسرا** ، والعسر واليسر لا يصطحبان ، بل يتعاقبان ومع تقتضى المصاحبة ... فسكتـوا ، وعنـدئـذ التفت الى وقال : ما تقول انت يا مغربى .. فقلت يا سيدى مع هنا للقرب، وتكون للحضور ايضا ذكر ذلك صاحب همع اللوامع ، ومثل للحضور بقوله تعالى **ومن معى او رحمنا** وللقرب بهذه الآية فلعل المعنى والله اعلم قرب العسر يأتى اليسر، فقال الشيخ ، اما انت يا مغربى فلا بأس بك ، واما انتم يا اهل الازهر انتسابكم للعلم خلاف الواقع او كلمة مثلهـا فضحك الجماعة وقالوا : يا سيدنا الشيخ قل ما شئت فاننا نغتفر لك كل شىء ما دمنا نغترف من بحار علومك .

وهكذا نجد علماء مصر فى القديم والحديث يرحبون بكل من يحل بين ظهرانهم وتتسع صدورهم للاخذ عنه مهمـا كان اهلا للتلقى منه ويغفرون له من اجل انتفاعهم بعلمه الصحيح كل جفوة وغلظ طبع وحدة ثم ان الشريف عون امير مكة التمس من شيخ الازهر وهيأة كبار العلماء ان يختاروا له من طلبة الازهر من يقوم بدراسة الحديث الشريف بالمسجد الحرام ، فوقـع اختيارهم على، وبعثونى الى مكة بعدما اوقفوا الشريف عون على مكانتى العلمية ، وترجيحهم اياى على غيرى ، ولما استقر مقامى بمكة تصديـت لقراءة الحديث صباحا ومساء نحو الاثنى عشر عاما ، وكان يحضر دروسى اهل مكة والافاقيون خصوصا فى موسم الحج ، وكنت اجلس للدرس قبالة الكعبة المشرفة ، فتلقى على اسئلة كثيرة ، وربما توقفت فى الجواب فيجيب بعض العلماء الحاضرين فأشكر له عاطفته وصفاء طويته ، واكثر من يحضر درسى ايام الموسم علماء الهند ، وقد اجزت الكثير منهم ، وكنت فى اوقات مخصوصة اصب مـاء زمزم فى الحجر الذى به اثر قدمى ابراهيم عليـه السلام ثم اشرب ذلك الماء ، وقد وجدت له منافـع محسوسة وبركـات ملموسة ، وكان ارباب المذاهب يستشكلون مسائل فى مذهبنـا ، فكنت اقنعهم بما يزول معه الاشكال من التوجيهات، واحيانا اتوقف واعجز عن حل ما استشكلوه ، وكثيرا ما ارى الامام مالكا فى المنام فيشير على بـمـا يلهمنى حل الاشكال ولما حج سلطان المغرب مولاى الحفيظ نتلنى معه الى

المغرب ، وقد تركت بمكة كمية كبيرة من الكتب تحت يد امير مكة ولولا هذه الكتب ما سمح لى بمفارقة الحرم المكى وغلب على ظنه ان حبس الكتب وحجزها يحملنى على الرجوع الى الاقامة بمكة ، ومن بين تلك الكتب تأليف لى استشهدت فيه لمسائل مختصر خليل مسألة مسألة بحديث او حديثين من الموطأ او الصحاح الستة ، ولما استقر مقامى بعاصمة المغرب جوار السلطان اشتغلت بقراءة الحديث فختمت الصحيحين والسنن الاربع ، فكان السلطان مولاى الحفيظ لا يتخلف عن حضور درسى ، ويلزم علماء العاصمة الحضور معه . هذا بعض ما سمعناه من الشيخ ابى شعيب وتحدث به فى عدة مجالس فأثبته هنا حاكيا له على لسانه بمناسبة ذكره فى عدد المجيزين لى حسبما تقدم ، وكان رحمه الله فى عام اثنين واربعين من هذا القرن الرابع عشر ، مر فى طريقه الى تونس بوهران ونزل ضيفا على التجار المغاربة ، فكنت اتردد عليه حتى فارق وهران . ولما وصل الى تونس نشرت الجرائد اذ ذاك انه قرا بجامع الزيتونة درسا فى التفسير ، ففسر القرآن الكريم بالحديث النبوى وقرا درسا فى الحديث فشرحه بالقرآن العظيم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب توفى عام الف وثلاثمائة وستة وخمسين ، ومن المجيزين لى محدث المغرب ، بل والمشرق ، حامل لواء السنة رواية ودراية الشيخ عبد الحى الكتانى الفاسى ، سمعت منه اول الموطأ واوائل الصحاح الستة والشمائل للترميذى ، والشفا لعياض وناولنى كراسة بها اسانيد الصحاح الستة ، وكتب على ظهرها ما نصه : قد سمع منى الاخ فى الله حضرة العالم النحرير المدرس سيدى الطيب المهاجى نفعه الله ونفع به آمين اول الموطأ واوائل الصحاح الست والشمائل والشفا فأجزته بذلك وبجميع مالى من مرويات ومقروءات ومسموعات ومجازات اجازة مطلقة عامة وبخصوص هذا الفهرس قاله وكتبه محمد عبد الحى الكتانى الفاسى عشرة من ذى القعدة عام الف وثلاثمائة وتسعة وثلاثين . انتهى .

وفضل الشيخ عبد الحى معروف ، ومكانته العلمية مشهورة تغنى عن التعريف به وعن التنويه بشأنه . رحل رحلات متعددة الى جهات مختلفة ، وطاف على كثير من العواصم كالحرمين الشريفين ، والقاهرة ودمشق والاستانة وبغداد ودهلى ويقرا الدروس الراقية فى كل عاصمة حل بها وبالجملة . فالشيخ عبد الحى من اكابر علماء عصره ، كما يبرهن على ذلك مؤلفاته الناطقة باتساع دائرة معارفه فى شتى العلوم خصوصا فى علوم الحديث ، فقد حاز فيها قصب السبق تصحيحا وتحسينا وتضعيفا

وترجيحا مع معرفة رجال هذا الشأن وطبقاتهم وتاريخ ولادتهم ووفياتهم ، ومع الاطلاع الواسع على كتب التعديل والتجريح وما تضمنته من الالفاظ المصطلح عليها فيقبول الراوى اقلها لا بأس به ، وهذه حقائق واقعية ليس فى استطاعة احد انكارها ، فمن الانصاف والاعتراف بالفضل لذويه ان نحكى ما لهذا الرجل من مواهب ومعارف وما اجتمع له من شرف العلم وشرف النسب ، وما اوتيه من الجاه وعلو القدر ورفع المنزلة ، ومتى كان ذلك امرا واقعا ومسلما لا يتنازع فيه اثنان ، فلا لوم يتوجه الينا فى حكايته من حيث الناحية العلمية . والله تعالى يتولى السرائر ، وهو الذى يعلم المفسد من المصلح ، ومن المجيزين لى صاحب التآليف العديدة والمصنفات المفيدة ابو العباس الشيخ احمد البلغيثى العلوى ثم الفاسى ، كان قد مر فى طريقه الى تونس بوهران ومكث فيها اياما تقام له فيها المأدبات الفاخرة ، وكنت ادعى للحضور معه واسمع مما يلقى من الدروس العمومية ، ثم استدعيته لمنزلى وانفردت به اوقاتا اسمعنى فى اثنائها ابوابا من اوائل صحيح البخارى وتحدثنا كثيرا وتعرضنا فى هذه المحادثة للبحث فى مسائل هامة يلقى على ما يريد القاءه ، فاجيبه والقى عليه ما استشكله ، فيجيبنى ، واخيرا قال لى يا فلان انشدنى من شعرك فقدمت لفضيلته ابياتا من كامل الرجز ، كنت ضمنتها طلب الاجازة من حضرته وهى هذه نوردها كلها هنا لان المقام مقامها ، ومقتضى الحال يستدعيها :

| | |
|---|---|
| يا سيدى فضلكم قد اشتهر | وعلمكم فى العصر شاع وانتشر |
| ونفعكم قد عم كل قطر | وعم كل بلد ومصر |
| وصيتكم قد بلغ السماء | فعطر الانحاء والارجاء |
| وطاب عصرنا بطيبكم فقد | جددتم الدين لنا فلنستمد |
| لذا بكم قد نيطت الامانى | وقوى الرجا لكل عان |
| واننى جئت اريد وصلا | بصلة لم تبق نكرا اصلا |
| عائدها على منكم يتصل | بعامل يرفعنى على المحل |
| وباضافتى اليكم تنعزل | نكرتى عن كل ابهام مخل |
| فاكرموا وفادتى يا سيدى | بأن تجيزوا لى باعلى سند |
| وبالذى يعزى من الاثبات | الى اجل العلما الثقات |
| كالاربعين ثبتا اذ جمعت | جل اسانيد العلوم وحوت |
| وبالخصوص ثبت الامير | فقد حوى الاكثر من كثير |
| وحاز شهرة بوصل متصل | ورفع مرفوع الى حيث يصل |

ووقف موقوف ونكر مرسل ... بما به الابهام عنه ينجلى
بل كل ذى الاثبات ايضا قد اتت ... صحيحة النقل باسناد ثبت
لكن اذنكم لنا لا يقتصر ... على الذى ذكرته فينحصر
بل انه يعم كل اصل ... وكل فرع ثابت بالنقل
وكل معقول به الشرع سمح ... فما ابيح افعل ودع ما لم يبح
وليندرج فى الاذن ما لكم نسب ... من نظم او نثر لديكم انتخب
هذا وارجو ان اكون حائزا ... اجازة بها اصير فائزا
لانها عن كل قيد اطلقت ... ومن مناف لعمومها خلت
والله ذو الفضل العظيم المنه ... يبقيكم دوما حماة السنة

ولما قراها والفاها تتضمن طلب اجازة تشتمل على ما اشرت اليه من اثبات واسانيد اجازنى نظما اجازة تامة طبق ما اردت وفوق ما سألت حيث قال رحمه الله رحمة واسعة ، ورفعه مكانا عليا واسكنه فراديس الجنان :

يايها الحبر الجليل العالى ... الطيب الاحوال والافعال
قد جئتنى ترغب فى اجازة ... تسلك للعلم بها مجازه
ظنا بانى من كبار العلما ... وانني رقيت منه سلما
مع اننى دون الذى ظننت بى ... ودون ما منى اتيت تجتبى
لكن زمان قل فيه العلم ... وصار فى علمى يقال علم
لهو زمان مؤذن بالساعة ... حيث جلا من جهله اتساعه
لكن لظنك الجميل فينا ... وستر ربى عيبى الدفينا
اقول فى حالة خوف ووجل ... مستمنحا من ربنا عز وجل
اجزتكم بكل ما منى وصل ... قبل لكم او بعد عندكم حصل
من علمى المنقول والمعقول ... وكل ما عرفت من مقولى
كما به اجازنى اعلام ... امدهم بعلمه العلام
شرقا وغربا لست احصى ذكرهم ... لضيق نظمى لا اوفى قدرهم
كم سند متصل بالمصطفى ... رويته عنهم فصرت مصطفى
مع الاحالة على الاثبات ... لكل قدوة اخى ثبات
كثبت الامير وهو اشهر ... ثبت حبر فى الزمان يظهر
فاقبل رعاك الله منى ما سنح ... فضعف حالى يقتضى ضعف المنح

**لسفـر ومـرض قـد عرضا** — **لم يسمحا لى ان اتم الفرضا**
**ومع بعـد كتبى ببلـدى** — **وشدة الـوقت اضلت خلدى**
**هذا ولا تنـس اخاك لافقـد** — **ايخاك من دعـاء خيـر ينتقد**
**يزيله عـن قلبـه كـل رين** — **يسعـده سعـادة الـدارين**
**فـدعوة الاخ بظهر الغيـب** — **ليست تـرد من عليم الغيـب**
**كما اتى عـن الرسول الخاتم** — **المصطفى خيـر الانام الخاتم**
**كتبـه العبـد الفقيـر احمد** — **وهـو لـربه دوامـا يحمـد**
**الحسنـى العلـوى البلغيثى** — **المرتجـى لـربـه المغيـث**
**كـان له اللـه بكـل حـال** — **وقـاه ربـه مـن الاوحـال**
**بجـاه ازكـى مرسـل محمد** — **من عـز فى كـل مقـام احمد**
**صلى عـليـه ربـنـا والآل** — **والصحـب فى البدء وفى المآل**

ثم اهدى لى بعض مؤلفاته ، فتصفحت منهـا بحضرته منظومته المسماة بالنحلة فى رحلته الحجازية ، فوقع بصرى على بيت من ابيات يصف فيها مركبا رجـع على ظهره من المشرق الى الدار البيضـاء بالمغرب، يقول فى هذا البيـت :

**من بعد يومين قصدنا البيضا** — **فى مـركب فـاق وفاز ايضا**

ويقـول فيما بعده :

**فنعـم شكله وبئـس اهلـه** — **والدهـر صعبـه يليه سهله**

فقلت له يا سيدى ، لعل فاعل نعم وبئس ، وما جرى مجراهما لا يأتى فى كلام العرب الا مقترونا بأل او مضافا لما فيه او ضميرا يفسره مميز وفاعل نعم وبئس فى البيت ليس واحدا من الثلاثة ، بـل هو مضاف الى ضمير يعود على نكرة وهى لفظة مركب . فأطرق مليا ثم قال : لم يحضرنى الجواب الآن فقلت له الصحيح عندهم ان فاعل نعم وبئس لا يضاف الى الضمير ، ولو عائدا على ما فيه ال وقول الشـاعر :

**فنعم الهيجا ونعم شبابها شاذ** — **لا يقاس عليه ولو جوزناالقياس**

عليه ما صح هنا لان الضمير فى بيت الشاعر يعود على ما فيه ال ، وهو الهيجا ، وفى بيتكم يعود على نكرة محضة ، وهى لفظة مركب ، وقد وقفنـا عند هذا الحد وقلنا ما كل داء يعالج . ولكن فضل الشيخ البلغيثى معروف

وتقدمه فى العلم لا يجهل. وبعد هذا جرى البحث بينى وبينه فى اختلاف الائمة وترجيح بعض المذاهب على بعض من حيث قوة الادلة وضعفها باعتبار مداركها ومساندها ، فقلت له ان ابا حنيفة رحمه الله يرى عدم حد الزانى بالحربية فى دار الحرب الا ان يكون فى جيش امير من امراء الامصار . وقلت لعل الامام ابا حنيفة يرى ان الاستمتاع بها بعد الاستيلاء عليها وقت تمكينها من نفسها طائعة صيرها كحربية ذات مغنم حيزت ، فكان ذلك عند ابى حنيفة شبهة تدرا الحد عن الزانى ، والحدود تدرا بالشبهات ، كما فى الحديث النبوى . فاستحسن الشيخ البلغيثى راى ابى حنيفة ، وقال ، هذا هو الاوفق بالتخفيف ورفع الحرج فى الدين ثم بعد ايام من مفارقته وهران كتب الى من تونس بما لفظه : ما ذكرتم من ان ابا حنيفة يرى جواز الزنى بالحربية لم نقف عليه فيما طالعناه من الكتب التى هى ضمان التعرض للمسألة بل ولا من غيرها ، وانا نرجوكم ان ترشدونا الى الكتاب الذى وقفتم فيه على نسبة ذلك لابى حنيفة، فهالنى الامر واستعظمته ، وكتبت اليه على الفور : يا سيدى ما قلت هذا ولا اقوله ولا اعتقد أن مسلما مهما ضعف ايمانه وخفت مكانة الدين من قلبه ينسبه حتى الى رجل عادى ، وانما قلت لفضيلتكم ان ابا حنيفة يرى نفى الحد عن الزانى بالحربية بالشرط السابق . وغير خلف على سيادتكم الفرق بين نفى الحد عن الزانى بالحربية وجواز الزنى بها ، وليس فى المسألة الا نفى الحد وهو راى ابى حنيفة ووجوب الحد وهو راى الجمهور . واما جواز الزنى بالحربية كما توهمتم انكم سمعتموه منى فلا قائل به لا من المجتهدين ولا من مقلديهم ، وهو الذى تعلمونه انتم ويعلمه علماء الامصار. وحرمة الزنى على الاطلاق حكم معلوم من الدين حتى عند عوام المسلمين . فلا ينبغى ان يتوقف فيه ، وها انا احيل فضيلتكم على شرح الباجى للموطأ المعروف بالمنتقى ، فانكم تجدون فيه ما هو المنسوب الى ابى حنيفة رضى الله عنه حسبما ذكرت لكم ، ولما بلغه كلامى هذا كتب الى معتذرا يطلب المسامحة ويقول بعد ان حلانى بأجمل ثناء :

**« لست استحقه ولا انا من اهله وقفنا على كلام الباجى فالفيناه كما ذكرتم ...»**

ثم دامت المراسلة بينى وبينه الى ان توفى سنة ثمان واربعين وثلاثمائة والف ، رحمه الله وتقبل منه صالح عمله ، ومن المجيزين لى فضيلة الشيخ شعيب الجليلى قاضى الجماعة بتلمسان ، حضرت مرارا دروسه العمومية التى كان يلقيها بالمسجد المجاور لدار سكناه ، وقد اجازنى نظما فى ابيات بعث بها الى مطلعها :

**الى بنيى الاطيب المهاجى      من علمه فى النفع كالثجاج**

كما بعث الى عدة نسخ من منظومته فى التوحيد ، والتمس منى بالحاح اقراءها لطلبتى بشرحها للشيخ محمد بن عبد الرحمن ، صاحب توهين القول المتين ، ومن المجيزين لى العلامة المفضال الاديب الشيخ القاضى سيدى احمد بن حسن المختارى ، احد اعيان قرابة الامير عبد القادر رحمه الله ، واحد الاعلام الافذاذ بحاضرة معسكر ، اجازنى بما احتوى عليه ثبت الشيخ الامير المصرى من الفنون والاسانيد ،كما اجيز هو بما حواه من علماء زاوية الهامل ، وبعدما اجازنى اهدى الى نسخة من هذا الثبت هى بخزانتى كما ذكرت سابقا . كان فضيلته رقيق الطبع خفيف الروح ، شغوفا بالادب وبمجالسة الادباء ، ينقبض ان لم يجد فى المجلس من يجاذبه اطراف الحديث ، ويمد يده معه الى اقتطاف ازهار رياض الادب، وكان كثيرا ما يتمثل بقول ابن النحوى :

**اصبحت فيمن لهم دين بلا ادب      ومن له ادب عار من الدين**
**اصبحت فيهم غريب الشكل منفردا      كبيت حسان فى ديوان سحنون**

اراد بديوان سحنون المدونة التى هى كتاب واسع جمع فيه سحنون اكثر مسائل مذهب مالك ، ولم يوجد فيه مع سعته سوى بيت واحد من الشعر ذكره سحنون فى باب الجهاد من المدونة ، وهذا البيت كما فى البخارى ينسب الى حسان بن ثابت الصحابى رضى الله عنه وهو قوله :

**وهان على سراة بنى لوى      حريق بالبويرة مستطير**

ثم بعد ايام قلائل من التحاق فضيلته بمنصب القضاء بوهران ، استدعيته برسالة للحضور فى حفلة اقمناها لبعض المناسبات فتخلف عن الحضور ثم اجتمعت به فيما بعد فقال ما منعنى من تلبية دعوتكم الا كونكم حذفتم من امضائكم ياء النسب اى الياء من المهاجى ، وهى كياء الكرسى لا تحذف فأجبته بقولى من الغريب ان يكون سقوط حرف واحد من الرسالة مسقطا لتلبية دعوة اجابتها خير من الف حرف، فأجابنى بقوله ان الخيرية شيء واللحن شيء آخر، فألفت نظره الى ان ياء النسب ربما خففت ثم حذفت ونون ما حذفت منه، ويعطى حكم المنقوص من حذف يائه لالتقاء الساكنين، وقد قالوا فى يمان اصله يمانى، فأبدلت احدى اليائين الفا، وبقيت الاخرى ساكنة ثم اعل اعلال قاض ومثله ثمان فقال فضيلته : نحن نوافق على حذف

المخففة، ولكن لا نوافق على حذف المشددة، فقلت له حذفها من امضائى سبق قلم فقال : لا بل هو لحن ، فأجبته بالقول الشائع النحو صنعتها واللحن عادتنا فاجاب : لولا ان النحو صنعتك ما لحنتك ، وهو وقتئذ لم يعرفنى المعرفة التامة ، فكانت تلك المحاورة من دواعى تقوية رابطة الصداقة بينى وبينه، استدعانى مرة الى منزله فألفيت بيده مجموع المتون ، فقال لى : كم متنــا قرات من هذا المجموع .. فقلت له كل الصيد فى جوف الفرا ، وكان زائد الذكاء ، قوى الادراك للمعانى ، فقال : لعلك قرات الاهم مــن الجمــوع فأغناك عن المهم .. قلت هو ذاك ، ثم حضرت المائدة وعليها الوان من الفاكهة وانواع من الاطعمة غير الفاكهة فأنشد فضيلته ابياتا للشيخ عــلى الاجهورى ، يذكر فيها ما يقدم من الفاكهة وما يؤخــر فى الآكــل ، فأنجر الحديث الى ترجمة الاجهورى فتوقفنا فى تاريخ وفاته ، ففتح الخزانة خلفه واخرج لنا خلاصة الاثر فى علماء القرن الحادى عشر ، الذين كان الشيخ على الاجهورى من جملتهم ، وكلفنى سرد الترجمة التى ترجمها صاحب خلاصة الاثر للشيخ الاجهورى ، وفيها كان يحضر لمجلسه كذا كذا من الطلبة فقرات لفظة يحضر بكسر الضاد ، فلم يبلعنى الشيخ القاضى المختارى ريقى وقال على الفور : يحضر بضم الضاد لا بكسرها فقلت : لا داعى لوجــوب الضم كما لا داعى لوجوب الكسر او الفتح ، والقاعدة الصرفية ان المضارع من الثلاثى اذا خلا من جالب الضم وما معه جاز فى عينه الضم والكسر على السواء ما لم يشتهر عن العرب احدهما . فأجاب فضيلته بأن يحضر ممــا اشتهر بالضم ، فقلت له ما المانع من ان نقول انه اشتهر بالكسر او على الاقل ان نقول بجواز الوجهين الضم والكسر . وكان رحمه اللــه يحب المحاورة ، ويرغب فى توسيع المجال للمناظرة ليقف على ما عند مناظره من معرفة الادلة ومن المقدرة على كيفية الاستدلال بها ، ولهذا بعدما وصلنا الى هذا الحد من المراجعة قال العرب بالباب واحضر المصباح ونظر فى حرفى الحاء والضاد وما يثلثهما ، فاذا المصباح يقول حضر حضورامن باب قعد وحضر فلان بالكسر لغة ، ولكنهم اتفقوا على ضم المضارع مطلقا وقياس كسر الماضى ان يفتح المضارع ، لكن استعمل المضموم مع كسر الماضى شذوذا ويسمى تداخل اللغتين . انتهى كلام المصباح . وعندئذ قال فضيلته على سبيل المداعبة كما هى عادته انتصرت ورب الكعبة وانشد :

**وابن اللبون اذا مالــز فى قــرن لم يستطع صولة البزل القناعيس**

فأجبته : يسرنى يا سيدى ان تكون المــنتصر . ثم داعــبته بهذه الابيات التى ارتجلتها ، والتى حضرتنى اذ ذاك :

**لان كان ضم الضاد من فعل يحضر … يعد بمذهب الاديـب مـن النصر**
**فانا نـضم عيـن كـل مضارع … بـلا جالب للضم او مانع الكسر**
**وكنـا بذا قـد اكتسبنا مـدائح … وحزنا انتصارا جاء عفوا بلا عسر**
**فما هو الا ان نطقـنا بيفـعـل … وجئـنـا به كما نريد بلا حجر**

فاستحسنها واعجبته وطرب لها طربا حيث وافقت مشربه الادبى والفكاهى ، وكان دابه وعادته الدعابة والفكاهـة والظرافـة المصحوبة بالحشمة والوقار ، ثم بعد ان وقف على ما عندى من المعلومات بـواسطة اختبارات منه الى تكررت فى كثير من المجالس ، صار يتودد الى ويرغـب فى محادثتى ، وكان مجبولا على محبة اهل العلم ، خصوصا مـن كان منهم على مشربه الادبى ولم يزل يزورنى وازوره الى ان انتقل من وهران . ثم استمرت المراسلة بيننا الى ان التحق بأسلافه فى دار المقامة سنة اربـع واربعين ثلاثمائة والف هجرية . رحمه الله . ومن المجيزين لى محـدث الشام بدار الحديث النبوى الشريف بدمشق الشيخ محمد بدر الدين توسط لى بعض فضلاء الجزائر فى طلب الاجازة منه عندما زار دمشق فأجازنى بما نـصـه :

**« بسم الله الرحمن الرحيم …**

**نحمدك اللهم على متواتر آلائك ونشكرك على مسلسل نعـمائك ونسالك متصل الصوات والتسليمات على المرفوع من بين المخلوقات وعلى آله المشهورة اخبارهم واصحابه المستفيضة آثارهم . اما بعد ،**

**فان الاسناد من الدين والآخذ به متمسك بالحبل المتين ، فمن ثم عكف اهل العلم عليه وتوجهت مطايا هممهم اليه ، ولما كان منهم مولانا الشيخ محمد الطيب المهاجى وفقه الله تعالى لارشاد العباد ، وسهل لنا وله طرق السداد آمين التى هى امان عند اقتحام المفازة ولست اهلا ان استجاز وهل يقال بهذا الجواز الا انه حسن فى ظنه اثابه الله تعالى علـى قصده الجنة فاجزته بالمعقول والمنقول من فروع واصول والاحاديث الشريفة والآثار المنيفة التى اشتملت عليها الجوامع والمسانيد ذات الانوار اللوامع ، كمـا اجازنى بذلك فضلاء العصر وجهابذة مصر منهم بحر الفضلاء ومغترف الفحول والنبلاء افضل من عنه يتلقى الشيخ ابراهيم السقا عن الامام المهذب العلامة الشيخ ثعليب عن العلامة الشهاب الملوى ذى النور فى الديجور عن الامام**

**الشيخ عبد الله ابن سالم البصرى صاحب الثبت المشهور ، وعن العلامة الشيخ محمد الامير عن والده الشيخ الكبير ، وقد حوى ثبته الاسانيد بما لا يحتاج الى مزيد وهنا سرد المجيز اسماء الاشياخ الذين بينه وبين البخارى ومسلم من الرواة حذفناها اختصارا . ثم كتب بعد واوصى حضرة الاستاذ المجاز نظر الله تعالى بعين العناية اليه بمجاهدة النفس وتفريغ القلب من الاغيار، وتطهيره من بسفاسف هذه الدار وبملازمة الاذكار المأثورة والادعية المشهورة والاكثار من الصلاة على خير الانام ، مع المشاهدة المعنوية المنتجة للمجالسة الحسية . والمرجو من الشيخ المذكور ضاعف الله تعالى لناوله الاجور الا ينسانى من دعوة صالحة ، جعل الله تجارة الجميع رابحة وامدنا بالمدد الاسنى وختم لنا بالحسنى العبد الفقير اليه تعالى . محمد بدر الدين عفى عنه آمين . دار الحديث النبوى الشريف ، دمشق الشام ..**

وبعد هذا فشهرة هذا العالم الجليل الشيخ بدر الدين وانتشار ذكره فى الآفاق يغنى عن التعريف به ، وبقى من المجيزين لى جماعة قابلتهم بالحرمين الشريفين عام حججت اذكرهم فيما بعد . كنت سنة خمسين وثلاثمائة والف عولت على السفر لاداء فريضة الحج ، فطلبت رخصة السفر التى لا تنال ولا يمكن الحصول عليها الا بعسر بسبب ما تطلبه الحكومة من المفروضات التي فرضها القانون الفرنسي على المسافر والتى هى مجرد عراقل يضعها الاستعمار فى طريق اجتماع المسلم بأخيه فى صعيد واحد ، وبعد صعوبات حصلت على رخصة لا تتعدى مدتها اربعين يوما ذهابا وايابا فى مركب مخصوص مع تعيين موضع الركوب والنزول ككونه مثلا من وهران الى جدة ومن جدة الى وهران ، وزيادة على هذه التضييقات تصحب الحاج عيون من طرف الحكومة تراقب حركاته وسكناته ، وتحصى عليه عدد انفاسه حتى يعود الى المكان الذى ركب منه عند خروجه من منزله . هذه هى التسهيلات التى تمنحها الحكومة الفرنسية حجاج الجزائر ، ثم تنشر على السنة الجرائد ، وبواسطة الخطب المذاعة التى يخطبها اقوام اصطنعتهم الحكومة لنفسها انها تعين المسلمين الجزائريين على اقامة شعائر دينهم ، وتتبجح دائما بأنها تسهر على راحة الحجاج ، وتهيىء لهم المراكب المحتوية على جميع المرافق . وهكذا تلبس الحكومة الفرنسية على من لا يعرف مقاصدها ونواياها السيئة تجاه ابناء الجزائر . فلقد رايت بعين راسى المركب البحرى الذى اقل الحجاج الى جدة ، وقد افرغ من حمولته وهى

كميات من اطنان الحنطة ، ثم غسل بماء البحر ، وبقيت حبوب الحنطة فى شقوق المركب ، كما بقى فى بعض زواياه اثر ارواث البقر والأغنام ، وباقى الدواب التى كان المركب ينقلها من بلد الى بلد ، ولا تسأل عن رداءةالطعام الذى يقدم للركاب والذى اخذ منهم ثمنه مقدما قبل الركوب كاللحم المثلج المتغير الرائحة والطعم ، يعطونه فى الاسبوع مرتين او ثلاثا ، ثم بعد ما تسلمت الرخصة على ما بها من تحديد وتعيين انتظرت قدوم المركب المخصص لنقل الحجاج من ميناء الدار البيضاء وميناء وهران والجزائر وعنابة . وفى السابع عشر من ذى القعدة رسا بوهران فحمل الذين كانوا فى انتظاره من الحجاج وواصل سيره ليلا ، ومن الغد اصبح بميناء الجزائر ثم استأنف السيرالى عنابة فحمل من كان بها ينتظر ، فكان على ظهر المركب نحو الالف والاربع مائة نسمة ثم ابحر من عنابة الى جدة فقطع المسافة البحرية فى ثلاثة عشر يوما بلياليها ، وكان بعض اعيان الحجاج التمس منى ان اقرا مناسك الحج لمن هو راغب فى ان يكون على علم منها ليؤدى على الوجه الاكمل ما هو مطلوب به شرعا ، فلم تسعنى مخالفته ، واجبته لما سأل ، وفعلا صرت اقرأ درسين بالغدو والعشى من كل يوم الى ان نزلنا بجدة . وكان اكثر اهل المركب يحضرون الدرس ، وهم ما بين مرا كشيين وجزائريين وفيهم جماعة من العلماء ما كان احد منهم يلقى سؤالا ولا يبدى ملاحظة فضلا عن ان يعترض او يناقش وهذه المجاملة من كرم شيمهم وكمال ادبهم وسلامة صدورهم نعم كانوا من عرض له منهم اثناء الدرس ما يستحق المراجعة اخره الى فراغ الدرس ثم قابلنى فى محلى الخاص ، وراجعنى فيما بدا له ، ولما قاربنا جدة كان آخر دروسى حديثا من احاديث الترغيب والترهيب للمندرى ، وهو ما رواه ابن المبارك عن سفيان الثورى عن الزبير بن عدى عن انس بن مالك قال وقف النبى صلى الله عليه وسلم بعرفات وقد كادت الشمس ان تؤوب فقال :

**« يا بلال انصت لى الناس فقام بلال فقال انصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانصت الناس فقال :**

**معاشر الناس ، اتانى جبرائيل آنفا فقرانى من ربى السلام وقال ان الله عز وجل غفر لاهل عرفات واهل المشعر وضمن عنهم التبعات ، فقام عمر بن الخطاب وقال يا رسول الله ، هذا لنا خاصة ، قال هذا لكم ولمن اتى من بعدكم الى يوم القيامة ، فقال عمر بن الخطاب، كثر خير الله وطاب»**

ففرح الناس واستبشر الحجاج بهذا الحديث الشريف الذى ازدادوا به رغبة ورهبة واقبالا على هذه العبادة العظيمة التى هى احد اركان الاسلام . وقد التمس منى عالمان من ناحية طنجة ان اجيزهما بهذا الحديث فأجزتهما به وبغيره مما اجازنى به اشياخى رحمهم الله . وكنت اخذت اسمى هذين العالمين مع اسماء غيرهم ممن اجتمعت به فى سفرتى هذه وقيدت سائر ما دار بينهم بحضورى او شاركتهم فيه من أبحاث علمية ، وسؤالات واجوبة فقهية وغير فقهية ، ولكن مع الاسف ضاع منى ديوان تلك الاسماء وعدد من الكتب بعضها سافرت به من منزلى وبعضها جلبته من مكة المكرمة ، وعندما نزلت بميناء عاصمة الجزائر جمعت امتعتى فى حقيبة كبيرة وسعت حتى ما معى من الكتب والتقييدات ونزلت فندقا هناك ووضعت الحقيبة فى ساحته المعدة للاثقال . ومن الغد التمستها فألفيتها سرقت او اخذت غلطا من بعض النازلين معى بالفندق . والذى آحزننى كثيرا وزاد فى اسفى هو ان من بين تلك الكتب مجموعة كراريس جردتها من شروح وحواشى لكتاب الحج استصحبتها لاستعين بها على ما يعرض لى من اشكال او القاء سؤال فيما يتعلق بالمناسك ، فبقيت تلك الشروح والحواشى ناقصة ، وقد اعلنت اذ ذاك على السنة الجرائد انى فقدت حقيبة تحتوى على كذا وكذا من الكتب والملابس . فمن التقطها او اخذها من الفندق غلطا فانى اسأله باسم الامانة التى يجب على كل مسلم ان يتصف بها شرعا وان يراعيها حق رعايتها ان يرد على الكتب واسمح له بغيرها وان تورع وطاوعته نفسه بردها فليبعثها صحبة البريد بهذا العنوان بدون ان اكلفه اجرة البريد كما لا اكلفه ان يذكر اسمه ، ولكن من اخذها حيث غلب النفس والهوى على العقل يراها رزقا ساقه الله اليه ولم يلتفت الى ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بعرفة امام الجماهير فى خطبته المشهورة :

« فلا يحل لمسلم من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن انفسكم »...

وفى اليوم الذى دخلنا عشيته جدة قدم الى جماعة من الحجاج مبلغا من النقود الذهبية وقالوا هذه هدية من اخوانك الذين كانوا يحضرون دروسك التى انتفعوا بها وافادتهم معلومات ترشدهم الى اداء مناسكهم على الوجه المطلوب شرعا وانهم يرغبون فى ان تتقبلها منهم فأبيت ذلك كل الاباء ، واستثقلت الامر حيث انقدح فى ذهنى ان الجماعة كانوا يظنون ان تعليمى اياهم كان لطمع او ابتغاء محمدة ولذا اردت ان انحى ما عسى ان

يكون خطر على بالهم ، او حدثتهم به نفوسهم ، فقمت وسط الحلقة ، وكان ذلك فى الدرس الذى انتهت به دروسى البحرية وخاطبتهم بقولى :

« ايها الاخوان ، قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « **وتزودوا فان خير الزاد التقوى** » قال المفسرون ان سبب نزول هذه الآية ، هو ان ناسا من اهل اليمن يحجون بغير زاد ، ويقولون نحن متوكلون ، ثم يضطرون فيما بعد الى سؤال الناس فيحرجون ، فأمرهم الله تعالى ان يتزودوا ، وقال تزودوا ما تبلغون به فان خير الزاد ما تكفون به وجوهكم عن السؤال ، وانى ايها الاخوان اعددت لهذا السفر عدته ، وهيأت له من الزاد ما يكفينى ذهابا وايابا حتى لا اكون كلا على احد وانكم قاصدون الحرمين الشريفين وبهما اقوام هم فى اشد الحاجة واضيق المعيشة واكثرهم يتعففون لا يسألون الناس الحافا ، فهؤلاء اولى واحق بالمساعدة من كل احد ، ففرقوا عليهم ما جمعتم لى وواسوهم بما تسمح به نفوسكم الكريمة ، واحسنوا ان الله يحب المحسنين والله فى عون المرء ما دام المرء فى عون اخيه ، ويغلب على الظن ان المستمعين تأثروا بهذا الكلام ، وانهم سيعملون بمقتضاه ان شاء الله تعالى ......

ثم اننا نزلنا بجدة عشية الاربعاء ، وبعد غروب الشمس راى الناس هلال ذى الحجة ففرحوا واستبشروا ، حيث تحقق لديهم ان وقفتهم هذه السنة بالجمعة واصبحنا من الغد بجدة ننتظر ان يؤذن للسيارات بنقل الحجاج الى مكة ، وفى اثناء النهار من نفس الغد وهو يوم الخميس فاتح ذى الحجة استأنفنا السفر الى مكة فدخلناها من يومنا ، وقد وجدنا المسكن الذى هيأه لنا المطوف مشتملا على كل المرافق والوسائل التى توفرت فيها راحة الحاج وهنا يحق ان نقول ان الحاج الافاقى كائنا من كان ومن اية ناحية اقبل لا غناء له عن المطوف حتى يعود لبلده بعد اداء النسك والرجوع من المدينة المنورة فالمطوف هو الواسطة فى تقديم رخصة الحاج الى الحكومة لتمضى عليها عند نزول الحاج الى البر وهو الذى يهيىء المسكن والمركب من سيارة او دابة وهو الذى يحمل الامتعة الى منى وعرفة بحيث يجد الحاج بهما جميع المرافق كما يجد بهما ايضا الخبأ منصوبا يحتوى على كل الاسعافات حتى احضار الطبيب عند الحاجة اليه ، وبالجملة فان مساعدة المطوف للحاج من عدة نواح امر ضرورى لا بد منه بل نرى الكثير من الحجاج يعتقدون ان اداء المناسك يتوقف على المطوف فلا يطوفون بالبيت الا بصحبة المطوف ، يمشى امامهم يلقنهم دعوات مخصوصة فى السبعة الاشواط ، ويكتفون بخبره انهم طافوا سبعا وكذا العمل ، فى السعى ،

وربما اخبرهم المطوف بالتمام ، والواقع خلافه ، وقد يتعمد ترك شوط او شوطين من السبعة ليتفرغ الى جماعة اخرى تنتظره ، وكل هذا منشؤه الجهل ، والا فكيف يعتمد المتلبس بالعبادة على اخبار غيره باتمامها فيخرج منها على غير يقين ، ويفسدها على نفسه من حيث لا يشعـــر ، اذ ذمة المكلف لا تبرا الا بيقين انه ادى ما كلف به على الوجه المطلوب شرعا . ولذا لم اترك رفقتى وهم ثمانية عشر رجلا وامرأتان يطوف بهم المطوف ، بل كانوا يطوفون لانفسهم بعدما علمتهم ما يتطلبه الطواف والســعى وسائر اعمال الحج والعمرة ، ولله الحمد ، ثم بعدما دخلنا مكة اقمنـا بها تسعة عشر يوما معدودا منها يوم عرفة ، وايام منى اجتمعت أثناء تلك المدة داخل المسجد الحرام وخارجه بعلماء مكيين وافاقيين كنت قيدت اسماءهم ، وما دار من الحديث بينى وبينهم، ولكن ضاع منى ذلك فى جملة الكتب والامتعة التى ذكرت عنها سابقا انها ضاعت منى بالجزائر . وقد بقى بــذاكرتــى ان عالما هنديا جالسته بالحرم بعد الصلاة ، وقد راى الكثير من المغاربة متسمين بسمة الوشم فى وجوههم وايديهم فسألنى عن حكم الوشم فأجبته بقولى ان حكم هذا الفعلَ القبيح الحرمة ولا اظن ان احدا يتوقف فى الحرمة ولا يستبعد استنباطها من قول الله تعالى :

« ولآمرنهم فليغيرن خلق الله» .

فقال الامر كذلك ، ولكن قلت لعل ان يكون لهؤلاء رخصة فى مذهب امامهم فقلت له لا يصح الترخيص فى تغيير خلق الله ولكنــها الاهواء عمت فأعمت ثم ذكر هذا العالم الهندى انه قرا على الشيخ ابى الشـعيب الدكالى ايام كان بمكة يدرس الحديث كما ذكرنا سابقا ، وقال انه لم يتفق له ان طلب منه الاجازة ولما قلت له انى حضرت على الشيــخ ابــى شعيب وانــه اجــازنى طــلب منى الاجازة فأجزتـــه بما اجازنى به الشيخ الدكالى وقد قدمنا نص اجازته لنا ثم افترقنا على ما اجتمعنا عليه من التحابب فى الله ومن الذين اجتمعت بهم بمكة الشيخ ابو السمـــح امـــام المســجد الحرام فتحادثنا ، وكان موضوع حديثنا فى حكم صلاة ركعتى الطواف بعــد طلوع الفجر وبعد صلاة العصر ، فذكرت له ان مذهب المالكية فيمن طاف بعد الصبح او العصر انه يؤخر ركعتى الطواف الى ما بعد صلاة المغرب ، والى ارتفاع الشمس قيد رمح وهو ابتداء حل النافلة ، فقال الشيخ ابو السمح المسألة خلافية ، كان ابن عمر كما فى الموطأ يصلى ركعتــى الطواف ما لم تطلع الشمس ، وكان ابوه عمر بن الخطاب طاف بعد الصبح فــركب حتى

صلى الركعتين بذى طوى فلا ينبغى ان ينكر على من قدم او اخر ، فقلت له لعل التأخير ارجح لعموم النهى عن الصلاة من غير الفرائض الخمس بعد صلاة الصبح والعصر ووقفنا عند هذا الحد والا فالمسألة مشهورة الخلاف قد تجاذبتها الادلة اصرحها ما رواه الشافعى واصحاب السنن وصححه ابن خزيمة والترمذىوابن حبان والحاكم عن جبير بن معطم مرفوعا « لا تمنعوا احدا طاف بهذا البيت وصلى اية ساعة شاء من ليل او نهار » .

وللشيخ ابى السمح حلقة بعد المغرب بالحرم يحضرها الكثير من الحجاج ، وكان معه نوع افراط فى الانكار على السواد الاعظم من المسلمين فيما لا يوافق مشربه الناحى فيه منحى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكان بعض علماء الآفاق يعارضونه اثناء درسه ويكثر بينهما الاخذ والرد فيتحول الدرس الى مجلس مناظرة حادة وجدال عنيف فينفض المجلس بدون جدوى وبدون ادنى فائدة كنت حضرت ذات ليلة بعد المغرب حلقة عالم نجدى اعمى يعقدها قبالة الكعبة المشرفة فتعرض الى مسألة التوسل للخالق بالمخلوق واطال الكلام عليها ثم منع التوسل على الاطلاق منعا باتا وقال انه بدعة منكرة لا يحل السكوت عنها فقلت له وكنت جالسا عن يمينه ثبت من طرق ان عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده فى يدى ، وقال هذا حجة عليكم لا لكم فقلت له من هو المقصود بالخطاب فى قولك عليكم لا لكم فان كان المقصود عامة المسلمين ففضيلتكم داخلون فى عموم الخطاب وان كان المقصود بخطابكم فريقا من المسلمين وطائفة منهم مخصوصة فنحن لا نوافقك على هذا القصد لان المسلمين كلهم فرقة وكلهم اخوة تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم ، وحينئذ يحق ان نقول لا معنى لتخصيص طائفة منهم بالخطاب ما دامت تشهد ان لا اله الا الله وتصلى وتصوم وتزكى وتؤم بيت الله الحرام لاداء النسك وحولك من المسلمين على اختلاف السنتهم والوانهم عدد كبير يبتغون من فضيلتكم ان تزودوهم من نصائحكم وارشاداتكم ما ينقلبون به الى اهليهم شاكرين لكم صنيعكم معهم . وغير خاف عليكم ان كل فرد منهم وهم فى حلقتك يشعر بجاذبية الاخوة الاسلامية تجذبه الى التفانى فى محبة اخيه المسلم ، فلم يلتفت الى . واستمر فى تقرير ما هو بصدده مما يرى انه الحق فى مسألة التوسل التى كانت بالحجاز اذ ذاك حديث المجالس، ومن الذين قابلتهم من آلعلماء بمكة واستفدت منه الشىء الكثير عاد على فضله المجاهد الكبير والأستاذ المربى والعلامة النحرير الشهير ابو المواهب الشيخ سيدى احمد الشريف السنوسى الخطابى المعروف بالفضل وعلو القدر ذو المقام الرفيع والمكانة السامية ، ومن اراد

الوقوف على ما لهذا الرجل العظيم من كرم الاخلاق والشيم وعلى ما له من مزايا ، ومن مواقف شريفة ومشاهد عظيمة ، فليراجع ما حلاه به امير البيان الامير شكيب ارسلان فى تعليقه على حاضر العالم الاسلامى ، كنت ايام اقامتى بمكة اتردد الى هذاالعالم الربانى فى زاويته بأبى قبيس واحضر مجالسه الخاصة بالوفود التى تتوارد صباح مساء للسماع منه والاخذ عنه والتبرك به او لطلب تلقين اوراد الطرق المنسوبة لاكابر المتصوفة ، وكان صاحب اسعاف وعطاء لا يمنع سائلا ولا يخيب آملا . سمعت منه فى مجلس واحد ثلاثة عشر حديثا من المسلسلات اذكرها فيما بعد منها الحديث المسلسل بالضيافة املاه علينا بمنزله ثم امر رحمه الله باحضار التمر وماء زمزم فأحضرا وقال كلوا واشربوا فان التمر والماء هما ضيافة رسول الله صلى الله عليه وسلم للذى روى عنه حديث الضيافة هذا المسلسل بضيافة كل راو لمن روى عنه الى ضيافتنا هذه. فحمدنا الله تعالى على هذه النعمة العظيمة التى انعم بها علينا فى حرمه الامين والتى قل ان تتفق لاحد فى هذا المكان المقدس ، وبضيافة على تمر مكة وماء زمزمها على يد شيخ عارف علمه الله من العلوم اللدنية ما لا يدريه الا من هو مثل هذا العالم الربانى . وقد اجازنى مشافهة اجازة عامة واذن لى فى تلقين اوراد الطريقة السنوسية المنسوبة لمؤسسها جد المترجم له العلامة الشهير والمربى الكبير سيدى محمد بن على السنوسى الخطابى ثم الجزائرى دفين جغبوب . ثم أن تسلسل الحديث ، كما هو فى مقدمة ابن الصلاح عبارة عن تتابع رجال الاسناد وتواردهم فيه واحدا بعد واحد على صفة او حالة واحدة الى ان قال ، ومن فضيلة التسلسل اشتماله على مزيد الضبط من الرواة الى آخر ما قال ، وقد رسم صاحب البيقونية المسلسل بقوله :

**« مسلسل قل ما على وصف اتى**
**مثل اما والله انبانى الفتى**
**كذاك قد حدثنيه قائما**
**او بعد ان حدثنى تبسما**

والمسلسلات الثلاثة عشر التى سمعناها من الاستاذ السنوسى المذكور اولها مسلسل بالاولية اى بقول الراوى اول حديث سمعته منه ثانيها مسلسل بالمصافحة ثالثها بالمشابكة رابعها بالضيافة وتقدم خامسها بتلقين الذكر سادسها بمناولة السبحة سابعها المسلسل بقوله اشهد بالله واشهد الله ثامنها المسلسل بقوله ويده على كتفى تاسعها المسلسل بقوله انى احبك عاشرها المسلسل بقراءة سورة الصف ، وهو اصحها تسلسلا

الحادى عشر لمسلسل بأربعين حديثا بالسند الى الامام السيوطى الثانى عشر المسلسل بيوم عاشوراء ، الثالث عشر المسلسل بيوم العيد . وهذه المسلسلات املاها علينا هذا العالم الكبير الحافظ بمتنها ورجال سندهـا مع ما يتعلق بها من احكـام وفوائد ، خصوصا المسلسل بيوم عاشوراء. ولكنى اقتصرت على اللفظ الذى سمى به الحديث مسلسلا روما للاختصار، وقد نقلتها باذنه من كناشه بمتونها واسانيدها فى كراسة هـى محفوظة بخزانتى ، وانى ناو طبعها ان شاء الله .

كان هذا العارف بالله مولانا الشيـخ سيـدنا احمـد الشريف السنوسى الذى نتحدث عنه هو الدرة اليتيمة فى عقد العلـماء العاملين ، وعصابة عباد الله المخلصين ، ينبغىان يقال لمن صاحبه او جالسه ولو لحظة لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم ان من مآثر هذا السيد العظيم ما سجل له التاريخ فى الحرب الطرابلسية الايطالية من بسالة وشجاعة واقدام وتدبير وبعد نظر ، وما الى ذلك مما اهله واثبت له الكفاءة التامة لتولى القيادة العامة للجيوش الطرابلسية . ومن قواده البطل المقدام الشيخ عمر المختار الحامل للواء الزعامة والذى ابلى فى الحرب الطرابلسية البلاء الحسن . ثم قتل صبرا بعد القاء القبض عليه وبدون محاكمة من المجلس الحـربى الايطالى ، فنال الشهادة ، وفاز بالحسنى ، رحمه الله دامت تلك الحرب اربعة عشر عاما يديرها ، ويرسم خططها زعيمها المـذكور سيدى احمد الشريف السنوسى ، ثم التحق اثناء الحرب العامة الاولى بالدولة التـركية وكان اكبر مساعد لمصطفى كمال فى حربه مع اليونان . وقد اخبرنى الشيخ سيدى محمد الزوى ، وكان من الملازمين له حضرا وسفرا ، ان مصطفى كمال يقبل يد الاستاذ عند كل مقابلة ، ويطلـب منه مرارا عند اشتداد الامر قراءة البخارى ، وبعدما تنكر مصطفى كمال لتعاليم الاسلام فارقه وجاور بمكة المكرمة ، فلقى من المملكة السعودية من المعونة والمساعدة ما مكنه من استيطان مكة محترما موفور الكرامة لدى العالم الاسلامى وغيـر الاسلامى ما دخل مكة امير او وزير او ذو مقام رفيع الا زاره فى زاويته بأبى قبيس ليتبرك به او ليأخذ عنه . وكانت تجمع تحت يده المبالغ المالية الضخمة ترد عليه من سائر الاقطار الاسلامية ، خصوصا الهند، وتزداد تلك الموارد ايام الموسم فيبعث بها كلها الى ايتام الذين استشهدوا فى حرب طـرابلس وارامهم . ففى كل موسم يأتى ايام الحج جماعة معينة من ليبيا تسلم لهم تلك المبالغ المالية من زاوية ابى قبيس بمكة لتفرق على العائلات الطرابلسية فتأخذ كل عائلة بقدر افرادها المدونة اسماؤهم فى دفتر العائلات الليبية

واستمرت المساعدة منظمة على هذا المنوال الى ان انتقل الاستاذ من مكة المكرمة بعد سنوات الى المدينة المنورة سنة احدى وخمسين وثلاثمائة والف وتوفى رحمه الله من تلك السنة يوم الجمعة ثالث عشر ذى القعدة ، ودفن بالبقيع ، ويقال ان الحكومة العربية السعودية رخصت فى ان يدفن ببقعة لم يدفن فيها احد قبله منذ خمسمائة سنة . والله اعلم .

ولقد اهتز لموت هذا المجاهد الكبير ، العالم الاسلامى اجمع ، ونشرت اذ ذاك الجرائد على اختلاف نزعاتها فى اول صفحاتها صورة له



❀ صاحب الدولة السيد احمد الشريف باشا السنوسي ❀

مكبرة ، وعلقت باسهاب على الخدمات التى خدم بها الاسلام وقدمها لابناء جنسه ، وعلى مواقفه ومقاومته للاستعمار الذى ما رضخ لسلطته فى يوم من الايام ، ولا رضى رحمه الله أن يكون تحت سيطرة الاجنبى وقتا ما ، بل كان يتنقل بين الممالك الاسلامية الى ان التحق بأسلافه الصالحين ، وكنت ودعته رحمه الله تعالى عند خروجى من مكة المكرمة فأوصانى بقراءة الموطأ وبلوغ المرام لابن حجر ورسالة ابن ابى زيد القيروانى ، ورغبنى فى ذلك فقال بلغنا عمن يوثق بهم ان قراءة الرسالة ثلاث مرات متوالية تضمن لقارئها الولاية ، وقد ختمتها والحمد لله ثلاث ختمات احداها تلو الاخرى ، ثم صرت فى الغالب اقرؤها كل سنة ، كما اقرا الموطأ وبلوغ المرام حسب اشارته التى هى غنم . كان خروجنا من مكة يوم الثلاثاء العشرين من ذى الحجة عام خمسين وثلاثمائة والف ، وتأخر سفرنا بعد اداء المناسك والفراغ من جميعها الى اليوم المذكور من اجل ان الحكومة رتبت خروج السيارات التى اعدت لنقل الحجاج من مكة الى المدينة ، فينتظر الحاج نوبته اليومين والثلاثة ، ولربما اكثر ، ومع هذا الانتظار لا تخرج السيارة الا باذن الحكومة المحلية ، كما انها لا تخرج الا فى الوقت المعين لها ، فيسافر الحجاج من مكة الى المدينة افواجا فى اوقات متفرقة ، واذا حضرت السيارة برقمها الخاص وبسائقها المعين فانها لا تحمل سوى العدد المرخص لها فى حمله ، وهو ما يوجد فى القائمة التى تسلم للسائق يصحبها معه ثم تقف السيارة فى كل محطة حتى يؤذن لها فى استئناف السير بعدما يتفقدها رئيس المحطة ، ويعد ركابها المحصور عددهم فى القائمة التى اصحبتها الحكومة للسائق ، ويسأل الركاب عن هذا السائق كيف كانت معاملته لهم ، أحسن .... ام أساء ... وبالجملة فالحكومة السعودية تعتنى اعتناء لا مزيد عليه باتخاذ الوسائل التى تكفل راحة الحاج وتضمن امنه وسلامته من الاعتداء عليه حتى ينفصل عن ارض الحجاز ، فالمسافر من احد الحرمين الى الآخر راكبا او ماشيا وحده او فى جماعة فى ليل او نهار لا يخاف الا الله تعالى حيث تسهر الحكومة على استتباب الامن فى المدن والقرى ، وفى الطريق وسائر انحاء الحجاز بعدما كان الامر قبل المملكة السعودية من عدة قرون بالعكس ، لا يأمن الحاج على نفسه وماله حتى فى مكة الحرم الآمن . وانا لنرى ، كما يرى غيرنا ان منشأ اختلال الامن بالحجاز او فقدانه هو اهمال ولاة الامر شأن عرب الحجاز من الناحيتين المادية والادبية ، فحكومات الحجاز فى القديم والحديث لم تؤسس لسكان المدن والقرى والخيم مكاتب اولية ومدارس ابتدائية تهذب اخلاقهم ، وترقق طباعهم وتؤهلهم للتحرف والتكسب من

الطرق المشروعة ، كما ان تلك الحكومات لم تعتن باقامة المعامل والمصانع الكافية لحاجيات السكان ، ولم تقاوم البطالة بالمنشآت العمرانية التى تشغل اليد العاملة كبناء القناطر وتعبيد الطرق واقامة السدود وتحريك الارض الصالحة للزراعة وغرس الاشجار وخدمتها خدمة مثمرة تمكن من استغلالها واستخراج خيراتها المخبوءة فى باطنها ، وكحفر الآبار وما الى ذلك من الوسائل والتسهيلات التى تفتح امام الناس ابواب التكسب والاسترزاق ، فالحجازى المسكين فاقد لهذا كله ، فبالطبع ينهب ويغصب ويسرق ويضطر الى سفك الدماء ، فلو تحسنت حالته المادية والادبية بالوسائط المذكورة لكان بالطبع ايضا مستغنيا عن تلك الجرائم التى كانت شدة الحاجة وفراغ اليد وفقدان العيش تلجئه الى ارتكابها ، وما دامت حالته لم تحسن فانه لا يقلع عن اعتداءاته المألوفة آلتى شب وشاب عليها . ولقد حاولت الحكومة ألعربية السعودية قمع الاعراب وردعهم بفرض العقوبات الشديدة كقطع اليد وجدع الانف وهي وان نجحت بسلوك طريق العنف بعض النجاح ، الا ان ذلك وحده بدون تحسن حالة البدوى لا يكفى فى درء المفسدة وحسم مادة آختلال الامر من اصلها ، فعلى سلاطين المسلمين وامرائهم وذوى العقد والحل منهم ان يهتموا بأمر الحجاز ويوجهوا كامل عنايتهم الى رفع مستواه ماديا وادبيا حتى يتمتع اهله بنوع من الرخاء ويذوقوا ولو بعض طعم حياة هنيئة ، وحتى يجد فيهم اخوانهم عونا على اداء مناسكهم ، وعلى امنهم فى ظعنهم واقامتهم . والله يهدى الى سواء السبيل .

قد كنت قدمت اننا خرجنا من مكة فى العشرين من ذى الحجة قاصدين المدينة المنورة بأنوار سيد العالمين فدخلناها ليلة الثالث والعشرين من آلشهر المذكور ، وكانت ليلة الجمعة ، ومن الغد صلينا الجمعة بالمسجد النبوى ، ثم صلينا الجمعة التى بعدها وخرجنا من المدينة فاتح المحرم ، فكانت اقامتنا بها ثمانية ايام قابلت اثناء هذه المدة القصيرة جماعة من علماء المدينة وحضرت دروس بعضهم ، وواظبت على حضور درس العلامة الزاهد الورع الشيخ خليل التكرورى ، اخبرنى من اثق به من الملازمين له ان الشيخ يعيش عيشة بسيطة ليس فى بيته من الامتعة ما يساوى ثلاثة دراهم شأن آلذين ينظرون الى الدنيا الفانية بعين الآحتقار ويرون انها لا تزن جناح بعوضة ، وقد اجازنى مشافهة اجازة عامة اتمنى ان يعمنى الله ببركة صاحبها . ومن المجيزين لىمن علماء المدينة ، ابو آلعباس القدوة الامام العلامة الشيخ احمد الامين بن عزوز زرته بمنزله وتباحثنا فى مسائل متنوعة هامة ، ثم اجازنى مشافهة اجازة عامة ، وحيث كنت على جناح

سفر وحال عجلة اوصيت بعض اصدقائى وهو الفاضل السيد عبد القادر ابن المفتى الجزائرى المجاور بالمدينة المنورة وانبته ان يتسلم لى من الشيخ الامين اجازة بخط يده اتبرك بها كما وعدنى بذلك وقت توديعى له ، وبعد مدة كتب الى الاخ المذكور بما مضمونه :

« يسلم عليكم فضيلة الشيخ سيدى احمد الامين، ويقول لسيادتكم يكفيك عن الكتابة ما اخذته عنى لان الاجازة مشافهة اقوى منها كتابة لان الاولى تعد عند ارباب هذا الشأن من السماع المعتبر دون الثانية . ثم يقول وان رغبت فى الكتابة فانى مستعد لاجابة رغبتكم» . انتهى .

ولكنى لم اراجعه فيما بعد لاكتفائى بالاجازة الشفاهية ، ونعما هى وعندما اجازنى قدم الى من مؤلفاته كهدية منظومة فى اسماء الله الحسنى ، واسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، واهل بدر يتوسل بها الى الله تعالى ان ينصر المسلمين فى الحرب العالمية الاولى عندما كانت الدولة التركية بجانب الالمان تقاتل الحلفاء ، وقد عناها فى آخر المنظومة بقوله :

**« وكل ذوى الايمان كـــن لجميعـــهـــم**

**ولـــيـــا غيـــاثـــا قامعا كل معـــتـــد »**

ثم اخبرنى بما يأتى : قال ، انى اجلس بالروضة قرب الضريـــح الشريف فيسهل لى نظم القوافى ، وتتبادر المعانى الى ذهنى بحيث اجد فى نفسى من الاقتدار على النظم ما لم اكن اعهد فأنظم من الابيات ما شاء الله ان انظم ، واحيانا اجلس كعادتى فتتعصى على القوافى وتنسد امامى ابواب التفكير ، فأقوم من الروضة الشريفة كاسف البال ، وهكذا كنت ما بين مقام بسط وقبض حتى تمت المنظومة على ما كنت اتمنى وزيادة ، والله يؤتى الحكمة من يشاء ، وقد طبعتها بتونس وبعث الى منها بكميات وافرة تعد بالمائات من النسخ ، وكان البعث على طريق البحر الى ميناء الينبوع ، ولما وصلت واطلعت عليها الحكومة السعودية حجزتها ومنعت دخولها الى الحجاز وسائر مملكة الرياض ونجد ، ولم يدخل المدينة المنورة سوى نسخ قليلة تسربت سرا بواسطة المسافرين منها هذه النسخة المقدمة لسيادتكم وبعدما قص على خبر ما جرى التفت الى وقال : ما تقول فى هذه المعاملة التى عاملتنا بها الحكومة . وهل ما فعلت يليق بسمعتها وهى تتزعم العالم الاسلامى بالحجاز ، وبالحرمين الشريفين .. فأجبته بقولى : لا يخفى على فضيلتكم ان مذهب الحكومة السعودية منع التوسل الى الله بالمخلوق على الاطلاق ، وموضوع منظومتكم يدور حول التوسل لا غير ، فبالطـــبـع ان

تسعى فى ان لا يروج بمملكتها فى خصوص المسألة سوى مذهبها ، وهى معذورة فى ذلك ، حيث ترى ان الحق محصور فى معتقدها ومذهبها لا يتعداهما الى غيرهما ، وبعد هذا فمسألة التوسل بالمخلوق اعطيت من الاخذ والرد فى العالم الاسلامى اكثر مما تستحق وفوق ما يجب ، لانها ليست من المسائل التى لا نص فيها حتى يتطرق اليها الخلاف او تضطرب فيها الاقوال ، بل فى المسألة نصوص صريحة فى اباحة التوسل فى مواطن وفى ندبه والترغيب فيه والحث عليه فى مواطن اخرى تكلم عليها النبهانى فى تأليف له سماه : شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق وارشد الى مواضع تلك النصوص من كتب القوم وغيرها من كتب التفسير والحديث والفقه والسير ، وكفى الناس طلب الحق فى غير ما نص عليه رحمه الله .
ولما عدت من الحجاز تواردت على من اصدقائى ومعارفى رسائل التهانى نثرا ونظما ، كما هى عادتهم معى عند كل مناسبة ، ولما فيها من المبالغات فى الاطراء ومغالات فى المدح ، لم اثبتها هنا رغم ما التزمته من اثبات ما اتفق لى فى ماضى عمرى مما يهم اثباته ثم الذى سرنى بوجه خاص وقرت به عينى وارتاح له ضميرى هو ان الدروس وجدتها منظمة كما كانت قبل غيابى ، لم يطرا عليها ادنى خلل يشرف عليها بالنيابة تلميذنا الشيخ جلول ابو ناب الفليتى ، فقام بالنيابة عنى اتم قيام حتى رجعت من سفرى الميمون المبارك الذى بلغت فيه ما رمت وتم لى بواسطته ما قصدت، وانتهى بسلام والحمد لله فى البدء والختام والصلاة والسلام على اشرف الانام سيدنا محمد سيد ولد عدنان وعلى آله واصحابه الذين اكرمهم الله تعالى بالرضى والرضوان . انتهى ما يتعلق بالمقصد الثانى .



# « المقصد الثالث »

ويليه ما يتعلق بالمقصد الثالث ، ومحصله هو انى بعدما اذن لى اشياخى فى تدريس ما تلقيته منهم وفيما اجازونى به اشتدت رغبتى فى السفر الى مصر المحمية لاتلقى بالكلية الازهرية ما فاتنى حضوره او تلقيت بعضه بالوطن من المطولات ، ولما اعددت للسفر عدته اعترضنى ما ثبطنى وحال بينى وبين ما ابتغـــى ..

**« وما كـــل مــــا يتمنى المـــرء يدركـــه**

**تجرى الريـــاح بمـــا لا تشتهى السفن**

فرضيت بما قسم لى ، وهيأ الله اسباب الوصول اليه ، وسهل طرق الحصول عليه ، وقد تداركت ما فاتنى بالمواظبة والاعتـكاف عـلى التدريس والمداومة على التعليم بجد واجتهاد ، وقد قيل العلم يزيد بالانفاق والمال ينقصه الانفاق ، على ان العلم ليس هو مجرد محفوظات واستحضار نقول ، بل هو ملكة راسخة لا تفارق من قامت به تغنيه عن حمل الاسفار فى الاسفار لانتقالها بانتقاله يستخدمها متى شاء ، وبأية كيفية شاء ، فى اى موضوع من المواضيع شاء ، مهما دقت تلك المواضيع ، وصعب منالها . وهذا امر مشاهد ملموس باليد ، اذ كثيرا ما نرى بعض من حضر معظم الفنون ، وحفظ من المسائل الشيء الكثير ، ولكنه فقد الملكة فوقف عـنـد ما سمع او حفظ ، ويبقى اسير التقليد ، عاجزا عن تطبيق القواعد وعـن استخراج الجزئيات من كلياتها لا يقدر على التصرف حتى فيمـا له مـن محفوظات ، بينما نرى بعضا آخر دون الاول فى الحضور على الاشياخ ، واقل منه فى المحفوظات ، ولكنه بواسطة الملكة التى اهلـته لتـربيتـها استعداداته ومواهبه الفطرية يقدر على حل المشكلات واستنباط المسائل يلحق الفرع بأصله ويهتدى الى معرفة الدليـل وكيفيـة الاسـتدلال به فى موضعه ، وهكذا نجد الفرق الكبير بين ذى الملكة وفـاقدها الذى لا يستحق وان كثرت محفوظاته ان يوصف بالعالمية ، والله تعالى يؤتى فضله من يشاء لما شهد لى اشياخى باهلية التعليم ، وآنست من نفسى المقدرة على ذلك ، وكانت الحواضر مضان طلب العلم بخلاف البوادى ، اخترت سكنى الحاضرة

وقد اوصى الامام مالك رحمه الله الشافعى عند مفارقته اياه بقوله : لا تسكن الريف يذهب علمك ، وفعلا سكنت حاضرة وهران احدى المدن الساحلية يبلغ عدد سكانها فى الوقت الحاضر نصف المليون تقريبا ، اكثرهم من غير المسلمين ، وميناء هذه المدينة العظيمة من اكبر الموانىء تتردد اليه السفن باستمرار ، وبدون انقطاع مشحونة بالكميات الوافرة من البضائع المتنوعة الكافية فى سد حاجيات الحواضر والبوادى بالعمالة الوهرانية الى تخوم الصحراء الكبرى، كما تبحر تلك السفن من هذا المرفأ دائما مشحونة ايضا بصادرات ارض الجزائر ومحصولاتها الزراعية وغير الزراعية ومنتوجاتها التى بواسطتها تضخمت ثروة المعمرين الذين استبدوا بخيرات الجزائر واستحوذوا على تربتها الطيبة . يقول صاحب تحفة الزائر :

« وهران بلدة قديمة اختطها ملوك مغراوة قبل الاسلام» بينما يقول الحافظ ابو راس المعسكرى فى شرحه لمنظومته : « الحلل السندوسية المسمى بعجائب الاسفار : وهران نبتها مغراوة باذن من مواليهم الامويين امراء الاندلس . » ومعلوم ان الدولة الاموية بالاندلس اسست سنة ثمانين وثلاثين ومائة ، اسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان الملقب بالداخل ، والذى كان ابو جعفر المنصور العباسى اذا ذكر عنده يقول ذلك سقر قريش ، فكلام ابى راس لا يتلاءم مع قول صاحب تحفة الزائر اختطها ملوك مغراوة قبل الاسلام . ولعل ما قاله ابو راس هو الاصح ان لمنقل المتعين ، فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمة ابى عبد الله الوهرانى انها اسست سنة تسعين من القرن الثانى للهجرة ، ولم تزل وهران بعد الفتح الاسلامى يتداولها ملوك الاسلام . وفى القرن الرابع بنى جامعها الكبير بلكين بن زيرى من ملوك صنهاجة ، وهذا الجامع العظيم حولته الحكومة الفرنسية الى ثكنة عسكرية ، واسكنت بعض فرق جيشها بيوت المدرسة المتصلة بصحنه ، ورغم ما وقع من التغيير لهذا المعهد الاسلامى والعبث بهذا الاثر الدينى على يد الاستعمار لا يزال محرابه ومناره قائمين على اصلهما ، وامتدت العمارة الاسلامية بمدينة وهران قرنا بعد قرن الى سنة خمس عشرة وتسعمائة، ثم اخذتها دولة اسبانيا من يد آخر ملوك بنى زيان ، وضيقت على المسلمين وسامتهم سوء العذاب . هذه الدولة الاسبانية الظالمة الغاشمة . ولا زال العلماء اذ ذاك يستنجدون اتراك الجزائر ويحرضونهم نثرا ونظما على غزو الاسبان بوهران ، فكان الاتراك من حين لاخر يوجهون جيوشهم لقتال الاسبان بوهران فيتعصى عليهم فتحها الى ان تولى امر الجزائر محمد باشا المعروف بالمجاهد وذلك سنة تسع وسبعين ومائة والف فأمر بغزو وهران من جديد ، وكتب الى

محمد باى الكردى حاكم معسكر وحرضه على منازلة وهران فنازلها الباى وضيق على اهلها الخناق حتى فتحها سنة ست من القرن الثالث عشر وانتقل اليها من معسكر بأهله واعيان حكومته ، وبقيت بيد الاتراك حتى اخذتها الدولة الفرنسية ، وتسلمت زمامها من يد حسين باى فى تاسع رجب سنة ست واربعين ومائتين والف بعد ستة اشهر من دخول الجزائر ، وتلك الايام نداولها بين الناس . وكان الامير عبد القادر ووالده قبله يقاتلان الجيش الفرنسى داخل مدينة وهران وخارجها ، وكان الامير رحمه الله يضيق عليهم الخناق ويحاصرهم، ولقد شدد عليهم الحصار حتى قطع عليهم المدد من سائر الجهات وقاربوا الاشراف على السقوط والتسليم . ولما راى حاكم وهران ما حل به وبجيوشه وما خامرهم من اليأس صار يلقى فى قلوب ضعفاء الايمان الدسائس والاراجيف ويعدهم ويمنيهم امانيه الكاذبة ، ومن بين هؤلاء قبيلتا الزمالة والدوائر، ولم يزل هذا الحاكم ينفث سمومه الفتاكة حتى مالت اليه قلوب اولئك المنافقين وفتحوا له طريق المواصلة من جهتهم فانفرج عنه وعن جيوشه الحصار ، وتمكن بمساعدتهم من ارغام القبائل واهل المدن والقرى على الاستسلام والاذعان للسلطة الفرنسية، والدخول تحت رايتها ، وكان امر الله قدرا مقدورا. ثم استمرت وهران كباقى القطر الجزائرى تحت نفوذ الاستعمار الفرنسى من لدن سنة ست واربعين من القرن الثالث عشر الى عام كتابتى هذا التقييد ، وهو عام تسعة وسبعين وثلاثمائة والف . وثارت الامة الجزائرية ثورتها العامة المباركة يوم الاثنين خامس ربيع الاول عام اربعة وسبعين من القرن الرابع عشر الهجرى الذى نحن الان فى العقد الثامن منه ، وعام اربعة وخمسين وتسعمائة والف المسيحى ، وها هى الان فى سنتها السادسة تزداد كل يوم قوة على قوتها وتشتد وطأتها على الاستعمار الغاشم وتريه من الشجاعة والاقدام ما اوقعه فى حيرة وارتباك واختلال فى انظمته واضطراب فى صفوفه ،الامر الذى قوى ظننا ان الثورة على وشك الأنتهاء ، وانها فى آخر مراحلها وبانتهائها ينتهى الاستعمار الفرنسى ويذهب غير مأسوف عليه وتبقى الجزائر خالصة لابنائها البررة وزعمائها المخلصين .

ثم لنرجع لما نحن بصدده ، قد كنت قدمت انى بعد اختيارى سكنى الحاضرة استوطنت بلدة وهران واتخذتها دار اقامة لى ولكنها ساءت مستقرا ومقاما لان سكانها الا من رحم الله لا خلاق لهم ولا مروءة ولا حياء وكأن الشاعر الحكيم يعنيهم بقوله :

**« اتى الفواحش عندهم معروفة ولديهم ترك الجميل جميل »**

يتبعون الاوهام ويؤمنون بالخرافات ويتشبثون بالعوائد القبيحة والتقاليد الممقوتة ، وكلهم يعتقدون ان ما هم عليه من الباطل يقربهم الى الله زلفى وينجيهم من اهوال القيامة يوم الفزع الاكبر واذا نصح لهم ناصح او ارشدهم مرشد اعتبروه الخصم الالد والعدو المبين ورموه بالزندقة والالحاد ، كما انهم اذا قال لهم قائل من اين لكم هذا قالوا هو من العلوم الباطنية التى فتح بها لاشياخنا لا تعلمها انت ولا من هو محجوب عن الاسرار مثلك . وهكذا زين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل اصلح الله حالنا وحالهم والمسلمين اجمعين ، فان قلت اذا كان سكان بلدة وهران بهذه المثابة فبم طاب لك استطانها . قلت نعم استوطنتها ولكن لا لرغبة فيها ولا لمحبة اهلها وانما اخترتها دار اقامة لى من اجل امر واحد هو قربها من ارض قومى ومقر اسلافى ومقابر آبائى واضرحة اجدادى، فانا احب ان اسكن قريبا لاكون دائما على اتصال بعشيرتى وذوى قرابتى اذ لم يكن بينهم وبين مدينة وهران سوى خمسين ميلا جنوبا .

حللت بوهران سنة ثلاثين وثلاثمائة والف ، وكان بها اذ ذاك بعض اقاربى فطلب منى النزول عنده فكنت اتردد على منزله اقيل وابيت وتعرفت بجماعة من الطلبة فالتمسوا منى قراءة الربع الثانى من مختصر خليل رحمه الله فقراته واتيت بكل ما فىّ وسعى من حسن الالقاء والتانق فى العبارة والتفنن فى الاساليب مع جلب ما يحضرنى من النقول قاصدا بذلك والله يغفر لى خطيئتى اشهار علمى وانتشار ذكرى ، وقد نص الشيخ خليل فى باب القضاء على ان العالم الخميل الذكر يندب له طلب القضاء ليشهر علمه بقصد ارشاد المسترشد وافادة المستفيد فتحدث الناس بدرسى ، واستحسنه كل من حضره ، ولما رايت اقبال الطلبة على حضور دروسى اجتهدت فى القاء الدروس المتنوعة يحضرها الكثير من طلاب العلم، ثم التمس منى جماعة من طلبة البادية التدريس بقريتهم فبقيت بالبادية نحو السنتين وتزوجت هناك ثم عدت باهلى الى بلدة وهران ،ولما استانفت القراءة كسابق عادتى منعتنى الحكومة بدعوى ان القانون الفرنسى يمنع التعليم بسائرانواعه حتى تعليم الديانة بدون رخصة . والملاحظ فى سن هذا القانون الجانى على العلم وعلى معلمه ومتعلمه هو تسليط الجهل على افراد الامة واماتة شعورها واحساسها حتى لا تتنبه الى دسائس الاستعمار ومكائدة ولا الى ما يدبره لها فى الظهور والخفاء من القضاء على دينها ووطنيتها ، ثم على عروبتها ، وبعد التسويف مدة وبعد عراقل وصعوبات تحمل على الياس حصلت على رخصة ضيقة مقيدة بالاذن فى قراءة فنون خاصة مع الحجر فى باقيها ، ولكنى لم اقتصر فى التعليم على ما حددته الرخصة

بل كنت اتعداه الى قراءة ما اشاء وفى بعض الاوقات يأتى على حين غفلة مفتش من طرف الحكومة يراقب سير التعليم ويسال عن العمل بمقتضى ما فى الرخصة مع التنبيه على منع جلب الكتب التى حجر القانون الفرنسى دخولها للقطر الجزائرى ، وهكذا تضغط الحكومة الفرنسية على حرية التعليم وحرية الراى وحرية الصحافة وسائر الحريات التى يحق لكل امة حتى المستعمرة ان تتمتع بها الا ان الاستعمار الفرنسى لا يقيم لمستعمراته وزنا ولا يرى ان لها حقا ولو اثبته لها الشرع والعقل والمنطق ، ثم لما حصلت على تلك الرخصة التى هى فى الواقع منع لا ترخيص استقبلت القاء الدروس بجد واجتهاد فكنت اجلس للدرس صباحا من الساعة السابعة الى الحادية عشرة ، ومساء من الثانية الى الخامسة ، وهذه الساعات موزعة على الفنون ، وكان اخى وشقيقى العلامة الشيخ عبد القادر رحمه الله يقرا بعد فراغى من الدروس مما يختاره الطلبة ويقترحونه من المتون وله رحمه الله اقتدار على الالقاء باساليب حكيمة حسب ما يقتضيه حال المتعلمين حتى انهم كانوا يستحسنون دروسه ويرجحونها على دروسى ، ولولا اشتغاله بالتجارة لافاد كثيرا ، ثم بعد الدروس النهارية اقرا ليلا درسا فى التفسير ، وقد ختمت تفسير القرآن الكريم فى تسع سنوات ثم استأنفت قراءته مرة ثانية فبلغت سورة هود واعترضتنى كلف عائلية فاقتصرت على قراءة التفسير لليالى رمضان خاصة كما اسرد ايامه الجامع الصحيح للبخارى ، وكثيرا ما كنت اقرا الموطأ او بلوغ المرام او رسالة ابن ابى زيد بدل مختصر خليل عندما يلتمس منى ذلك ومن عادتى وقت ختم الدروس فى اول العطلة الصيفية من كل سنة ان اجعل احتفالا عاما استدعى له طلبة العلم وذوى الحيثيات والشخصيات البارزة من عدة جهات ، وبعدما تنتظم الحفلة القى درسا فى اهم موضوع يحضره الجميع ، ثم تقدم للحاضرين موائد الاطعمة والمبردات فيتناولون ما لذ وطاب وينصرفون مغتبطين بهذا الاحتفال الذى له روعته وجماله ، والذى هو رمز لرفع مكانة العلم واهله كما يرمى للوحدة والتآلف والتضامن وجمع الكلمة. واستمر الحال على ذلك مدة ثم عدلت عنه لاسباب ، واقتصرت اول العطلة الصيفية على عقد لجنة تتركب من الطلبة المتخرجين من مدرستنا والمتصدرين للتدريس بأماكن متعددة ، فيختبرون تلامذة المدرسة ويمتحنونهم على اختلاف طبقاتهم ، وهكذا كان دابنا فى التعليم وتنظيم الدروس على مر الايام الى ان فاجأتنا الحرب العالمية الاولى سنة اربع عشرة وتسعمائة والف مسيحية، فغيرت الاوضاع وافسدت الانظمة واحدثت انقلابات باغتة لم يبق معها شيء على ما كان عليه ، فقد جندت الحكومة الفرنسية العدد الكثير من الطلبة الذين هم بصدد مزاولة

العلوم اذ ذاك ، كما جندت من ابناء الامة الجزائرية غير الطلبة مئات وآلافا وزجت بالجميع فى حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل فكأنوا طعمة لنيران مدافع الالمان، ومن لم يلق منهم حتفه ولم يقض نحبه رجع الى اهله ناقص يد او رجل او هما معا او مفقود العين مشوه الخلقة ، ثم هنا يحـق لنـا ان نتساءل ماذا كان جزاء الامة الجزائرية التى بكفاح ابناءهـا ونضال افلاذ اكبادها تغلبت فرنسا على عدوها الجبار ، كان جزاء تلك الامة التى لم يكن لها من الامر شيء وانما عليها السمع والطاعة لما يفرضه الاستعمار ويلزمها اياه هو ان زيد فى ارهاقها والضغط عليها اكثر منذ قبل فقد شددت الحكومة الفرنسية الرقابة على الاجتماعات وسائر الحركات وضيقت الخناق على الحرية الفردية وغير الفردية ، فكل من ابدى نظريته امام الراى العام او بث شكواه من ظلم او حيف يعد فى نظر الحكومة مشوشا مثيرا للفتنة فتلقى عليه القبض وترمى به فى اعماق السجون او تنفيه الى الابد او الى مدة يفنى فيها اكثر عمره ، ولم تقتصر الحكومة الفرنسية بعد الحرب على هذه الاعمال المنافية للانسانية بل سنت قوانين استثنائية جائرة خاصة بالجزائر لا يجرى العمل بمقتضى تلك القوانين التعسفية الا على المسلم ابن الوطن دون غيره من المساكنين له حتى من الجاليات المختلفة الاجناس هذا اقل ما تمكن حكايته من جزاء فرنسا للامة الجزائرية التى انقذتها من هاوية الحرب العالمية وخلصتها من براثن عدوها المستأسد عليها ولله عاقبة الامور ثم لما وضعت الحرب الاولى اوزارها ورجعت الامور الى حالتها الطبيعية وعادت المياه الى مجاريها العادية عدنا والعود احمد الى سيرنا الاولى واعتكفنا على التعليم من غير ان نفقد شيئـا من الحرص الذى تعودناه الى ان قامت الحرب الثانية سنةتسع وثلاثين وتسعمائـة والف مسيحية فاشتدت الضائقة وضربت اطنابها على القطر الجزائرى باكمله ، وكادت المرافق الحيوية تفقد خصوصا المواد الغذائية حتى انها لقلتها صارت توزع على السكان مرة فى الاسبوع او الشهر بواسطة اوراق متعددة بعدد افراد العائلة لكل فرد ورقة بها اسمه وبأسفلها خاتم متصرف الحومة ، ولا تسال عما يروج من الرشوة بين اصحاب الاوراق والمتولين للتوزيع ، فمن بذل رشوة يقدم على غيره ويأخذ نصيبه ومثله معه ، لهذا ترى الناس يبذلون قصارى جهدهم فى الاهداء لاجل امالـة متولى التـفرقة وعطفه علـيهم والضرورات تبيح المحظورات ويا ليتهم لو كانوا يأخذون كفايتهم يوميا لو كان هذا لخف الامر وهانت المشقة ، ولكنهم لم يأخذ الواحد منهم الا شيئا تافها لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وكذا الملابس والاقمشة واثاث البيت توزع بالاوراق ، ولما بلغ فقدان المواد الغذائية الى حد تعذرت فيه المعيشة

او كادت ، واصبح الحصول على القوت اليومى متعسرا ان لم نقل متعذرا افترق طلبة مدرستنا والتحقوا بأهاليهم ، وبعد ما انتهت الحرب التمسوا منى العود الى القراءة واستئناف الدروس فنزلت على ارادتهم وجددت ماضى المعهد فانتظمت الدروس واتصلت حلقاتها الى الوقت الحاضر وهو وقت كاتبة هذه السطور ، والمستقبل يعلمه الله، ولما اشتهرت بتعليم العلم بوهران كانت ترد على الفتاوى والاسئلة مشافهة وكتابة وكنت اجيب عنها فى حينها ، ولكنى لم اعتن بتقييدها وجمعها فى اوراق فغاب عنى اكثرها ولم يبق عالقا بذهنى منها الا النزر القليل ومنه ما سيأتى استفتيت فى نبائح اهل الكتاب وفى زكاة اوراق البنوك المتعامل بها وفى بيع العنب لعاصره خمرا فاجبت عن الثلاثة بما وقع من كل من وقف عليه موقع الاستحسان والقبول ولم يعارضه الا القليل بما لا طائل تحته حيث عاند بعدما تبين له ان ما قلته حق والحق احق ان يتبع سامحه الله وهذه الفتاوى الثلاث نشرتها الجرائد العربية الجزائرية فى وقتها كما كانت تنشر لي المقالات المختلفة المواضيع وفى الحرب العالمية الاولى طلبت الحكومة الفرنسية من المثريين مبالغ مالية لتستعين بها على نفقة الحرب التى انهكت قواها واجحفت بماليتها رغم تضخم مداخلها ومواردها والزمتهم الدفع حالا ومن لم يمتثل او تأخر بالدفع يهدد ثم يعاقب وبعدما انتهت الحرب ارجعت الحكومة تلك المبالغ لاصحابها وزادتهم ما سمته بالفائض فتوقف البعض فى حلية اخذ هذا الزائد فاستفتى جمعا من الطلبة فأفتوه بالحرمة وقالوا هو نوع من الربا لانه سلف جر نفعا وترددت الاسئلة والاجوبة فى النازلة وكثر فيها الأخذ والرد واخيرا انتهت الى فأفتيت بالحلية وبينت ما يصحح فتواى ويوضح الحق فى المسألة وهو ان تلك الاموال اخذت من اربابها بغير اختيارهم وبدون رضاهم فهم مكرهون على الدفع ومتى ثبت الاكراه كان الاخذ غصبا لا قرضا اذ القرض عقد من العقود التى لا تتحقق ماهيتها ولا يترتب اثر عليها اعنى الحكم الناتج عنها الا برضى المتعاقدين ، اما اخذ الاموال مع التهديد والاستيلاء القهرى فهو فى نظر الشرع غصب والتعبير عنه بأسم القرض لا يخرجه عن كونه غصبا فاذا ارجعت المبالغ المذكورة الى اصحابها فليس معناه انها ادت قرضا كانت عقدته بينها وبينهم بل معناه انها ردت مالا غصبته وجبرت خاطر اربابه بذلك الزائد على وجه المنحة والاعطاء ، فهو مجرد هبة لا نفع ترتب عن شيء مقترض حتى يقال ان فيه سلفا جر نفعا ، وقد قال الفقهاء فى عين غصبت ردها الغاصب لها بعد اعوام من يوم الغصب انها لا زكاة فيها على الذى غصبت منه لماضى الاعوام ولو رد الغاصب ربحها معها يعنون انه رد

شيئا زائدا عليها لا ربحا حقيقة لان تلك العين المغصوبة لم تؤخذ من ربها على وجه القراض حتى يكون الزائد ربحا وانما عبروا عن هذا الزائد بالربح نظرا للشأن ، والغالب فى آن ما ينشأ من نمو العين يسمى ربحا ولم يبلغنا عن أحد من العلماء انه منع اخذ هذا الزائد المصاحب للعين المغصوبة عندما ردها الغاصب لانه لم يؤخذ فى مقابلة قرض وانما هو هبة من الغاصب للمغصوب منه كما ذكرنا سابقا ، وبعد ما بحثت هذا البحث مع كثير ممن كان يقول بالحرمة رجع وصار يفتى بالحلية والله الموفق . ثم انى اقتصر على ذكر هذا القدر من الفتاوى فرارا من التطويل الممل ولى من المؤلفات تأليف فى علم البيان وءاخر فى المنطق مختصران ورسالة فى اصول الفقه واخرى فى الصرف وثالثة فى خصوص باب معرفة علامات الاعراب ، وستطبع بعد ان شاء الله .

وفى سنة ثمان واربعين من القرن الرابع عشر زرت تونس واقمت بها اياما صادفت فيها عقد امتحان امر به الباى لعدد من المتطوعين بجامع الزيتونة ليتنظموا فى سلك المدرسين الذين يتقاضون مرتبات شهرية وقد ذكر لى عددهم ونسيته ولما اخبرت بانعقاد اللجنة دخلت قاعة الامتحان واجتمعت بالشيخ بيرم وبقاضى المالكية الشيخ الصادق النيفر وباقى اعضاء اللجنة ودار الحديث بيننا فى مواضيع هامة متنوعة ، واهدى لى الشيخ بيرم رسالة فى الحمامات المعدنية من مؤلفات احد اسلافه ثم زرت مجلس القضاء الشرعى فرحب بى الشيخ القاضى المتقدم الذكر ، واجلسنى الى جانبه ، وقد رايت من هذا القاضى العلامة ما لا يدانيه فيه غيره من الفطنة وقوة الادراك والتنبه لما يجيب الاقرار والانكار من كلام الخصمين مع استفسار المدعى والمدعى عليه واستقصاء البحث معهما كما انه يعطى مجلس القضاء ما يستحقه من وقار ومهابة واحترام بحيث لا يدخل قاعة مجلس القضاء احد الا باذن حتى الخصوم، واذآ اذن للمتداعيين بالوقوف امام القاضى لا يحضر معهما احد سوى المحامى ان وجد لهما او لاحدهما من دون لغط ولآ رفع صوت ، واصحاب الدعاوى بمكان بعيد من مجلس القضاء ينتظرون ادوار قضاياهم، وبالجملة فالذى يزور هذا المجلس الموقر يرى ما تقر به عينه ويرتاح له ضميره من تمثيل القضاء الشرعى تمثيلا يذكره مجلس سحنون وعياض واضرابهما من رجال القضاء فى سالف القرون ثم انى كنت اثناء اقامتى بتونس اتردد على حلق التدريس بجامع الزيتونة فجلست مرة خلف حلقة شيخ موضوع درسه قول ابن مالك فى الفتية :

**« وربما جروا الذى ابقوا كما**
**قد كان قبل حذف ما تقدما »**

من باب الاضافة فأعرب المتن وقرر معناه تقريرا شافيا ثم استشهد كما فى المكودى بقول الشاعر :

**« اكــل امــرىء تحسبيــن امــرا**

**ونــار توقــد بــالسيــل نــارا »**

وقال نار فى البيت باق على جره بعد حذف كل المضاف المماثل لكل الاول فقلت له من خلف الحلقة : ما المانع من عطف نار على أمرىء المجرور باضافة كل ويستغنى بذلك عن تقدير محذوف يضاف الى نار ويكون مثل قولنا اكرمت شيخ زيد وعمر فعطف عمر على زيد فى المثال لا مانع يمنعه والقواعد النحوية لا توافقنا على ان نقول عمر فى المثال مضاف اليه بقى على جره بعد حذف المضاف المماثل لما اضيف اليه زيد وهو لفظ شيخ ، واذا سلكنا هذا المسلك فى كل تركيب اضافى فان باب العطف ينسد فيما يعطف فيه على المضاف اليه فأجابنى بقوله سامحنى فانى لم اطالع فنطق تلميذ بيده حاشية المكودى وقال ، ها هو المحشى تعرض للاشكال ثم اجاب عنــه فأمره الشيخ بسرد عبارة المحشى فوجدناها استوفت الغرض وأغنــت عن الزيادة فىالبحث ، وحضرت ايضا درس شيخ يقرا اصول الفقه ، اما جمع الجوامع او تنقيح القرافى فتعرض لمسألة النسخ ، وقال نسخت آية الوصية للاقربين من سورة البقرة بآية الارث من سورة النساء ، وهى قوله تعالى **«يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين» » الآية**

فقلت له لا يعزب عن سيادتكم ان النسخ لا يصـار اليه الا عند تعارض النصين ولا تعارض والله اعلم بين الايتين اذ لا منافاة فى الجمع بين ما يؤخذ بسبب الوصية ،وما يؤخذ بسبب الارث كالجـمع بيــن الفرض والتعصيب لمن يرث بهما ، وكالجمع فى الرد على ذوى السهام بعد اخذ حظوظهم من التركة عند من يقول من العلماء برد الفاضل بعد القسمة على ذوى السهام ، ثم قلت له لعل الناسخ لآية الوصية للاقربين هو حديــث « لا وصية لوارث » بناء على نسخ الكتاب بالسنة وهو اصح القوليــن . فأجابنى بقوله : هكذا قال الشارح ، وانى لا اتجاوز حكاية مــا قال . فسكت وقلت فى نفسى ان الشيخ أسير التقليد . واخيرا حضرت درس الشيخ ابن يوسف الحنفى فى تفسير قوله تعالى **« واتموا الحج والعمرة لله »** واكثر طلبة حلقته من مدرسى الكلية الزيتونية وفروعها ، وجلست قريبا منــه فابدى فى الآية من التأويلات والتوجيهات والمقابلة بين اقوال المفسريــن وترجيح بعضها على بعض ما دل على قوة عارضة ، هذا الاستاذ الاكبــر

وعلى اتساع معارفه وتبحره فى المنقول والمعقول ، فحمدت الله تعالى على وجود امثال هذا العالم النحرير فى وقتنا المظلم الذى قل فيه حامـل العلم الصحيح .

ومن الزيارات السارة بتونس انى زرت المدرسة الخلدونية فقابلنى مديرها بالترحيب وطاف بى على حجرات تعليم التلاميذ من كـل الطبقات ثم رتبهم صفا خلف صف وعقد بين تلميذين مناظرة فى الطب والمحاماة ، ثم عقد اخرى بين تلميذين آخرين فى الفلاحة والتجارة ، وكلهم اجاد واظهر من البراعة ما يستحق التقدير والاعجاب . ولقد سرنى ما شاهدت واطربنى ما سمعت فأثنيت على المدير وعلى باقى اساتذة المدرسة ، وشكرت لهـم اعتناءهم بتربية النشأ وحرصهم على تهيئته لاكتساب المعالى ، ثم التفت الى التلاميذ وقلت : انكم رجال المستقبل ، وان امتكم لتعلق على هذا المستقبل آمالا فسيحة الارجاء ، وتبنى على تلك الامال صروحا من التمنيات التى تعتقد انها ستبلغها بواسطة مجهوداتكم ، كما ان وطنكم يفرض عليكم ان ترفعوا مستواه حتى يتبوا مركزا ساميا يليق به ، وهذا يتطلـب ان يكون بين ابناء الوطن الفلاح والتاجر والطبيب والمحامى وغـير هـؤلاء ممن يشتغلون بالحرف المهمة التى بها قوام المجتمع وحفظ كيانه ، اعانكم اللـه على ما انتم بصدده ، وبلغ الشعب ما يتمناه فى شخصياتكم من الامانى ، ثم ودعت الجميع وركبت القطار الليلى راجعا الى اهلى ، ونزلت بمدينـة قسنطينة لآخذ راحتى من تعب السفر الليلى ، ومكثت بقية يومى انتظـر القطار الذاهب ليلا الى وهران ، وقد سنحت الفرصة بـزيارة الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه‌الله فاغتنمتها وزرته بمدرسته العامرة بالعلم وبطلابه ، ولما رآنى تهيأ للقيام وتاهب لقطع الدرس فأبيـت ذلك وحلفت فابر قسمى واقبل على الدرس وبعد الفراغ منه قـام فصافحنى وعانقنى واقبل على يسالنى عن احوالى وقال ، فاجاتنا بهذه المقابلة السارة التى ما كنت فى الوقت الحاضر تتخطر لنا على بال وانشد :

« ولكنـهـم جـاءوا ولـم ادر بغتـة

واعظم شىء حيـن يفجـؤك البغت »

ثم انتقل بى وببعض خواص طلبته الى بيت كتبه فقصصت عليـه بعض ما اتفق لى بتونس وسالته عن الكتاب الذى صادفته يقرا به درس التوحيد ، فقال : رسالة الشيخ محمد عبده ، وبالغ فى مدحها حتى قال انها احسن ما الف على طريق السلف فى التوحيد الغير المشوب بالفلسفة وهو ما

اتفقت عليه الشرائع السماوية وجاءت به الرسل الكرام من لدن آدم الى سيدنا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فما من رسول الا ويلغ قومه وجوب الايمان بوجود الاله الحق مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وافعالا ، كما قررته الكتب المنزلة ثم قال : والمسيحيون يزعمون انهم يعملون بتعاليم المسيح عليه السلام مع انهم يقولون بالتثليث . والكتاب الذى جاء به المسيح ، وهو الانجيل يقرر كغيره من الكتت المنزلة الوحدانية لله تعالى ، ويمنع الاشراك به عز وجل ، وسرد عبارة الانجيل من نسخة مترجمة منه الى العربية فقلت لحضرته كون الانجيل يصرح بالوحدانية لا يكفى فى افحام المسيحيين وفى ادحاض حججهم الواهية لزعمهم انهم يؤمنون بالوحدانية كما يقول الانجيل ، فاذاً استدل عليهم مستدل بكلام الانجيل يقولون لجهلهم بالوحدانية نحن لم نخالف الانجيل بل نؤمن بما يقول ، وحينئذ لا يصلح الاستدلال عليهم بما لا ينازعون فيه ، بل يسلمونه وانما الصالح للاستدلال هو ان يقال لهم الوحدانية التى يقررها الانجيل غير ما تسمونه انتم بالوحدانية وتعتقدونه لان وحدانية الانجيل عبارة عن نفى العدد بالاثنينية او بالتثليث او باكثر وعن نفى تركب الذات من اجزاء لان تلك الاجزاء وحدات تالفت فهى لا تخرج عن التعدد المنافى للوحدانية . اما الوحدانية التى جعلتموها عقيدة مسيحية وجادلتم عنها بالباطل فهى تسمية خالية من معنى التوحيد بل منافية له ومناقضة لحقيقته ، اذ هى محض تركيب من اقانيم ثلاثة او هى كما يزعم بعض فرقتهم قوة حالة فى عيسى وامه . فوحدانية الانجيل لا تدل على ما تسمونه زورا توحيدا لا مطابقة ولا تضمنا ولا التزاما ، فايمانكم بما انتحلتموه ليس ايمانابعقيدة الانجيل بل بمركباتكم التى افتريتم بها على الله كذبا والتى ادت الى اجتماع الضدين الوحدة والتركيب واجتماع الضدين فى نظر العقل السليم مستحيل ، فمذهبكم فى مسالة التوحيد هو كما قال الفخر الرازى اسمج المذاهب ، فهذا الوجه الذى اوضح جهلهم بحقيقة الوحدانية هو الصالح لمناظرتهم ورد مذهبهم الفاسد ، ومعتقدهم الكاسد . ولما بحثت مع الشيخ ابن باديس هذا البحث استحسنه وقال : هذا هو الذى ينبغى التعويل عليه ، ثم قال رحمه الله : كان المسيحيين لغباوتهم يعتقدون ان انضمام شىء او اشياء الى الوحدة سواء كان على وجه التركيب معها او حلولها فيه لا ينافيها ولا يناقضها ، ولذا زعموا انهم يؤمنون بوحدانية الانجيل ، وهم فى الواقع يكفرون بها اذ يلزم من التركيب من اقانيم او حلول الالوهية فى ذات عيسى جحود للوحدانية وعدم الايمان بها ، والقول بان لازم المذهب ليس بمذهب مقيد بكون اللازم غير بين . وهنا انتهى البحث فيما دار

بيني وبين الشيخ باديس في مسألة التوحيد .

كان رحمه الله منصفا لين العريكة وقافا عند الحق لا يتعداه ابدا سواء ظهر على يده او على يد غيره . كنت مرة كاتبته الفت نظره الى خطأ ارتكبه سهوا فى احدى فتاويه التى كان ينشرها بمجلة الشهاب فبادر الى الاعلان فى نفس المجلة بانه رجع عما افتى به خطـأ فى نازلة كذا وفـلان المهاجى هو الذى الفت نظرى الى الخطأ ، وانى بكل ارتياح اتلقى ما يرد على من التنبيهات والانتقادات النزيهة متى قصد صاحبها تحقيق الحق والرد الى الصواب كالشيخ الطيب المهاجى . وهكذا كان رحمه الله سليم القلـب طيب السريرة حسن الخلق ، ولقد ذكرنى قوله السابق فلان لفت نظرى الى الخطأ حكاية كنت وقفت عليها ونسيت الكتاب الذى وقفت عليـها فيه وحاصلها ان عالما مغربيا زار القاهرة وحضر درسا بالازهر قال صاحبه : ثبت ان النبى صلى الله عليه وسلم طلق وآلى وظاهر وبعـد ما فرغ من الدرس ، انفرد به العالم المذكور وقال له اما ما ذكرت من ان النبى صلى الله عليه وسلم طلق وآلى فنعم واما كونه ظاهر فلا لان الظهار منكر من القول وزور فاستغفر صاحب الدرس وشكر للمغربى صنيعه ثم قال له انت الليلة فى ضيافتى ، ومن الغد احضره الدرس وقال لمن فى حلقته ما قررت بالامس من ان النبى صلى الله عليه وسلم ظاهر هو منى غلط فاحش وسوء ادب مع حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم والذى لفت نظرى ونبهنى الى ما وقعت فيه من الغلط ثم الهمنى الصواب هو هذا العالم المغربى جزاه الله عنى وعنكم خيرا ، وليس من المستبعد ان يكون الشيخ باديس وقف على هذه الحكاية فاقتدى بصاحبها ، اذ كان رحمه الله حريصا على الاقتداء بالعلماء المخلصين ، ثم بعد هذه المقابلة الخاطفة الودادية التى لا يراد منها سوى زيارة المسلم لاخيه المسلم ليجنى ثمرتها، وما يترتب عليها من مثوبة، فقد روى الترمذى وابن ماجه من حديث ابى هريرة يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم :

« من عاد مريضا او زار اخا فى الله ناداه مناد من السماء طبت وطاب ممشـاك وتبوأت من الجنة منزلا » . والاحاديث فى هذا المعنى كثيرة بعد هذا ودعته واراد ان يشايعنى فأقسمت عليه ان لا يتكلف ذلك ، وافترقنا على ما اجتمعنا عليه من الحب فى الله .

وفى سنة اربع وستين وثلاثمائة والف زرت المغرب بدعوة مـن بعض اصدقائى بحاضرة فاس فنزلت بداره وصرت اثناء اقامتى اتجـول فى شوارع البلدة واقف على آثارها القديمة ومساجدها العتيقة ، واطوف

على معاهدها العلمية ومعاملها الصناعية ، ولكن التجـول بهـذه المدينة الكبيرة المترامية الاطراف ، متعب جدا لان البناءات بها لا زالت على العهد القديم لم يرسم لها وقت تأسيسها خطط هندسية ، فهى ملتوية الطرق ، وسككها ليست نافذة الا القليل وازقتها ضيقة المسالك غاصة بالمارين ، مشاة وركبانا على دوابهم ، والسير بالعربة او السيارة غير ممكن ، ولكثرة الازدحام يتعسر المشى بسرعة ، بل ربما وقف المار فى الزقاق وقتا ما ينتظر فسحة يسلك منها ويتكرر منه الوقوف المرة بعد المرة . ورغم ضيق الازقة تجد بجوانبها على طول الطريق الدكاكين المتجاورة والمصنـوعات البلدية وهى ملأى بالسلع المتنوعة والبضائع المجلوبة والمصنوعات البلدية وكلها معدة للبيع بالجملة والتفصيل ، واسواق البلدة نافقة وتجارتها رائجـة وموادها الغذائية بالنسبة الى غيرها من البلاد رخيصة وايضا بالبلد مكاتب تبيع الكتب على اختلاف فنونها ، كما تبيع المجلات والجرائد وادوات الكتابة وفى اوقات مخصوصة تباع الكتب القديمة من الخزانات التى مات اربابها او احتاجوا الى البيع منها وتجار هذه البلدة لهم مزيد خبرة بوجوه.تنمية التجارة وتوسيع نطاقها وايضا لهم مهارة فائقة فى استمالة القلوب الـى معاملتهم ، واستعطافها على الاقبال لاشتراء بضائعهم يتبرع التاجر منـهم باليمين ويبادر الى الحلف قبل ان يطلب منه ، ويقسم بالله جهد ايمانه ان هذه السلعة قد قامت عليه بكذا ، وان ثمنها ارتفع فى هذه الايام ، وانه يسقط بعض حقه ويقول لمن يساومه بعد المشاحة انى افضلك على غيرك وما الى ذلك من الالفاظ الخلابة والاساليب الخداعة التى تستهوى المساوم وتحبب له المعاملة فيقع فى الفخ ، ولو كان من احدق الناس واكيسهم ، ثم انى صادفت ايام وجودى بمدينة فاس اقامة مهرجان كبير يطلق عليه المغاربة اسم موسم مولاى ادريس ، يحتشد الجماهير من كل الطوائـف وسائر الطبقات بعدما يأتون من كل حدب وصوب بأيام قبل موعد المهرجـان ، فتكتظ بهم الشوارع وتضيق الطرقات ويتعذر المرور بالحارات ، فاذا حان موعد زيارة تـلـك الـجـمـوع لضريـح مـولاى ادريس تـراهـم يحشرون ضحـى مختلطيـن رجـالا ونسـاء حـافين مـن حـول مدفن هذا الامام الاعظم ناصر السنة ومحييها وخاذل البدعـة ومميتها ، وهم يطبلون ويزمرون رافعين اصواتهم بألفاظ مهملة لا يفهم لها معنى سوى قولهم يا مولاى ادريس ارض عنا واعنا وكن دائما معنا ، ثم يقولون «الشاى لله» امولاى ادريس . ويدوم هذا المنظر المؤسف والمشهد المؤلم من الضحى الى الساعة العاشرة صباحا او قبلها بقليل او بعدها كذلك ثم يساق عدد من الثيران المعدة لمثل هذا اليوم من كل سنة فتذبح قرب الضريح المقدس

وتفرق لحومها على بيوتات ادارسة فاس ، ولا تسأل عن ازدحام الناس على دم تلك الذبائح وفرثها ، والسعيد عندهم هو الذى تصل يده الى نقطة دم يتمسح بها او وزن ذرة من فرث يدخره للبركة ، ويعده للاستشفاء به. وهذا الذى ذكرته لك ايها القارىء الكريم قليل من كثير ، وكله يقع فى بلد طيب به كلية علمية هى من اكبر الكليات فى العالم ، واقدمها تاريخا واكثرها انفاقا للعلوم وانفعها للعالم الاسلامى ، فلا حول ولا قوة الا بالله . هذا ومن العوائد المعمول بها دائما من قديم فى يوم هذا المهرجان السنوى ختم صحيح البخارى ، ولعل هذه العادة مستحسنة او هى اخف من غيرها من تلك العوائد التى تشاركها فى الزمان ، وفى نفس المكان ، وصـــفة الختم المذكور هو ما على الكيفية الآتية يجتمع اربعون عالما بعد طلوع الفجر من يوم المهرجان بجامع مولاى ادريس قرب ضريحه وتوزع عليهم نسخة من صحيح البخارى فى اربعين سفرا فيسرد كل واحد على حدة دفعة واحدة ، وبعد فراغ الجميع يقرا احدهم على مسامع الناس الحاضريـــن الحديث الاخير الذى ختم به البخارى صحيحه ثم يتكلم على الحديث من جهة الدراية كلاما بسيطا ويختم كلامه بالدعاء بما شاء لمن شاء . هذا كل ما يقـــع فى هاته الجلسة الختامية لا اقل ولا اكثر ، وقد اتفق لى أن كنت حاضرا تلك الجلسة الحديثية فناولنى القائم بالامر سفراوكان ذلك باشارة من معارفى الحاضرين ، ولا ادرى اهذا السفر من الاربعين سفرا الموزعة ام هو زائد عليها فسردته كماامرت ثم قبل رفع الجلسة قمت خطيبا وقلت ان صـــاحب هذا الضريح له المنة والفضل العظيم على اهل المغرب حيث حمل هو ووالده اليهم رسالة جده صلى الله عليه وسلم فهداهم الله بواسطته الى الاسلام واعتناق الدين الحنيف ، وكنت اقصد بخطبتى تناول ناحية من نواحى حياة هذا الزعيم الكبير، فذكرت قيامه بالملك وتأسيســـه دولـــة عظيمة خضعت لسلطانها الممالك ، ولما سمع العلماء ذكر الملك والسلطنة ظنوا انى اتعرض فى خطبتى للسياسة ، فصاروا يتسللون لواذا ويخرجون من المسجد سراعا ، فعدلت عما كنت بصدده ، واقتصرت على الترضية عن الصحابة واهل بيت النبوة ، والذى حملنى على الكلام هو ما كنت اعتقده من ان هؤلاء العلماء لا بد وان يتناول كل واحد منهم او بعضهم ناحية من نواحى حياة هذا السيد العظيم صاحب الضريح ، وما اكثرها اذ تاريخه رحمه الله ورضى عنه حافل بالعظائم وكريم الشمائل . والكلام على تلك النواحى هو الذى تتطلبه اقامة هذه الذكرى السنوية لهذا الامام الاعظـــم القرشى لا التطبيل والتزمير وذبح الثيران ، وبعد ما فرقت الجلسة وخرجت همس احد فى اذنى وقال لى الحكومة المحلية تمنع الخوض فى السيـــاسة

منعا باتا ، وقد خشى العلماء ان تلقى عليهم المسؤولية بحضورهم لخطبتك فلذلك خرجوا سراعا . ثم قال لا يخفى عليك ان رجال الشرطة ورؤساء الادارات كلهم من طرف الحكومة الفرنسية ، واما الحكومة المغربية فهى اسم بلا مسمى لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعا ولا ضرا. فقلت له يا اخى ليس هذا من المستغرب لان الاستعمار ما تسلط على امة الا وقذف فى قلوب ابنائها الرعب بواسطة بغيه واعتدائه حتى لا تفكر فى شىء سوى ارضائه والخضوع لجبروته ، ولكن سادتنا العلماء لا يليق بمنصبهم الشريف ان يبلغ بهم الجبن الى هذا الحد بل ولا اقل منه . هذا ولم يتفق لى مدة اقامتى بفاس حضور درس من دروس الكلية القروية ولا غيرها من المعاهد لكونى صادفت العطلة الصيفية ، وقد استدعانى احد كبار العلماء لطعام العشاء بمنزله ، واستدعى معى جماعة من زملائه المدرسين بالقرويين ، وعندما استقر بنا المجلس قال احد الحاضرين لرب المنزل ايتنا بنعل النبى صلى الله عليه وسلم نتبرك بها ، فأحضرها داخل زجاجة وقال : هذه النعل الشريفة توارثها اسلافى منذ قرون، وحافظوا عليها واحدا بعد واحد الى ان وصلت الى ولا زال الناس يطلبونها منا للتبرك بها . وقد نص ابن زكرى فى حاشيته على البخارى على ان هذه النعل موجودة ببيتنا منذ القديم ، ثم ادارها على الجماعة فوضعها كل واحد منا على جبهته وصدره ودعا بما شاء . وقبل احضار المائدة سمعنا اذان صلاة العشاء فاقترح احد الجالسين تقديم الصلاة على طعام العشاء . وقال ان الجلسة تطول فمن المستحسن ان نقدم الصلاة لنتفرغ للحديث . فنطق آخر بما ورد « ارحنا بها يا بلال » فقلت هذا الحديث والله اعلم له احتمالان : احدهما هو ان يكون المعنى ارحنا بأداء الصلاة من بقاء الذمة عامرة ومشغولة بالفرض المكلفة بأدائه ومعلوم ان المكلف بعد براءة ذمته من الفرض وبعد خروجه من العهدة بادائه تحصل له راحة ، مما كان يتحمله من مسؤولية التكليف بالفرض قبل ادائه . وهذا امر وجدانى يدركه المكلف ويشعر به من نفسه فى الحالتين حالة براءة الذمة بفعل المكلف به وحالة بقاء الذمة عامرة ، وما طلبت المبادرة بفعل العبادة اول وقتها الا لتعجيل ابراء الذمة والاستراحة من مشقة التكليف بالفرض المؤدى والاخر من الاحتمالين هو ان يكون المعنى والله اعلم ارحنا بالدخول فيها لان ذلك يريحنا من التفكير فى اعراض الدنيا ومن واردات الخواطر وهواجس النفوس لاستغراقنا وقت مناجاة الله والوقوف بين يده فى عظمته وجلاله وكبريائه ، وفنائنا فى حضرته تعالى حتى عن انفسنا ، وما الى ذلك مما يعرفه اهل المقامات ويدركه ارباب القلوب من فناء وبقاء ، ومن حق يقين وعين يقين ، ومعلوم ايضا ان هذه الراحة لا

تعادلها راحة ، بل لا تقاربها ولا تدانيها . ثم قلت ، والاحتمال الاول هو الذى يناسب ان نقول من اجله ارحنا بها يا بلال . وأما الاحتمال الثانى فانه لا يصلح معه الاتيان بالحديث المذكور كما هو ظاهر ، وكلا الاحتمالين صحيح فعارضنى الجماعة وصمموا على ان المتعين هو الاحتمال الثانى وان الاول غير صحيح مستدلين بحديث : « حبب الى من دنياكم ثلاث » احداها قرة عينى فى الصلاة فقلت قرة العين فى الصلاة لا يمنع حصول الراحة بأداء ما فى الذمة وباتيان القدر المكلف به، ولم يحضرنى اذ ذاك لتصحيح الاحتمال الاول سوى ما ذكرت ومع كونه فيه كفاية صمم الحاضرون كلهم على مخالفتى وتزييف فهمى، ولكثرة المخالف سلمت تسليما جدليا، وحولنا البحث الى مسائل اخرى ذات اهمية طابت بها الجلسة ودامت حتى منتصف الليل.
ومن الغد استدعانى احد التجار من معارفى الى منزله لاتناول الفطور على مائدته يوم الجمعة، ومن عاداتهم تأخير الغداء الى الفراغ من صلاة الجمعة، فصليناها بمسجد يقرب من منزل المستدعى، وكان قد دعا معى بعض العلماء من بينهم الخطيب الذى صلينا الجمعة خلفه. ذكر هذا الخطيب قبل الخطبة الحديث المشهور الذى جرت العادة فى كثير من البلاد بتقديمه قبل الخطبة تنبيها للناس لينصتوا وهو ما رواه مالك عن ابى الزناد عن الاعرج عن ابى هريرة انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قلت لصاحبك انصت والامام يخطب يوم الجمعة » الحديث اقحم هذا الخطيب لفظة مولانا فى حكاية قول ابى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعنا على المائدة فى جملة المدعوين قلت للخطيب : اقحامك لفظة مولانا فى الرواية وقفت عليه فى بعض طرق الحديث الذى اسمعتنا اياه قبل الخطبة فأجابنى بقوله هو من عندى زدته ادبا وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت له انت بصدد حكاية ما قال ابو هريرة وهو لم يقل مولانا مع انه احرص الناس على احترام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره فقد تقولت عليه رضى الله عنه ما لم يقل ، فأعاد قوله انى سلكت طريق الادب ، ووافقه الحاضرون واستحسنوا منه ما اجاب به فقلت لهم سلوك طريق الادب انما يحسن عند ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ابتداء ، فالذكر له حينئذ يأتى ان شاء الله بلفظ السيد أو المولى او بما يختار من الفاظ التعظيم والاحترام الدالة على رفعة مقامه صلى الله عليه وسلم ، اما الحاكى لكلام المروى عنه فانه ملزوم بحكاية الالفاظ المروية نفسها لا يعدل عنها الى غيرها ولو رادفها فى المعنى فضلاً عن الزيادة عليها ، مثلا حدثنا واخبرنا وانبانا متحدة المعنى ، ولكن ارباب هذا الشأن وعلماء الحديث لا يبدلون لفظ حدثنا بأنبأنا او بأخبرنا او العكس بل يحكون ما سمع من

المروى عنه ، فاذا قال حدثنا فان الراوى عنه يتعين عليه ان يحكى اللفظ بعينه ويقول حدثنا، واذا قال المروى عنه انبأنا او اخبرنا فكذلك يتعين كما يتعين قوله حدثنى مثلا بضمير الافراد او حدثنا بضمير الجمع ، واذا نسى الراوى بعض رجال السند كان لزاما ان يقول بعد قوله عن فلان يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم او يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم واذا اراد الراوى ان ينسب شيخا من شيوخ المروى عنه لزمه ان ينبه على انه هو الذى ذكر نسب الشيخ لا ان المروى عنه هو الذى نسبه كأن يأتى بقوله اعنى ابن فلان او هو ابن فلان اوما يماثل اللفظين مما يكفى فى ان الراوى هو الناسب وما الى ذلك من الكلمات الجارية فى اصطلاحات رجال الحديث وكل هذا يفعلونه تحريا للصدق ومحافظة على اللفظ المسموع من المروى عنه حتى لا يتقول عليه ما لم يقل . وبعد هذا فليسمح لى القارىء الكريم فيما ارتكبت من الاكثار والتكرار للالفاظ لان المقام مقام اخذ ورد وافحام والزام ، فهو يتطلب توسيع الدائرة وتفسيح المجال . ولقد ظهر جليا للجماعة بما اوردته من الحجج ان زيادة الخطيب لفظة مولانا فى رواية ابى هريرة ليس من المستحسن بل ولا من الجائز ، واجمعوا فى ذلك الوقت على ان الصواب ما قلت ، وعند سفرى التمس منى الاخ الشيخ حسن المدرس بالقرويين سماع الحديث المسلسل بالمصافحة فصافحته واسمعته اياه وقد تقدم حديث المصافحة عند الكلام على سماعى للمسلسلات ، ولفظه بعد حذف السند قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

**« من صافحنى او صافح من صافحنى الى يوم القيامة دخل الجنة »**

هكذا سمعته كما تقدم من العالم الكبير الاستاذ سيدى احمد الشريف السنوسي بمكة المكرمة ، ثم بعد زيارتى حاضرة فاس زرت مدينة مكناس وعاصمة الرباط وبلدة سلا ، ولكن لم يتفق لى بها ما يستحق الذكر ، وفى طريق رجوعى الى اهلى نزلت بمدينة وجدة وصليت بها الجمعة ، ولم اجتمع فيها بأحد ينتسب الى العلم ، كما لم يجر لى بها مع فرد او جماعة ما اثبته فى تقييدى هذا الخاص باثبات ما يهم . كانت هذه المدينة خاتمة المطاف ، اذ هى آخر مدن المغرب الاقصى شرقاً واقربها الى حدود المغرب الاوسط ، وهى مدينة قديمة اسسها زيرى بن عطية المغراوى ملك الزناتة والقائم فى المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله الاموى ، وكان اختطاطه اياها سنة اربع وثمانين وثلاثمائة ، وجعلها قاعدة ملكه ، فهى احدى قواعد المملكة المغربية، ويتأخر بناؤها عن بناء مدينة فاس بما يزيد على مائة وتسعين سنة ، لان مدينة فاس اختطها مولانا ادريس رضى

الله عنه سنة اثنتين وتسعين ومائة ، ودعا لها بالبركة فاستجاب الله دعاءه واعطاه ما سأل، فاجتمع لبلدة فاس من الخيرات والمرافق الحيوية والمناظر البهية ، ورغد العيش وتسهيل طرقه وتيسير الرزق وتدفقه ما لم يجتمع لغيرها حتى قال ابو عبد الله المغيلى فى قصيدة يتشوق فيها الى فاس :

**« يا جنة الدنيا التى اربت على**

**حمص بمنظرها البهى الاجمل »**

وقال ابو الفضل بن النحوى :

**« يا فاس منك جميع الحسن مسترق**

**وساكنوك ليهنهم بما رزقوا »**

**هذا نسيمك ام روح لراحتنا**

**وماؤك السلسل الصافى ام الورق »**

**ارض تخللها الانهار داخلها**

**حتى المجالس والاسواق والطرق »**

ومن محاسن فاس التى عادت عليها ببركة مولآى ادريس كونها واسطة فى انتشار الاسلام بأرض المغرب ، وفى اظهار تعاليمه واقامة شعائره ، وكونها منذ اسست لم تزل ولن تزال تنفق من علومها ومعارفها على العالم الاسلامى وبها كلية من اكبر كليات العلوم واقدمها تاريخا ، ولما تكلم صاحب القرطاس على مدينة فاس ذكر فى فضلها حديثا ننقله عنه هنا بلفظه وسنده لنعلق عليه بالملاحظة الآتية : يقول صاحب القرطاس فى تعداد فضائل مدينة فاس :

ويكفى من فضلها وشرفها ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وصفها ، فانه وجد فى كتاب دراس بن اسماعيل ابى ميمونة بخط يده رحمه الله تعالى : « حدثنا ابن ابى مطر بالاسكندرية قال حدثنى محمد بن ابراهيم المواز عن عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن انس عن محمد بن شهاب الزهرى عن سعيد بن المسيب عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ستكون مدينة تسمى فاس اقوم اهل المغرب قبلة واكثرهم صلاة اهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق لا يزالون متمسكين به لا يضرهم من خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهون الى يوم القيامة » . انتهى كلام القرطاس .

اقول لا يخفى ان مدينة فاس المؤسسة على تقوى من اول يوم لها من الفضائل الثابتة والمحاسن المشاهدة والمزايا الكثيرة الشهيرة ما يغنى عن محاولة ثبوت فضلها بحديث لا تعرف مرتبته من جهة كونه صحيحا او حسنا او ضعيفا ، ويصعب علينا ان نقول او موضوعا ولا انه توفرت فيه شروط القبول ، ولو ان صاحب القرطاس اكتفى بما عدد لمدينة فاس من الفضائل الكثيرة ، وترك الحديث المذكور بما له وعليه لما كلفنا ابداء الملاحظة الآتية التى نحن مضطرون لابدائها لما سنذكره فيما بعد . تلك الملاحظة هى ان صاحب القرطاس ، صدر سند الحديث بالوجادة التى هى نوع من انواع كيفية تحمل الرواية وكيفية ادائها كالتحديث والانباء والاخبار والعنعنة كما هو مقرر فى علوم الحديث ومصطلحاتها ، وقد شرطوا للوجادة اذن صاحب الخط بأن يقول اذنت لك فى ان تحدث عنى بما وجدته فى خطى وهذا الشرط غير موجود فى وجادة القرطاس ، فيكون الحديث من قبيل المعلول ، وايضا لفظ وجد بالبناء للمفعول فى السند يقال عنه من هو الواجد للخط ... فالواجد كما ترى مجهول ، وجهل الراوى يقدح فى قبول روايته لعدم تحقق العدالة التى هى من شروط قبول الرواية اذ يلزم من الجهل بالراوى الجهل بعدالته اضف الى هذا ما قاله بعض من لاحظ على حديث القرطاس انه لم توجد له طريق اخرى لا عالية ولا نازلة لا فى كتاب من الكتب المعتبرة ولا فى غيرها ، وبهذا كله يعرف من جهة الصناعة الحديثية ان الحديث الذى نتكلم عليه قاصر عن رتبة الصحيح والحسن ، ولم يبق الا انه ضعيف جدا ، حيث لم يوجد له شاهد ولا متابع والله اعلم. نعم ثبت بروايات معتمدة سالمة متنا وسندا من علة او قادح ان طائفة من المسلمين لا تزال قائمة على الحق الى يوم القيامة ، ولكن كونها بالمشرق او المغرب او بالشمال او الجنوب لم يقطع بتعيينه فى محل خاص او فى جهة من الجهات الاسلامية ، والروايات المعتمدة وان اختلفت الفاظها وزاد بعضها على بعض هى متفقة فى المعنى . ولفظ البخارى فى باب المناقب من صحيحه: « حدثنا عبد الله بن ابى الاسود ، حدثنا يحيى عن اسماعيل حدثنا قيس سمعت المغيرة بن شعبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

**« لا يزال ناس من امتى ظاهرين حتى ياتيهم امر الله وهم ظاهرون»**

وبهذا اللفظ اخرجه ايضا فى الاعتصام والتوحيد واخرجه مسلم فى الجهاد من عدة طرق ، وفى بعضها لا يزال اهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة ، قال النووى فى شرحه لهذا المحل المراد بأهل الغرب العرب والمراد بالغرب الدلو الكبير لاختصاصهم بها غالبا . وقال معاذ كما فى البخارى هم بالشام . انتهى كلام النووى .

والحديث الذى ذكره صاحب القرطاس والذى نحن بصدد الكلام عليه ذكره ايضا الشيخ عليش فى باب الجهاد من فتاويه بالجزء الاول طبع مصر سنة تسع عشرة وثلاثمائة والف هجرية ، وقد ساقه ضمن ما اجاب به سؤال الامير عبد القادر الجزائرى علماء مصر عما عامله به سلطان المغرب مولاى عبد الرحمن ونصه بعد كلام طويل خصوصا وانتم جسر بينه وبين عدوه وان كنا فى اطمئنان على اقليمه من استيلاء عدو الله عليه بما فى الاحاديث الصحيحة من بقاء اهله على الحق حتى تقوم القيامة منها ما وجد بخط الشيخ المقرى ونصه من خط الفقيه المحدث العالم ابى القاسم العبدوسى حفظه الله ما نصه وجدت فى ظهر تقييد الشيخ ابى الحسن الصغير على المدونة بخط من يقتدي به ، قال ذكر صاحب كتاب نقط العروس عن ابى مطرف قال حدثنا محمد بن المواز وساق الحديث بالسند الذى ذكره صاحب القرطاس ، ولكنهما اختلفا فى اسماء بعض رجال السند وفى بعض الفاظ المتن . ففى القرطاس حدثنى ابن ابى مطر، وفى نسخة منه ابو مضر وفى الفتاوىعن ابى مطرف وفى القرطاس ، ستكون مدينة تسمى فاس وفى الفتاوى ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس وفى القرطاس اهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق لا يزالون متمسكين به بينما يوجد فى الفتاوى اهلها قائمون على الحق ، وليس هذا الاختلاف من باب تعدد طرق الحديث حتى يغتفر بل هو من عدم ضبط الراوى المشترط فى قبول روايته ان يكون ضابطا لما رواه . ولعل الشيخ عليشا اراد بالاحاديث الصحيحة ما نقلنا بعضها سابقا من صحيحى البخارى ومسلم ونحن نوافق على صحة تلك الاحاديث ، ولكن لا نوافق على قوله ، ومنها ما وجد بخط فلان لانه معلول كما تقدم بعلل اقتضت ضعفه ، كما لا نوافق على الجزم بأن الطائفة القائمة بالحق هى بخصوص مدينة فاس ، ومن حولها كما يرى الشيخ عليش ، لان المتقدمين الذين هم اعلم الناس بكلام النبوة وادراهم بمقاصد الشرع من ذهب منهم بحسب ما ظهر له الى تعيين الطائفة المذكورة ، قال انها بالشام وينسب الى معاذ . وقال آخرون هى العرب مستدلين بما فى بعض روايات مسلم لا تزال طائفة من اهل الغرب والغرب هى الدلو الكبير لاختصاص العرب بها غالبا ، كما تقدم للنووى ، ومن بين هؤلاء كما فى النووى ايضا على ابن المدينى وما نسب الى معاذ ذكره البخارى كما قدمناه وغير هؤلاء كثير ، فلو كان حديث مدينة فاس صحيحا لما ذهب المتقدمون من هؤلاء الى التأويلات والاستنباطات ، بل كانوا يقتصرون على صريح النص ويتفقون على ان الطائفة الظاهرة على الحق هم اهل اقليم فاس ، وقوفا عند النص ، ولكن اختلفوا ، فمنهم من

قال ما تقدم ، ومنهم من قال يحتمل ان تكون فى ناحية من النواحى يعلمها الله ، ومنهم من قال يحتمل ان تكون متفرقة فى الاقطار الاسلامية ، وما الى ذلك من الاحتمالات التى ذهب اليها كثير من المتقدمين ، ومع كثرتهم وبذل مجهوداتهم فى الاحتمالات والتأويلات لم يحتمل عند واحد منهم والله اعلم انها مدينة فاس بخصوصها وانما يتناولها عموم اللفظ كناحية من النواحى الاسلامية ، ومن هذا كله يتبين بوضوح ان حديث القرطاس والفتاوى العليشية ضعيف لا ينبغى ان نعتمد عليه فى حفظ الاقليم المغربى من تسلط العدو ، كما اعتمد عليه ذو الفضل المعروف الشيخ عليش رحمه الله حيث قال وان كنا فى امن واطمئنان على الاقليم المغربى من استيلاء عدو الله عليه وساق الحديث المذكور كما قدمناه مفصلا، وبعد هذا فالحامل لى على هذه الملاحظة وعلى هذا البحث المسهب هو أن بعض من فى قلوبهم مرض جعل حديث مدينة فاس بعدما وقف عليه فى القرطاس والفتاوى او فى غيرهما سلما واتخذه ذريعة للطعن فى كلام الرسول الصادق المصدوق ، وذلك انه قال ان الدولة الفرنسية استولت بعد موت مولاى الحسن على المغرب باسم الحماية ثم استعمرته استعمارا غاشما قاسيا لا هوادة فيه ولا رحمة حتى انها حاولت تنصير البربر او نصرتهم بالفعل ، وهل يوجد مكروه اخطر واشد نكاية من الاستعمار ، فأين دفع المكروه الموعود به فى حديث يدفع الله عنهم ما يكرهون الى يوم القيامة ، واين الامن والاطمئنان على اقليم المغرب من استيلاء عدو الله ، كما قال بذلك الشيخ عليش ، ومن نسج على منواله . هكذا يقول من يحاول من الملحدين الحط من كرامة الدين بواسطة حديث مدينة فاس ، ويزعم ان الواقع يرد ما تضمنه الحديث من دفع المكاره عن الاقليم المراكشى . وقد كنت منذ مدة اجبت عن هذه الشبهة التى ربما اثرت على ضعفاء المسلمين ، وقلت اذ ذاك ان الحديث ضعيف وبينت ضعفه بالادلة السابقة فى بحث الحديث المذكور، ثم قلت وحيث ان الحديث لم يثبت من طريق صحيح ولا حسن ، فهو قاصر عن رتبة الاعتبار وحينئذ فليس هناك شىء ثابت خالفه الواقع حتى يتطرق القدح فى كلام النبوة ، وقلت ايضا فى الجواب حتى ولو فرضنا على ضرب من المحال ان الحديث ثابت ما كان مخالفا للواقع اذ دفع المكروه اما صرفه قبل نزوله او رفعه بعد وقوعه فمعنى يدفع الله عنهم ما يكرهون انه تعالى يحفظهم من نزول المكروه بهم او بعد وقوعه يرفعه عنهم ، والرفع كما لا يخفى فيه نوع دفع من حيث انه ازالة ضرر. ورفع المكروه عن اقليم المغرب وقع بالفعل فقد ابدل الله تعالى الاستعمار البغيض بالاستقلال التام بواسطة جلالة مولانا محمد الخامس الذى بذل من اجل استقلال مملكته كل نفيس وغال

ورخيص وضحى بعرش اسلافه الكرام فى سبيل وطنه وتحرير امته العزيزة عليه من ربقة الاستعمار المدحور ، والذاهب بلا رجعة ، فهنيئا للشعب المغربى الابى بقضائه على الاستعمار ومحو اثره ومخلفاته من ارضهم الطاهرة . هذا وانى كما قدمت مضطر الى الكلام والملاحظة على حديث مدينة فاس والبحث مع صاحب القرطاس ، فان كنت قد اصبت فانى احمد المولى الكريم ، وان اخطأت فالخطأ امر طبيعى لمن هو قاصر مثلى واسأله تعالى ان يغفر لى خطيئتى ويتجاوز عن زلاتى بمنه وكرمه . وهنا تم الغرض من المقصد الثالث كما تم من المقصد الثانى والاول ، ومن المقدمة واتكلم الان على الخاتمة ، ثم على التذييل حسب الترتيب المتقدم فى صدر الكتاب . وقد جعلت موضوع الخاتمة كما اشرت له سابقا بعض حوادث جزائرية وهى ما يلى :



# « الخاتمة »

منذ احتلت الدولة الفرنسية ارض الجزائر والامة الجزائرية تضجر وتتضرم وتشعر بأنها مضطهدة مسلوبة الحرية ، مهضومة الحقوق فكانت من حين لآخر تثور على جيش الاحتلال الفرنسى يقودها احد زعمائها فقاوم العدو مقاومة الابطال وتقاتله قتال المستميت ، ولما كانت تلك الثورات المتداولة والمتعاقبة ، احداها تلو الاخرى تقتصر على بعض نواحى القطر ، كان الاستعمار يتغلب عليها بقوته الهائلة وبمعونة الخونة الذين باعوا ضمائرهم بأبخس الاثمان فتخمد الثورة بعض خمود ، وتبقى الامة تتحين الفرص السانحة والظروف المساعدة على القيام بثورة عامة تشمل القطر من اقصاه الى اقصاه ، وتقوم فيها الامة قومة الرجل الواحد لتقضى على الاستعمار وتخلص ارض الجزائر من قبضته ، فكان ابناء الامة البررة يتبادلون الآراء فيما بينهم ، ويعدون لهذه الثورة العامة عدتها وينظمون كيفية سيرها ويرسمون لها الخطط التى يجب اتباعها ، ثم اسسوا مراكز فى الخارج تغذى هذه الفكرة وتمدها بكل ما من شأنه ان ينميها ويسدد خطاها . وبعدما نضجت تلك الفكرة وتهيأت اسبابها ، اعلنت سنة اربع وسبعين وثلاثمائة والف هجرية ، وفى اربع وخمسين وتسعمائة والف مسيحية ، وتمركزت اولا فى جبل الاوراس ، وقسم رجال الجبهة وجيشها القطر ولايات كل ولاية تشتغل بما كلفت به من الاوامر الصادرة من رؤساء جيش التحرير الذين هم على اتصال دائم بينهم وبين كل ولاية، كما ان بين الولايات نفسها اتصالات يعبر عنها بالخيوط، وبالجملة، فالانظمة الحربية والترتيبات الادارية التى اتخذها جيش التحرير يعجز عنها اكبر متخرجى الكليات الحربية . وفى مدة وجيزة اتسع نطاق الثورة ودوى صداها فى انحاء المعمورة ومن حسن الحظ ان النصر دائما حليف جيش التحرير فى كل معركة وفى كل اشتباك وفى كل غارة يغيرها على مراكز العدو فيكبده الخسائر الفادحة فى الارواح والعتاد . وقد جلب الاستعمار للجزائر من جيوشه ايام الثورة ما يفوق ستمائة الف جندى مجهزة بالاسلحة العصرية من دبابات ومدافع بعيدة المدى ، وطائرات مقاتلة ومطاردة ، مع استعمال الغازات الممنوعة قانونا ، وكل هذه القوات ، وتلك المعدات الكثيرة الانواع ، لم تكتف بها الحكومة الفرنسية ، واستعانت بحلفائها على حرب الجزائر ، فكانت

مساعدتهم ترد باستمرار ، وبدون انقطاع ، تلك المساعـدة التى لولاها ما وفقت الجيوش الفرنسية لحظة امام جيش التحرير . ورغم ما للجيوش الفرنسية من القوة والمساعدة الخارجية تتوالى عليها الهزائم المنكرة ، بحيث كانت لا يستقر لها قدم امام رجال الثورة، واذا استشهد من ابناء الامة اثنان او ثلاثة فى معركة من المعارك، مات من الجيش الفرنسى الثمانون والمائة ثم ينسحب من المعركة تاركا سلاحه وذخائره غنيمة للمجاهدين وقتلاه فريسة للوحوش والطيور . وبعدما يمنى هذا الجيش بالفشل والهزيمة ويرجع بالخيبة يعمد الى الانتقام من الابرياء العزل ، فيقتل حتى النساء والصبيان والشيوخ ، ويرتكب اعمالا وحشية تشيـب الطفـل من قبل المشيب . يجمع هذا الجيش الضارى الرجال والنساء امام منازلهم ويسوقهم الى الموت وهم ينظرون ، فيرميهم بالرصاص واحدا بعد واحد ، ويمثـل بهم اشنع مثلة ، ثم يذبح صبيانهم فوق صدورهم ، بل بلغ الحقد بـهـذه الوحوش الضارية الى ان يأخذ الجندى منهم الصبى الرضيع من حجر امه ويرمى به للكلاب التى اعدها لتفترس الجزائرى .

ولم يكف الحكومة الفرنسية فى شفاء غليلها هذه الجرائم الفظيعة والاعمال الشنيعة التى يقوم بها جنودها بالحواضر والبوادى ، وابـت الا ان تدمر المنازل وتخرب البيوت ، وتنهب الاموال وتتلف الحيوانات ، وتحرق المزروعات ثم التفتت للبقية الباقية من ابناء الامة فسجنت ونفت واعتقلت بعد تعذيب المقبوض عليه بأنواع من العذاب لا تطاق ، حـيث يقيد من خلف ثم يرسل عليه شواظ الكهرباء ، ويكوى بالحديد المحمى ، ويصب الماء فى منافذه حتى يمتلىء بطنه فيداس بالارجـل الى ان يغشى عليه . وقد تخرج روحه ويلفظ انفاسه الاخيرة ، وكل هذا يقع تحت رحمة البوليس السرى الذى لم يقنعه الا ان يعلق هذا المسكين المقبوض عليه فى طول خشبة او سارية منسكا راسه الى اسفل ورجلاه الى اعلى ، ولا يخطر على بالك ايها القارىء الكريم ان فى هذا نوع مبالغة ، بل ما حكيت الا الواقع ، وهو قليل من كثير ، وهو الصادر من دولة تزعم انها متمدنة راقية ديموقراطية ، جاءت الى القطر الجزائرى لتنظم احواله ، وترفع مستواه ، ولكنها كاذبة فى كل ما تدعيه والافعال كما قيل تكذب الاقوال فأعمالها بالجزائر بعد استعمارها ما هى الا سلب حريـات وهضم حقوق وتجريد لابناء الجزائر من خيرات بلادهم ، ثم التنكيل بهم ، الامر الذى دل دلالة واضحة على ان فرنسا منحطة الى اسفل درجة عريقة فى الهمجيـة فاقدة كل مزية انسانية لا شعور لها بالواجب ولا احساس لها بما يرفع قدرها

او يخفضه ، وكل هذه القسوة والغلظة والمضايقة التى ارتكبها الاستعمار وقابل بها الامة الجزائرية قد تلقتها بثبات نادر وصبر منقطع النظير دام ست سنوات ، ولا زالت مصممة على الكفاح مثابرة على المقـاومة ، لا يزيدها ما يسومها به الاستعمار من سوء المعاملة الا شجاعة واقداما وامضاء عزيمة على ما ثارت لاجله حتى ترده من يد الغاصب ، كاملا غير منقوص الا وهو حريتها واستقلالها اللذان بذلت لنيلهما النفس والنفيس والغالى والرخيص ، وضحت بابنائها وافلاذ اكبادها ، وكان اول شهيد استشهد من ابناء الجزائر فى سبيل الوطن هو ولدنا السيد القاسم ، وباستشهاده نالنى من الكوارث التى حلت بالجزائر الحظ الاوفر ، والنصيب الاكثـر ان لم اقل اصبت بما لم يصب بمثله غيرى، فقد كان هذا الولـد البـار الانجب هو ثمرة عملى ومنتهى املى ورزقى الحسى والمعـنوى الدنيوى والاخروى ، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنـوات وحـاز شهادة اللـغة الفرنسية وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم صار يحضر دروسى المتنوعة بجد واجتهاد ومزيد اعتناء مع ذكاء القريحة والفهم الثاقب والحرص الدائم حتى حصل على ما عندى، ثم سافر الى حاضرة تونس فتلقى بالكلية الزيتونية من اساتذة جلة ما وافق مشربه واصطفاه لنفسه من العلوم الراقية ، ثـم تاقت نفسه الوثابة الى المزيد ، وقد ورد منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم فخرج يؤم القاهرة برخصة حصل عليها من تونس ، بعـد مشقة، والتحق بكلية العلوم من جامعة فؤاد بعد امتحانات اختبرت بها مقدرته فاستغرقت اقامته بهذه الكلية ، وما ادراك ما هذه الكلية ، اربع سنوات نال فيها شهادة عالية ، وقد شارك فى علوم الكلية على اختلاف انواعها ، ثم تخصص فى آداب اللغة ، وكان بعد تمكنه من اتقان الـقواعد العربية وقوانينها العاصمة للسان من الخطأ يحسن خمس لغات اجنبية فى مقدمتها اللغة الانجليزية ، وقد اشار عليه بعض اساتذة الكلية بأن يتجنس بالجنسية المصرية ليتاح له التدريس بالقطر المصرى فأبى الا ان يبقى على جنسيته الجزائرية ، ثم عرض عليه التدريس بالكويت فوقف ذلك على استشارتى فأبيت وحتمت عليه العود الى الوطن الذى هو فى الوقت الحاضر احوج ما يكون لامثاله، فامتثل وعاد من فوره يحمل علما نافعا ومعارف واسعة ، جالبا معه كمية كبيرة من الكتب فى علوم مختلفة جلها فى علم الاجتـماع والاقتصاد والعلوم الطبيعية بالعربية والانجليزية والفرنسية ، ومنذ فقد بقيت تلك الكتب فى زوايا الاهمال ، قد نسجت عليها العنكبوت واكلت اكثرها الارضة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكان قد نظم لهذه الكتب مكتبا خاصا ورتبها كل فن على حدة ، وعليه ارقامه الخاصة

به ثم جهز هذا المكتب بأدوات الكتابة وآلة الطباعة واعتكف فيه على المطالعة والكتابة ، بحيث لا يخرج الا فى اوقات قليلة مناسبة يأخذ فيها راحته وافراد العائلة كلهم ينظرونه بعين الاجلال والاكبار مغتبطين بوجوده بينهم ويرغبون فى ان لا يفارقهم طرفة عين لما هو عليه من كرم الاخلاق والشيم ، فقد كان خفيف الروح رقيق الطبع طيب الحديث ، حسن العشرة حتى مع الاجانب ، فكانت رسائل الصداقة ترد عليه باستمرار تأتيه من امريكا وهولندا وايطاليا ، يكاتبه بها اساتذة واساتذات كانوا يتوددون اليه ويتودد اليهم ايام كانوا فى سياحتهم بمصر فتأكدت بينه وبينهم روابط الصداقة والمودة ، ودامت كتابتهم اليه حتى اخبرتهم بأن صديقكم قد اغتيل وذهبت نفسه الزكية ضحية الغدر والمكر والفساد فى الارض .
وهكذا بعدما اجتمع شملى وقرت عينى ببلوغ آملى وتمت على نعمة ربى بولد كنت ارجو ان لا ينقطع عملى بواسطة دعائه لى بعد مماتى ، وقد ورد اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث احداهما ولد صالح يدعو له بعد هذا كله قبض عليه ، ولم يمض على عودته من مصر سوى اربعة اشهر وفى اليوم الثالث من قيام الثورة الجزائرية هجم عليه البوليس السرى وساقه الى السجن ثم سلط عليه اعوانه القساة القلوب الغلاظ الطبع ، فعذبوه عذابا لا اظن ان احدا عذب مثله ، على امل ان يبيح لهم بأسرار جبهة التحرير الوطنى التى هو احد رجالها ، ومن كبار المسيرين لها . كان يتردد بين القاهرة وباريس لمأموريات تكلفه بها الجبهة ، وكانت الحكومة الفرنسية على علم من ذلك كله بواسطة عيونها والمتزلفين لها ، لهذا قبضت عليه بمجرد قيام الثورة ونكلت به تنكيلا على ما ذكرنا ، ولما اعياها امره بعد تهديده بالقتل وبعد تصميمه على التضحية بنفسه العزيزة نقلته الى الجزائر العاصمة ليجدد له البحث هناك ، ولكنه نقل مأيوسا من حيلته ، اذ لم يلبث فى ادارة البوليس السرى بالعاصمة الا عشية او ضحاها حتى زهقت روحه الغالية ، وذهبت نفسه الزكية من شدة آلآم المعاملة القاسية التى كان يعامل بها فى سجن ادارة البوليس بوهران ، ولقد عصمه الله تعالى من ان يعامل بمثلها فى العاصمة فنقله الى جواره بعدما اكرمه بالشهادة . ولما صار امام موظفى الادارة بالعاصمة جثة هامدة لفوه فى خرقة وحملوه مسافة اربعين ميلا من البلد والقوه فى البحر ليلتقمه الحوت ولكن البحر ابى ان يشارك فى هذه الجريمة الفظيعة ، فلفظه بالساحل حيث وجد جثمانه مهشما واوصاله متقطعة حسب ما نشرت جرائد فرنسية باريسية فى افتتاحياتها بعناوين ضخمة . ولما استفسرت المراجع العليا عما نشرت تلك الصحف ، نفت ان يكون لها علم بذلك ، وانما الذى فى علمها هو

ان الولد هرب من السجن وانها اصدرت عليه الحكم فى غيبته بخمس سنوات سجنا وبخمس نفيانا وبغرامة قدرها من الفرنكات مائة الف وسبعون الفا . هذا ما اجابتنى به تلك المراجع تحاول عبثا أخفاء اعمالها الوحشية المنافية للانسانية بتمويهات واكاذيب يكشفها الواقع المشاهد ، نعم لا يستغرب ما يصدر من الاستعمار مهما اشتد قبحه وعظمت فظاعته ، اذ عودنا ما يرتكبه دائما من البغى والظلم والطغيان والحيف وهضم الحقوق وسلب الحريات ، ويكفى الاستعمار عارا وشنارا تسلطه على الامم الضعيفة ، والسيطرة عليها لا لشىء سوى انه قوى وهى مستضعفة ، هذا وانى اشكو بثىء وحزنى الى الله واسأله ان ينتقم لى ويأخذ من بغى على اخذ عزيز مقتدر ، وهو الولى الحميد ، نعم المولى ونعم النصير ، وقد علقت الجرائد والمجلات العربية على اغتيال هذا الولد الزعيم وذكرت الحادث فى وقته وضمنت تعاليقها تحليل هذه النفس العبقرية بما ركب فيها من الكمالات الانسانية ، وبما جبلت عليه من التوقان الى معالى الامور والحرص على اكتساب المحامد وشادت تلك الجرائد والمجلات بما لصاحب هذه النفس الكبيرة من خدمات قدمها لامته ولوطنه ، ومن اعمال جليلة قام بها للنهوض ببلده ، كما شهدت له بذلك لياليه وايامه التى افناها وراء السعى فى جلب ما يعود من الخير والهناء على ابناء جنسه . ولقد استلفتت تلك الجرائد والمجلات الانصار بنوع خاص الى ما ابداه عند التنكيل به من الثبات وربط الجأش والطمأنينة ، ولم يرهبه القتل المهدد به والذى هو على تحقيق منه انه نازل به بعد لحظات، وصبر صبر من هو على يقين انه قادم على سعادة ابدية، وانه تارك بعده ذكرا حسنا واحدوثة طيبة ، فقتل صبرا ولسان حاله يقول مقالة خبيب رضى الله عنه حين عاين القتل :

**« ولست ابالى حين اقتل مسلما**

**على اى شق كان لله مصرعى »**

رحمه الله والحقه بصالح سلف المؤمنين ، ثم انى قدمت ان هذا الولد هو اول شهداء الثورة ، اذ قضى نحبه فى السابع او الثامن من قيامها ، وكان حادث اغتياله من اكبر حوادث الجزائر ايام الثورة ، ومن اشدها تأثيرا واكثرها استياء لدى الراى العام الجزائرى ،ومن اهم حوادث الثورة ايضا واقوى ما شد ازرها وساعدها على تعزيز مركزها ورسوخ قدمها اكثر منذ قبل هو ان زعماء الجبهة وجيشها لما تحقق فى نظرهم الصائب ان الثورة قد نجحت ، وتبين لهم واتضح لديهم ان الامة حريصة كل الحرص على ان تكون لها من وقتئذ سيادة تنتظم بواسطتها فى سلك الدول المستقلة التى

تمارس شؤونها بنفسها وتطالب بكل حق لها طبيعى ، لما تحقق فى نظرهم كل هذا مع كونهم استيقنوا ان جيوش الاحتلال الفرنسى عاجزة عن رد تيار الحركة الجزائرية اسسوا فى الخارج حكومة جمهورية مؤقتة ريثما تستقر الامور فى نصابها فتنتخب الامة لجمهوريتها من تختار من رجالها وزعمائها وكان تأسيسها سنة ست او سبع وسبعين من القرن الرابع عشر الهجرى وهى سائرة الآن فى طريق التقدم بسرعة مدهشة يدير شؤونها رجال اوفياء صدقوا ما عاهدوا امتهم عليه من الوصول بها الى الغاية التى صممت على بلوغها مهما كلفها ذلك ما كلف ، فالتفت حولهم والقت مقاليدها اليهم ، وجعلت زمام امرها بأيديهم ، فكانت جمهوريتهم حكومة شرعية قانونية اعترفت بها كثير من دول العالم، ومن لم يعترف بها قانونيا ساعدها ماديا ومعنويا ما عدا حلفاء فرنسا . ولا زالت هذه الجمورية الفتية تتطور والظروف تساعدها والايام تخدمها ، وعما قريب تحتل مكانا عليا وتتبوا مركزا ممتازا بين الامم . وكل آت قريب ، ثم ان هذه الثورة المباركة ليست بحادثة صغيرة حتى يكفى فى الكلام عليها الكرستان والكراريس ، بل هى من العظائم والوقائع الجسام التى هى غرة فى جبين الدهر والتى تتطلب مجلدات يدون بها ما لهذه الثورة من ادوار هامة وحوادث جسيمة عامة وتطورات وانقلابات فجائية ، ويخلد بتلك المجلدات ايضا ما لجيش التحرير من بطولة وشجاعة واقدام ، وما لرجال الجبهة من مواقف شريفة ، ومشاهد عظيمة ، شهد لهم فيها باصالة الراى وبعد النظر واصابته ، وكذلك يسطر ما بذلت الامة الجزائرية من الارواح والاموال وتحملت من اضطهاد وارهاق وما وطنت نفسها عليه من تعذيب وتنكيل فى سبيل التخلص من نير الاستعمار . كما يسجل بتلك المجلدات على الاستعمار الغاشم ما ارتكب من اعمال وحشية وجرائم فظيعة لم يسبق لها مثيل حتى يبقى كل ذلك مخلد بين دفتى التاريخ ، تقف عليه الاجيال المقبلة ، فتاخذ منه عبرا وذكريات ، وحيث ان الثورة لا زالت تتطور ولم تبلغ مرحلتها الحاسمة ارجأت الكلام على تفاصيل ما وقع منها ، وما سيقع الى ان يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ولو كره الاستعمار واعوانه ، ولكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون. وهنا انتهى الكلام على الخاتمة ، ويليه الكلام على التذييل ، وهو آخر محويات التقييد .



# « التذييل »

وقد تقدم ان موضوع التذييل هو ذكر نسبى ونبذ من تراجم بعض اسلافى ، مع بيان المراجع التى اعتمدت عليها فى ذلك وها انا اقول ان للعرب مميزات انفردت بها واشتهرت عنها بحيث لا توجد فى غيرها من الاجناس الا نادرا ، من بين تلك المميزات اعتناؤها بانسابها وبمعرفة اصولها، وان علت مع مزيد من الخبرة بما تنسل من تلك الاصول من الفصائل والافخاذ والعشائر . وكانت معرفة الانساب عند العرب سجية جبلت عليها فطرتهم ، حتى انك تجد العربى يعد من آبائه العشرة والاكثر وقد قيل ان الامام الشافعى رضي الله عنه سئل عن نسبه فرفعه الى آدم ومن اجل هذا الاعتناء الذى امتاز به العرب ، كانت انسابهم محفوظة بخلاف غيرهم من الامم ، فقد قال الفقهاء من قال لعربى يا عجمى حد حد القذف لانه طعن فى نسب معروف محفوظ بخلاف العكس ، وهو ان يقول شخص لعجمى يا عربى ، لان العجمى المخاطب بالنداء لا تلحقه بذلك معرة، بل ربما كان له مدحا ، والفرق ان انساب العرب كما قلنا محفوظة . ومزية الاعتناء بالانساب، وان كانت من شعار العرب ، هى مطلوبة من جميع الناس كما يشير الى ذلك قوله تعالى :

**« يايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .»**

فالتعارف امر ضرورى للبشر حتى لا ينسب احد الى غير آبائه ولولا معرفة الانساب لفات الوقوف على ذلك وتعذر الوصول اليه ، وايضا قد تدعو الحاجة الى معرفة النسب فى كثير من المسائل الشرعية مثل تعصيب الوراثة وولاية النكاح والعاقلة فى الديات والعلم بنسب النبى صلى الله عليه وسلم ، وانه القرشى الهاشمى الذى كان بمكة وهاجر الى المدينة فان هذا من فروض الايمان ، ولا يعذر الجاهل به وكذا الخلافة عند من يشترط لها النسب القرشى ، وهم الجمهور لظاهر حديث الائمة من قريش او الخلافة فى قريش فلولا ثبوت النسب ما عرفنا القرشى من غيره ، وكذا من يفرق فى الحرية والاسترقاق بين العرب والعجم فيقول العربى لا تجرى عليه الرقية . وهذا كله يدعو الى معرفة الانساب . ويؤكد فضل هذا

العلم وشرفه ، ولا وجه للقائل بمنعه وما ورد فى ذم علم النسب او فى منعه فقد رده ابن خلدون او اوله بما لا ينافى الجواز او الطلب كما يعلم بالوقوف على كلامه فى كتابه العبر ثم لا يخفى ان نسب النبى صلى الله عليه وسلم يرفع الى عدنان باتفاق المؤرخين ، وفيما بين عدنان واسماعيل عليه السلام خلاف فى العدد وفى لفظ الاسامى بعد اتفاقهم على ان النبى صلى الله عليه وسلم من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه وعليهما افضل الصلاة وازكى التسليم . ولما كانت قريش اقرب بنى عدنان الى النبى صلى الله عليه وسلم كانوا اشرف العرب العدنانيين والقحطانيين ، كما ان بنى هاشم اشرف قبائل قريش لكونهم اقرب القرابة الى النبى صلى الله عليه وسلم اذ هو كما لا يخفى سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الجد الثانى له صلى الله عليه وسلم . وبنو هاشم هم آل البيت الذين تحرم عليهم الصدقة الواجبة ، وقيل والمتطوع بها ايضا لانها اوساخ الناس تنافى نفاستهم وشرفهم المؤبد ، ولم يذكر من عقب هاشم سوى عقب عبد المطلب وكان بنوه عشرة منهم عبد الله ابو النبى صلى الله عليه وسلم وهو اصغرهم ، ولم يسلم منهم ممن ادرك البعثة سوى حمزة والعباس . اما عقب حمزة فقد انقرض . ومن ذرية ابى لهب ابنه عتبة صحابى ، واما عقب العباس وابى طالب فأكثر من ان يحصر ، وهؤلاء كلهم يطلق عليهم أنهم اهل البيت النبوى ، وكلهم ثبت لهم الشرف الخاص الذى يحرم عليهم بسببه اخذ الصدقة كما تقدم ، والذى يجب لهم بواسطته مرتب يومى او شهرى او سنوى فى بيت مال المسلمين يصونهم عن التطلع لما فى ايدى الناس الا ان العرف الجارى منذ زمن بعيد خص شرف اهل البيت بمن تنسل من سيدتنا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلق عليه الشرف الفاطمى ، وقد انحصر فى ولد الحسن والحسين ابنى على بن ابى طالب رضى الله عنه ، فمن ولد الحسين على زين العابدين ومن ولده ايضا على الاصغر قال الاصمعى : ونسل الحسينيين كله من ولد على الاصغر زين العابدين، فهو ابو الحسينيين كلهم وولده محمد الباقر ، وابنه جعفر الصادق وابن ابنه موسى الكاظم . واما على الاكبر فقتل مع ابيه الحسين رضى الله عنهم اجمعين ، ومن ولد الحسن السبط زيد والحسن المثنى وابنه عبد الله الكامل والد ادريس الاكبر الذى ينتسب اليه الادارسة بأرض المغرب ، ولم يخلف ادريس سوى ادريس الاصغر ، تركه فى بطن امه فبويع له حملا ثم رضيعا ثم فصيلا الى ان كبر واستتم فبايعوه بجامع وليلى سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن احدى عشرة سنة وهو الذى اختط مدينة فاس وانشأ بها من العمارة ما بقى اثره الى اليوم وتوفى رحمه الله سنة

ثلاث عشرة ومائتين . وكانت ايامه بالمغرب ستة وعشرين عاما ، وخلف من الاولاد الذكور اثنى عشر وهم محمد وعبد الله وعيسىوادريس واحمد وجعفر ويحيى والقاسم وعمر وعلى وداوود وحمزة. وقام بالامر من بعده ابنه محمد بعهد منه اليه، وهو اكبر اخوته المذكورين . ومحمد هذا هو الذى يتصل به النسب المهاجى حسبما وقفنا عليه فى عدة مصادر موثوق بها ، منها جوهرة العقول فى آل الرسول لسيدى عبد الرحمن الفاسى والدرة الوهاجة فى نسب مجاجه والقول الاعم فى بيان انساب قبائل الحشم وكتاب الاعتبار فى ذكر آل النبى المختار والقصيدة المسماة بغية الطالب فى ذكر الكواكب المنسوبة لسيدى عيسى بن موسى وشرحها للشيخ محمد بن الاعرج الغريسى كما يوجد اتصال النسب المهاجى بمحمد بن ادريس بكثير من التقاييد بخط جماعة من مشاهير العلماء ، وعلى عدد منها خواتم لبعض الامراء فى عصور مختلفة . ثم اعلم ان مساكن السادة مهاجة متفرقة فى قبائل بنى عامر ، ولا نعلم ان منهم من يسكن بلدا غير بلد بنى عامر . وقد اشرنا الى ذلك عند الكلام على القبائل العامرية . ويرجع سلف مهاجة الى الادارسة الذين استقروا بالمغرب الاوسط عند سقوط دولتهم على يد بنى العافية حين نجا منهم من نجا فانتشروا بين قبائل زناتة والبربر هنالك ولحق بهم من بقى منهم بالاندلس عندما اجلاهم من قرطبة الحاكم الاموى الملقب بالمستنصر بالله ، وحملهم فى اسطول انزلهم بمرسى مدينة تنس وبمرسى بنى مصاف من ارض الجزائر، وذلك فى سنة خمس وستين وثلاثمائة ومن نسل هؤلاء الادارسة سيدى ميمون مجتمع شرفاء مهاجة، وكان مع اخيه سيدى ايوب يسكنان فى قبيلة اولاد سليمان بمحل يعرف بالمبطوح ، ولهما به مدرسة يعلمان فيها العلوم على اختلاف انواعها ، وكانت الكرامات تظهر على يدهما فى كثير من الاحيان، اشار الى بعضها سيدى عيسى بن موسى فى منظومته المذكورة قبلا حيث قال رحمه الله ونفعنا ببركته :

**« وميمون ايوب المهاجى شقيقه**

**ضياؤهما فى شرقنا والمغارب »**

**« وفى البطحة الخضراء سرهما بدا**

**وجاءهما يشكو هزير الكتائب »**

**« فما هما فى البطحاء الا فريدة**

**حواها نظام المجد من كل جانب »**

**قال شارح المنظومة بعد ان بين الكرامات المشار اليها فى الابيات**

فالناظم قصد بالنظام ما احاط بهذين السيدين من الكمالات من نسب فاطمى وعلم وعمل وهدى وورع واستقامة وجاه وصلاح وولاية ، انتهى . وبمحل السيدين المذكورين مقبرة قديمة تعرف الى الوقت الحاضر بمقبرة سيدى ايوب ، يتنافس الناس فى دفن موتاهم بها . وهذا هو عمود نسب سيدى ميمون ، كما وجد بخط من يوثق بهم من الذين كتبوا فى الانساب ، هو ميمون بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عيسى بن يحيى بن عمران بن ابراهيم بن على بن الحسين بن احمد بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن ذرية سيدى ميمون سيدى ابراهيم المهاجى دفين واد ابن سواس من ارض غريس ، وهو الذى يجتمع فيه معظم شرفاء مهاجة كما قال صاحب جوهرة العقول ، ولم يكن بينه وبين سيدى ميمون سوى اب واحد فهو ابراهيم بن محمد بن ميمون ، ولما كان النسب المهاجى متفرعا الى فروع كثيرة ومتشعبا الى افخاذ وفصائل وعشائر متعددة بحيث يتعذر او يتعسر استيفاء الكلام على تلك الفروع جميعها واستيعاب فصائلها وعشائرها كلها اقتصرت على ذكر بعض من اشتهر منهم بهذا النسب الرفيع ، وهم اولاد سيدى الهاشمى ، ومن مشاهيرهم الشيخ سيدى ابن سعيد شيخ الطريق الدرقاوية وابنه العلامة الشيخ سيدى عبد القادر المهاجى المهاجر فى سبيل الله والمدفون بالمدينة المنورة على صاحبها افضل الصلاة وازكى التسليم ، والفقيه سيدى المولود بن البشير وسيدى مولاى احمد القصير المهاجر بفاس المحروسة ، وكلهم ادركتهم واولاد سيدى ابى راس ، ومن اعيانهم القاضى سيدى الحاج المختار وانجاله الكرام ، واولاد ابى كلمونة ، ومن اشهرهم الزعيم السيد الحبيب ابو كلمونة وابنه تلميذنا السيد الصحراوى وابن اخيه الفقيه السيد عبد السلام المتخرج من مدرسة مزونة واولاد سيدى ويس ومن افاضلهم السيد الحبيب بن ويس وابنه ذو الكرم الحاتمى القائد السيد عبد القادر والسيد محمد بن الاخضر المهاجى بحاضرة فاس وحفيده العلامة الاستاذ الشيخ الحبيب احد اعيان علماء القرويين ، واولاد عبد الرزاق ، ومن شخصياتهم البارزة السيد الحاج المولود تولى منصب القيادة فى العهد الفرنسى ، وابنه باش آغة السيد الحبيب وابن عمه المشهور بالفضل والكرم السيد الحاج ابو زيان واولاد سحنون ، ومن علمائهم السيد مولاى احمد وابنه الفقيه السيد المولود وابن عمه شيخ طلبة القرآن السيد الحاج ابن سحنون واولاد سيدى العربى . وهذه الفروع كلها مستوطنة قبيلة اولاد سليمان احدى قبائل بنى عامر المار ذكرهم ، واولاد سيدى الفريج ،

ومن شجعانهم واسخيائهم السيد الحاج بن عبد الله احد المجاهدين والملازمين للامير عبد القادر فى السراء والضراء ايام ولايته وابنه العلامة الاستاذ شيخنا المفضال الشيخ سيدى الحاج محمد وحفيده صديقنا الملاطف الفقيه السيد محمد الملقب بمكنوس ، واولاد مفلح عرفوا بالعرابية ، ومن احذقهم واكيسهم العالم السيد احمد بن مفلح ، وابنه الفقيه السيد قدور ، واولاد سيدى سعيد ، وهذه الفروع الثلاثة مساكنهم بقبيلة اولاد على احدى قبائل بنى عامر ، وكل فرع من تلك الفروع العشرة يرفع نسبه الى سيدى ابراهيم بن سيدى ميمون ، هذا ولا يشك شاك ولا يتوهم متوهم ان اقتصارى على هؤلاء الفروع وافرادهم بالذكر يخرج غيرهم ممن يدعون لانفسهم النسب الهاجى ، اذ ليس فى استطاعتى اخراج من يحاول الدخول فى هذا النسب المتشعب الفروع ، وانما الذى هو فى استطاعتى ان اقوله والحق ما اقول ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بعرفة من قوله فى خطبته المشهورة ، ومن ادعى الى غير ابيه او مولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، لا يقبل الله له صرفا ولا عدلا وفى استطاعتى ايضا ان اقول الذى يدور عليه امر الافضلية هو تقوى الله تعالى التى لا فضل يقاربها ولا شرف يدانيها . قال الله تعالى :

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم »

وفى الحديث :

« لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى »

وفيه ايضا :

« من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه »

ثم انه تقدم ان كل فرع من تلك الفروع العشرة يرفع نسبه الى سيدى ابراهيم بن محمد بن ميمون ، وان من تلك الفروع اولاد سيدى الفريح الآتية اسماؤهم مع ذكر من تنسل منهم . وسيدى الفريح هذا هو الجد الخامس لى فانا الطيب بن المولود بن مصطفى بن محمد بن مصطفى ابن الفريح بن محمد بن ابراهيم بن مفلح بن الكندوز بن احمد بن ايوب بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن ميمون الذى تقدم ان بينه وبين ادريس الاصغر احد عشر ابا . اما والدى المولود فكانت له مشاركة فى الفروع الفقهية، قرا مختصر خليل على الشيخ سيدى الطيب بن البشير الشرفى المتقدم الذكر كما قرا على شيخنا العلامة الشيخ سيدى الحاج محمد احد بنى عمومته ، وقرا القرآن على والده ، ولفقره تصدى لتعليم القرآن بالاجرة ، وقد قدمنا حكم

اخذ الاجر على تعليم القرآن كما نسخ بيده مصاحف كثيرة ، وكان الوسط الذي هو فيه يحكمونه فى النوازل فيحكم بينهم بما اراه الله بدون حيف ولا ميل لاحد الخصمين ، فكانوا لهذا يقدمونه على غيره فى التحكيم ، ويرضون بحكمه ، ويسلمون تسليما ، وكان مشهورا بكتابة الوثائق ويتقنها اتقانا ويحكمها احكاما كل لفظة نص فى معناها لا يتطرق اليها احتمال ولا قبول تأويل ، ولا يمكن انكار ما فيها بوجه من الوجوه ، وتحت يدى بعض منها لم اثبته بهذا التقييد لمخالفته للقواعد العربية فى بعض التراكيب وكان رحمه الله لا يحسن القواعد النحوية شأن فقهاء البادية ، وقد صار فيما بعد يأسف كثيرا على ما فاته من تعلم النحو ، ويوصينى بالاجتهاد فى تحصيله ، وقد عملت بوصيته فحصلت منه على القدر الكافى ،وكان رحمه الله تعالى على شدة فقره مشهورا بالكرم حتى انه فى بعض الاحيان ينزل به الضيوف فيرحب بنزولهم ثم يذهب يتسلف من الجيران ما يقدم لضيوفه من القرى، ويقال الكرم الحقيقى ما كان عن قلة ، قال الشاعر الحكيم :

« ليس العطاء من الفضول سماحة

حتى تجود وما لديك قليل »

ومع ما عليه من ضيق حال وفراغ يد هو شديد الورع ، ومن ورعه العديم النظير ما تضمنته الحكاية الآتية وهى ان الحكومة الفرنسية لما رسخ قدمها وتعزز مركزها بالوطن الجزائرى المصاب باستعمارها الجائر كلفت من جهتها مهندسا يقرر ملكية الاراضى لمن شاء ، ويضع حدود المزارع ، وخولته حكومته اقطاع ارض الموات من شاء كالتى جهل مالكها ، وكان والدى المترجم له يحسن مسائل الارث فطلبت منه قبيلته ان يرشد المهندس فى الارض الموروثة الى الانصبة والى ما يستحق كل وارث من نصف او ربع او ثمن او ثلث او سدس ، والتمست القبيلة من الحكومة ان تجعله كمعين للمهندس ، فوافقت على ذلك ، وصار المهندس لا يقدم على القسمة حتى يعين له صاحب الترجمة مقدار ما لكل وارث ، فاستعان به المهندس على مهمته واراحه من متاعب كان المهندس ولا بد يتحملها ، ولهذا كان يعرض عليه مرات عديدة ان يختار من الاطيان الطيبة التربة ما شاء ليقطعها اياه ملكا تاما ، فكان رحمه الله تعالى مع شدة احتياجه الى مفحص قطاة من الارض يمتنع ويقول ، انا لا اطيق ان اطوق يوم القيامة ما اخذت من الارض بغير حق ، ولعله رحمه الله تعالى يشير الى حديث من غصب شبر ارض طوقه يوم القيامة سبع ارضين ، فقد تضمنت هذه الحكاية مثلا اعلى للورع الممنوح من المولى الكريم لعباده المخلصين . والباعث لصاحب الترجمة

على رفض قبول ما عرضه عليه المهندس من الاقطاع هو انه اتقى الشبهة استبراء لدينه وعرضه . ومعلوم ان اتقاء الشبهات هو باب الورع . وهذه الشبهة التى اتقاها الوالد رحمه الله تعالى هى ان الاستعمار الفرنسى انتزع اكثر العقارات من يد اربابها الشرعيين المالكين لها ملكا صحيحا لا شبهة فيه لاحد غيرهم واحتكرها لنفسه ، ثم ملك منها ما شاء لمن شاء لمصلحة الاستعمار نفسه ولمصلحة من ملكه لا غير وما بقى من العقارات التى انتزعها والتى اخذها من اربابها غصبا والاوقاف التى استولى عليها ظلما وما اكثرها بالقطر الجزائرى ، الحقها بالادارة المكلفة بالتصرف فى انواع العقار وصيرها ملكا للحكومة التى اقطعت المعمرين الاجانب اكثرها واعدت الباقى للكراء بالمزايدة لمده محدودة ، فاذا انقضت تلك المدة جدد الكراء ثانية وثالثة الى هلم جرا ، وكل مدة يزيد كراؤها على التى قبلها اضعافا كثيرة . واما موات ارض الجزائر التى تقدر مساحتها بملايين الاميال فقدحجزتها تلك الحكومة على الناس ومنعت الرعى فيها والاحتطاب منها بعدما جعلت لها ادارة خاصة بها وولت شؤونها مراقبين تسميهم الحكومة الفرنسية حراس الغاب . وموظفو هذه الادارة احرار فى سائر تصرفاتهم ، ليس عليهم للمراجع العليا ادنى سلطة فيظلمون الناس ظلما فوق ما يتصور ويضيقون عليهم مسالك الرعى وموارد الماء ، ومن ظفروا به حاملا حزمة حطب على راسه او على دابته ليتمعش بثمنها ان وجد من يشتريها منه صادروا الحطب والدابة واثقلوا كاهله بغرامة مالية يدفعها معجلة او يسجن ان لم يكن فى ملكيته ما يباع عليه فى تلك الغرامة . وكثير من المزارعين هجروا ارضهم القريبة من المساحة التى منعوا من الرعى فيها والتجاوا الى الحواضر عندما توالت عليهم الغرامات التى اجحفت بماليتهم ، كان اولئك الحراس لا يتركون شاذة ولا فاذة دخلت فيما يحمونه من الاراضى الا غرموا صاحبها مبلغا من المال يدفعه حالا وبدون تأخير ، وبعد هذا كله فهل يحل للمسلم ان يقبل من الحكومة الفرنسية قطعة تقطعها من اراضى امرىء مسلم وتمنحه اياها . لهذا رفض والدى كما تقدم قبول ما عرضه عليه المهندس من الاقطاعات الغير الشرعية ، كان له رحمه الله بنون خمسة انا اصغرهم ، وكلنا بواسطة حرصه على قراءتنا وبذل المستطاع فى تعليمنا حفظنا القرآن الكريم ولقد قرت عينه بذلك حتى انه كان يضطجع ونحن محدقون به ويقول اقراوا وانا اسمع فنقرا دفعة واحدة على مسامعه الى ان يقول حسبكم وهذا دابه معنا فى غالب الاوقات حتى لقى الله . وقد ابتلى بمرض مزمن اعجز الاطباء لازمه عشر سنوات كان فيها راضيا بالقضاء صابرا على البلاء بحيث لم يضجر ولم يشتك الى احد قط وانما كان دائما يقول رب انى مسنى الضر

وانت ارحم الراحمين الى ان مات غرة المحرم فاتح سنة ثلاث وعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى ودفن بجوار والده بمقبرة العين الملحة تغمده الله برحمته آمين . واما من تقدمه من عمود نسبه فانى اترجم باختصار لمن وقفت له منهم على بعض ما يستحق الذكر ، اما جدى الأقرب وهو والد والدى فهو سيدى المصطفى ، قرا فى معية عمه سيدى الطيب بن الفريح الآتى ذكره على العلامة حافظ القطر الشيخ ابى راس الناصرى ثم المعسكرى فكانت له مشاركة فى عدد من الفنون وله نوع اختصاص فى علم القرآن ، ولذا اشتغل بتعليم القرآن تجويداً وتصحيحا لرسم المصحف العثمانى ، فكان الطلبة بكثرة يترددون على محله دائما يسمعون منه مخارج الحروف ويصححون عليه الرسم المختلف فيه من روايات القــراء ، ومــن طلبته المشهورين بالاخذ عنه الشيخ المولود بن ابريك والسيد جلول بن يغمور ، والسيد محمد بن عمر ، والسيد الطيب بن كاب . وهؤلاء الاربعة منازلهم بقبيلة اولاد غاز قرب جبل تاسالة وآخرون من النواحى القريبة والبعيدة. كان رحمه الله تعالى معتقدا بين الناس مشهورا بالصلاح ، يرغب الــناس فى مجالسته ، ويكاد اهل محلته لا يفارقونه ويشتاقون الى رؤيته اذا فارقتهم وقتا ما لحسن عشرته ولين جانبه وطيب حديثه مــع ما يسمعــون منه من المواعظ المؤثرة والنصائح القيمة المفيدة ، ويتناقلون فيما بينهم انه كان مجاب الدعاء . وقد عمى فى آخر عمره فاختار الانضمام الى عــائلة والدى دون عائلات بقية ابنائه الاربعة ، لان والدى هو ابرهم به واكثرهم احسانا اليه، وكانت والدتى رحمها الله تخدمه خدمة الامة لسيدها او ابلغ ، فكان يدعو لها ولذريتها بخير. ولقد اخبرتنى انه قال لها ذات يوم يا بنيتى ان اجلى قد قرب وانى استغرق اوقاتى فى تلاوة القرآن الكريم ، وبعد اربعين ختمــة التحق بصالح اسلافى . قالت فقلت فى نفسى ان سيدى كبر حتى اصبح لا يعى ما يقول ، ثم بعد مدة لا تتجاوز الخمسين يوما نادانى وقال لى بقى من الاربعين ختمة التى اخبرتك انى اتلوها ختمة واحدة . قالت فغلب على ظنى ان ما اخبر به حق واجتهدت فى خدمته وانا اشعر بقلق وانقباض ، ممــا حدثنى به اذ لم يبق الا اياما قلائل حتى لقى الله ، ولحق بصالح سلفه كمــا اخبر . انتهى ما حدثتنى به والدتى وعد ذلك من كراماته التى اشتهر صدورها منه توفى رحمه الله تعالى فى السنة الاولى من القرن الرابع عشر ، ودفــن بمقبرة العين الملحة وقبره بها مشهور يتبرك به . واما والده سيدى محمد السنى فانه من اكابر العلماء الذين احيواالسنن وقاوموا البدع واماتوها ، ولذا لقب بالسنى ونقله باى وهران للتدريس بجامعها الأعظم ونظمه فى سلك خواص مجلسه وبقى بوهران الى ان توفى اوائل القرن الثالث عشر ودفن

بمقبرة سيدى البشير خارج وهران بوصية منه . وهذه المقبرة قريبة من جبل مطل على البحر يعرف بجبل اكهر وضريحه هناك مشهور عليه بناء يقصده الزوار دائما . وانى منذ سكنت وهران وانا اتردد لزيارته المرة بعد المـــرة وقد حصل لى من النفع بهذه الزيارة ما لله يعلمه وبيد بعض ذريته وثيقـــة دار كان يملكها قرب ضريح الولى المشهور سيدى محمد الهوارى نزيل وهران واما والده سيدى المصطفى فان ما ينسب اليه من الفضائل والكمالات لم اسمع حتى بعضه ممن اثق به ثقة اعتمد عليها فى تدوين ما نسب اليه لانى التزمت الا ادون فى هذه الكراسة الا ما سمعته من ثقة او نقلته من خط ثقة نعم ان لهذا السيد بين الوسط الذى كان يساكنه مقاما مشهورا يزار يقال انه الموضع الذى توفى به وغسل فيه ، واما قبره فبجوار مدفن اسلافه بمقبرة المسيد من ارض ملغيغ، والسيد هذا هو الاصل الجامع للفروع المنسوبة لوالده سيدى الفريح الذى لم يخلف ذكرا غيره ، اما هو اى السيد المصطفى فقد خلف بنين ستة وهم عدة وهو اكبرهم ، وكان يتولى رئاسة قومه عـــلى عهد الاتراك ، وقدور والصحراوى والفريح ومحمد السنى والطيب . امــا عدة فخلف اربعة ذكور : عبد القادر ومحمدا وابا زيان والفريح . واما قدور فخلف محمدا وعبد القادر وعدة . واما الصحراوى فخلف ابن فريحة وحده وهو خلف ثلاثة ذكور : عبد القادر والحبيب ومحمدا وابنتين خيرة الكبيرة وخيرة الصغيرة ، وهى امى . واما الفريح فخلف مصطفى وحده وهو خلــف ابنين الطيب والحبيب ، واما محمد السنى فخلف ابنا واحدا وهو المصطفى والد ابى ، وقد تقدمت ترجمته ، وقد خلف خمسة بنين والدى المولود ، والحبيب وعبد القادر ومحمدا واحمد وله ولد سادس مات فى حياته، وخلف ابنين محمدا الصغير ومحمدا ابراهيم ، فكفلهما جدهما المذكور فنسبا اليه وكل فرع من هذه الفروع المتشعبة اعقب ذكورا واناثا لا يزالون متناسلين الا انهم لم يسيروا سيرة اسلافهم المرضية بل انحرفوا عنها انحرافا كاد يقطع بينهم وبين سلفهم الصالح صلة النسب اصلح الله حالنا وحالهم والمسلمين اجمعين . واما سادس اولاد سيدى المصطفى وهو اصغرهم اعنى الطيب فخلف ابنا وهو ابن عبد الله وابنتين جدتى ام والدى واسمها عائشة واختها المسماة بفاطمة وابنه المذكور ابن عبد الله خلف شيخنا العلامة المفضـــال الشيخ سيدى الحاج محمدا والطيب والمختار وعبد القادر ، وللبعض مـــن هؤلاء الاربعة عقب وقد تقدم ان جدهم هو اصغر اخوته وانه اشتهر بنسبته الى جده الاقرب اذ هو الطيب بن مصطفى بن الفريح ، ولم يعرف بيـــن الناس الا باسم الطيب بن الفريح، كان هذا السيد العلى القدر الرفـــيع المكانة من اجل علماء بلده وانبلهم واغزرهم علما اليه المرجع فى الفتوى وحل

المشاكل العويصة ، اذ قال فالقول ما قال لا يلتفت الناس الى مخالفه كائنا من كان. قرا العلم على علماء بلده ثم انفرد فى معية الامير عبد القادر بالحافظ الشيخ ابن راس الناصرى المعسكرى ولازمه حتى صار من اشهر الآخذين عنه والمتخرجين عليه . كان ذات يوم جالسا بمجلس من مجالس الشيخ ابي راس فدخل عالمان يعرضان على الشيخ مسألة فى العقائد قد اختلفا فيها ، وكانت فى مبحث الوحدانية فنطق صاحب الترجمة وقال : يكفينا ما اشتملت عليه سورة الاخلاص من ثبوت الوحدانية لله تعالى وتنزيهه عما لا يليق به جل وعلا فقالا لم يكن كلامنا معك ولا نرضى الا بما نسمع من الشيخ فقال الشيخ لعلكما لا تعرفانه ، هذا هو الشيخ الطيب بن الفريح المهاجى ينوه الشيخ ابو راس بشأنه وبمكانته العلمية . رحم الله جميعهم .

كان حاكم وهران الباى عثمان بن الباى محمد الكردى يبلغه بواسطة الوشاة ان الشيخ الطيب بن الفريح ينتقد اعمال الاتراك ويرميهم بسوء المعاملة للرعية، وانه مستبد فى اعماله بدون مراجعة الحكومة يعقد الانكحة ويفصل الخصومات ، ويكتب وثائق المعاملات ، فكان الباى يتغافل عن تلك الوشايات ويغض الطرف عن تتبعها ، والبحث فى تحققها لما يعلمه من السمعة التى يتمتع بها الشيخ بين الاوساط مع ما له من العصبية فى قومه ، فالباى لهذا كله يتحاشى ان يمس شخصية الشيخ البارزة بسوء ، ولكن لما كثرت الوشايات وتكررت على الباى من اناس ينافسون الشيخ ويزاحمونه فى التقدم وفيما اوتيه من جاه وشهرة واقبال الناس عليه. اثر تكرر تلك الوشايات على الباى ووغر صدره على الشيخ فدعاه للحضور بين يده بوهران بعدما تلطف فى الدعوة وافرغها فى قالب اختيارى لا جبرى حيث جعل الدعوة مشوبة بنوع من الاستعطاف والاشتياق لرؤية الشيخ حتى لا يشعر بما يزعجه ويقلق راحته ، فلبى الشيخ الدعوة فورا وحل بوهران ثم نزل بالدار المعدة من طرف الباى لامتثال الشيخ من ذوى الحيثيات الرفيعة وكان الباى عثمان هذا معظما لاهل العلم ويقربهم ويدنيهم ويخصهم بمجلس انسه ونوادي سمره ، ومن اكيس ندماء هذا الباى واظرفهم العلامة الاديب الشيخ محمد بن الخروبى القلعى ثم امر الباى باحضار ضيفه المبجل للمجلس المنعقد من علماء حاضرة وهران ، وبعد ماءاجلسه الى جانبه سأله عن الفنون التى يتعاطى تدريسها فذكر الشيخ جملة منها وقال له الدرس الذى تخلفت عنه امس واليوم بسبب مجيئى هو درس فقهى فى فصل الحيض فقال له الباى ذاك هو فالك فنطق الشيخ على البداهة وقال : يا مولاى الحيض دم خرج بنفسه لا يفعل فاعل فاغتبط الباى بهذا الكلام وارتاح له كل الارتياح ، وزاد احترامه وتعظيمه له اضعاف ما كان عليه منذ قبل حيث

راى من نباهته وغزارة علمه اكثر مما كان يبلغه عنه . ولذا بالغ فى اكرام الشيخ وفى الحفاوة به ولسان حاله يقول :

«كانت مسالة الركبان تخبرنا
عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر»
«حتى التقينا والله ما سمعت
انفى باحسن مما قد راى بصر»

وعند الوداع قال للشيخ سل ما شئت تعطه فقال لا إسالك الا ان تسمح لى باستمرارى على ما انا عليه مما هو فى الواقع خدمة لمولانا الباى واعانة له على ما يهمه من مصالح الرعية، والذى انا عليه يا مولاى هو تعليم العلم النافع وخدمة الصالح العام والخاص بقدر الامكان ، فأجابه حضرة الباي بقوله ، قد اوتيت سؤلك ومثله معه واذن له فى الرجوع الى باديته مكرما مرضيا عنه من طرف الحكومة بعدما عرض عليه الباى الاقامة بجواره فاعتذر بما قبل منه من الاعذار التي من اولاها بالقبول كلفة حمل الكميات الضخمة من الكتب كما اعتذر الصاحب اسماعيل بن عباد بمشقة نقل كتبه الكثيرة عندما كتب اليه امير خراسان ان ينتقل اليه ويوليه ما وراء بابه ، ومن شأن السلاطين والامراء ان يجلبوا اليهم اعيان العلماء ليستعينوا بهم على تحمل اعباء المملكة ، كان هذا الاستاذ الشيخ الطيب بن الفريح لا يفتي الناس الا بالراجح من اقوال المتقدمين ،وبما صححه المتاخرون او شهروه من خلافات من تقدمهم ، ويشدد النكير على من يفتي بالشاذ ومن يتتبع رخص المذاهب . ويرى ان تتبع الرخص يؤدى الى رفع التكليف والتساهل فى الفتوى يضيع حكمة التشريع . ويقول : لاينبغي ان يكون هذا التساهل من باب رفع الحرج الذى جاءت به الملة الحنيفية السمحة وانما ينبغى ان يقال ان التساهل مجرد مصادمة للشرع وانه دليل على خفة مكانة الدين من القلب . وبعد هذا فلم يبلغنى عن هذا العالم الكبير انه الف فى علم من العلوم او كتب فى فن من الفنون . ولعله كان يرجح كثرة النفع .

ومعلوم ان الاشتغال بتعليم العلم انفع بكثير من الاشتغال بالتاليف لهذا نرى الكثير من العلماء العظام اعتكفوا على التعليم ، ولم يتعاطوا التاليف الا فى القليل النادر . فقد ذكر الشيخ احمد بابا فى الذيل ، ان الشريف التلمساني قليل التأليف ، وما ذلك الا لاشتغاله بالتعليم ، يصل فيه ليله بنهاره . وغيره كثير لم يوجد فى تراجمهم مع غزارة علمهم ، انهم الفوا فى

فن من الفنون ، ولكل وجهة هو موليها . نعم للشيخ الطيب بن الفريح الذى نترجم له فتاوى ووثائق وتقريرات على بعض المدونات النقلية والعقلية كانت محفوظة عند آل بيته الى ان اشتعلت نار الفتن بين ربوع القبائل اواخر عهد الاتراك واوائل الاحتلال الفرنسى للجزائر فضاعت تلك المحفوظات بسبب اجفال الناس وكثرة انتقالاتهم فرارا من الانغماس فى امواج الفتن معتصمين بالجبال والشواهق . وقد عثرت على كراسة بها امضاءات جماعة من العلماء يشهدون فيها بثبوت النسب الحسنى او الحسينى لبعض الفروع وعلى تلك الكراسة طوابع بعض الامراء فى اوقات مختلفة التارسخ ، وكان الشيخ الطيب بن الفريح الذى نحن بصدد الكلام عليه من بين الذين امضوا على ثبوت النسب المذكور ، ونص امضاءه بالحرف :

الحمد لله وحده وصل اللهم على من لا نبى بعده ، ليعلم الواقف على هذا الرسم من الامة المهتدين وفقنا الله واياهم الى اتباع سنة سيد المرسلين انى موافق موافقة تامة شرعية لاولئك السالكين سنن الصالحين الواقفين بباب السنة القائمين بحدود الله على ما رقموه بخطوط أيديهم من ثبوت نسب الماسكين للرسم المذكور وهم السيد عبد القادر والسيد بن فريحة والسيد ابو زيان اولاد سيدى ابن منصور العفيفى المتصل نسبه بسيد البشر نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء الماسكون للرسم نسبهم محقق للشهرة حيازتهم له بدون منازع مع طول المدة ، وقد قيل ان الانساب كالاملاك تثبت بالحيازة مهما طالت مدتها بلا منازع، فمن وقف على وثيقة هذا النسب وجب عليه العمل بمقتضاها والاخذ بما تضمنته ، وليس له المخالفة ولا يسعه الا احترامهن ثبت لهم النسب الحسنى او الحسينى والادب معهم بقدر الامكان ارضاء لجدهم صلى الله عليه وسلم . كما يجب على العلماء والمؤرخين الاعتناء بضبط النسب الشريف وبحقية من يدعيه ، كما حقق نسب المساكين للرسم المذكور ومتى ثبت النسب الهاشمى لاحد فالواجب احترامه وتوقيره والادب معه اداء لواجب آل البيت النبوى ، ومن قصر فى حقهم فلا يلومن الا نفسه والله يهدى من ضل سواء السبيل . وبتاريخ اواسط شهر رمضان المعظم عام اثنين وثلاثين ومائتين والف ثم اعود فأعلن بثبوت نسب هؤلاء الاشراف المنتسبين للمنتخب من البطون الظراف والمصطفى من ولد عبد مناف صاحب الشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم كتبه الطيب بن الفرح المهاجى وفقه الله آمين اللهم ارزقنا محبة آل البيت واعنا على ما فيه رضاك ورضاهم . انتهى . هذا ما وقفت عليه مخطوطا بخط ذلك العالم الكبير الجليل القدر ، الجدير بأن يترجم له ترجمة حافلة بالكثير من اعماله الجليلة التى قدمها لامته وخدم بها ابناء جنسه الا ان سكناه

البادية قضت بالاهمال على تلك الاعمال والمخلفات القيمة حتى عفت رسومها واندرست معالمها، ولم يبق لها بعد موته ذكر شائع ولا صيت ذائع لا عند من عاصره فى القرن ولا عند من تأخر عنه فى الزمن ، فكان لسان حاله يقول :

**« اضاعونى واى فتى اضاعوا**

**ليوم كريهة وسداد ثغر »**

**وهذا الاستاذ الرفيع المقام هو والد جدتى ام ابى سمانى والدى باسمه كأنه يلاحظ لمح الصفة ، وقد تقدم انه اشتهر بالنسبة الى جده ابى ابيه ، فكان يدعى بالطيب بن الفريح . والفريح هذا هو الجد الخامس لعقبه من الطبقة الموجودة الآن سنة تسع وسبعين من القرن الرابع عشر وبينه وبين سيدى ابراهيم المذكور فى جوهرة العقول سبعة اصول وهم : محمد ابن ابراهيم بن الكندوز بن مفلح بن احمد بن ايوب بن محمد بن ابراهيم ، وابراهيم هذا هو الذى قال عنه سيدى عبد الرحمن الفاسى فى جوهرة العقول : ومن اعيان الاشراف سيدى ابراهيم جد شرفاء مهاجة . انتهى كلام الفاسى . وقد تقدمت الاشارة الى الفروع التى تجتمع فيه ، وهى اولاد سيدى الهاشمى واولاد سيدى ابى راس ، واولاد ابى كلمونة والسحنونيون ، واولاد ابن عبد الرزاق واولاد ويس واولاد سيدى العربى، وهؤلاء استطانهم بقبيلة اولاد سليمان واولاد سيدى الفريح واولاد سيدى مفلح واولاد سيدى سعيد . وهذه الفروع الثلاثة بقبيلة اولاد على . وكل هذا تقدم اعدناه بمناسبة ما قلنا من ان سيدى الفريح بينه وبين سيدى ابراهيم بن محمد بن ميمون سبعة اصول . وتقدمت اسماؤهم كما تقدم انه الجد الخامس للطبقة الموجودة من عقبه فى الوقت الحاضر ، وكان رحمه الله من العلماء العاملين ، واهل الرسوخ العارفين ، غلب صلاحه على علمه فعدل عن التعليم وانقطع عن الخلق ، وتوجه بكليته الى الحق وحبب اليه الخلاء ، فكان يأوى الى الكهوف والمغارات وملتف الشجر فالفته الوحوش ولاذت به السباع عند مطاردة الصائد اياها، ومن بين تلك الاشجار الملتفة المشتبكة الاغصان شجرة سرو عظيمة مجوفة بحيث يمكن ان يتربع المتربع داخل تجويفها ، بلغنا بالتواتر انه كان قد اتخذها خلوة يمكث بها ما شاء الله ان يمكث بعيدا من كل ما يشغل سره عن المناجاة والتفكر فى خلق السماوات والارض. ولا زالت هذه الشجرة قائمة على اصولها معروفة باسمه وباضافتها اليه ، يؤمها الناس دائما بقصد التبرك والانتفاع بما وقع من ذكر الله عندها ، وما تلى من آيات الذكر الحكيم**

تحتها ويقصد الدعاء لانفسهم وله والترحم عليه وعلى جميع المسلمين .
وهكذا نقف فى تراجم كثير من العلماء على انهم عدلوا عن التدريس الى العزلة والتفرغ لاداء وظائف العبودية عندما ترجح فى نظرهم افضلية الانعزال عن الخلق ، وان كان تعليم العلم من افضل الطاعات. من بين هؤلاء العلماء حجة الاسلام ابو حامد الغزالى ، فقد ذكر الشيخ الحفنى فى حاشيته على شرح شيخ الاسلام لمتن اساغوجى ان العلامة ابن المقرى راى الغزالى فى البادية بمرقعة وعكاز ، وقد ترك الافتاء والتدريس فسأله عن سبب ذلك فقال رحمه الله ورضى عنه :

**« تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل**
**وعدت الى مصحوب اول منزل**
**ونادتنى الأشواق مهلا فهذه**
**منازل من تهوى رويدك فانزل**
**غزلت لهم غزلا رقيقا فلم اجد**
**لغزلى نساجا فكسرت مغزلى »**

انتهى كلام الحفنى .

ثم لهذا الفاضل والانسان الكامل اعنى سيدى الفريح كرامات نقلت بالسماع الفاشى المنتشر من معاصريه ومعاشريه منها ان فرسه المركوبة له كانت تكلمه احيانا كلاما لا يصدر فى العادة الا من العاقل ، واشتهر ذلك بين الاوساط حتى صار لا يخفى على احد من اهل تلك النواحي ولما ماتت هذه الفرس وراها اتباعه فى التراب والقوا عليها اكواما من الحجر ثم لقبوا الموضع برصيف العودة وعرفهم الدارج انهم يطلقون على الذكر من الافراس عود ، وعلى الانثى عودة ، ولقد دلنى بعض من ادركتهم ؛ وقد طعن فى السن على الموضع فالفيت الحجارة لطول العهد ساخت ، ولم يبق ناتئا على وجه الارض الا القليل على هيئة الدائرة عرضها اقل من طولها ، ومثل هذا الامر لا ينكره ذو عقل سليم ، بل ولا يستبعده مهما كان يعتقد ان قدرة الله تتعلق بكل ممكن، ويأتى لنا مزيد بيان عند مبحث الكرامة روى البخارى فى باب مناقب المهاجرين وفضلهم من صحيحه بالسند الى ابى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«بينما راع فى غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منه شاة فطلبه الراعى فالتفت اليه الذئب فقال من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيرى . وبينا

رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفت اليه فكلمته فقالت انى لم اخلق لهذا ولكنى خلقت للحرث قال الناس سبحان الله ، قال النبى صلى الله عليه وسلم فانى اومن بذلك وابو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما » انتهى.

وأظن ان الترضية عن الشيخين مدرجة من ابى هريرة او من البخارى او من احد الرواة قبله ، ومن كرامات صاحب الترجمة مكاشفة التى سمعها منه كل من حضر وقتها، وذلك ان بالنواحى القريبة من الشيخ سيدي القريح رجلا يقال له بن فريد يقطع الطريق ويعبث بالامن ويسلب الناس اموالهم ، وربما اغتال بعض النفوس على وجه يتعذر معه الغوث لان الحكومة الموجودة اذ ذاك لم تتمكن من القبض عليه لاعتصامه بشواهق الجبال ، وكان يأوى الى مغارة هناك لا زالت الى الوقت الحاضر تعرف بغار ابى فريد ، واستمر مدة طويلة على الحرابة وارتكاب الجرائم الى ان سمع بمرض الشيخ الذى توفى فيه فجاء مختفيا بقصد التوبة من حرابته والقاء السلاح بالمرة ، فكمن قريبا ينتظر اقبال الليل ليبدى عذره وليظهر توبته امام الشيخ دون حضور احد فاتفق ان جاء الناس فرادى وجماعات يعودون الشيخ ويطلبون منه الدعاء فقال ما لفظه او معناه : اتمنى ان يغفر الله تعالى لجميع الحاضرين ويعتق رقابهم من النار حتى ابن فريد ، فاستغرب الحاضرون قوله. وقال بعضهم لبعض : كيف يأتى حضور ابن فريد وهو مجرم يترقب القبض عليه . فبينما هم يتساءلون فيما بينهم ويشيعون ما قال الشيخ ، فاذا ابن فريد يخرج من مكمنه عندما سمع الناس يتحدثون فى شأنه ويرمى بنفسه امام حضرة الشيخ معلنا توبته تاركا كل ما كان عليه فظهر للناس مكاشفة الشيخ وعدوها من كراماته المشهورة المتكررة . مات هذا العارف بالله اواخر القرن الثانى عشر ، وكان موته اثر المكاشفة المذكورة التى هى من الكرامات التى اكرمه الله بها ، ومنحه بفضله تعالى اياها . رحمه الله وحقق نسبتنا اليه . وكان مدفنه بمقبرة اسلافه بالمسيد من ارض ملغيغ التى قلنا عنها سابقا ، ان ولده سيدى مصطفى دفن بها ، واما والد سيدى القريح هذا وهو سيدى محمد بن ابراهيم فان ولايته مشهورة مسلمة له لا يختلف فيها اثنان . وقد اتخذ خلوة اسفل جبل مكنوس انقطع فيها للعبادة ومجاهدة النفس مختارا للعزلة ليسلم له دينه من شوائب العوائق القاطعة للصلة بين العبد وربه . والجبل المذكور يقع جنوب مدينة نيك يبعد منها بنحو خمسة عشر ميلا ، وقد تقدم الكلام على هذه المدينة والخلوة المذكورة فى كهف من الجبل محاط بالصخور ، وعر المسلك بحيث لا يمكن الوصول الى الخلوة الا على الاقدام مع مشقة فادحة وهى مبنية بالقصب ، وتجدد كلما بلى ما بنيت به ويزورها الناس دائما ،

والمعروف عندهم والشائع فيما بينهم ان من لا يولد له او يموت اولاده صغارا يزور هذه الخلوة يوم خميس ويصحب شيئا من السويق يتصدق به على اول شخص يلقاه فى الطريق او يطعمه من يجده فى نفس المحل ، ثم يدعو الله فانه بالتجربة المتكررة يتقبل الله دعاءه ويرزقه من الولد ما تقر به عينه . والكثير من هؤلاء الزوار يسمى ولده الذى رزقه بمكنوس اسم الجبل الذى توجد به الخلوة كما ذكرنا قبل . ومن الغريب انى كنت اسمع فى صغرى بعض من ادركت يقول فى يمينه ببركة سيدى محمد بن ابراهيم الذى كلم الله على جبل مكنوس ، وانا اذ ذاك لم اميز بين الصحيح والفاسد ولم اعقل الحسن والقبيح ، ولم ادرك معناهما الحقيقى . اما الان وقد عرفت والحمد لله ما يقبل شرعا وما لا يقبل فانى ابدى هنا ملاحظتين : الأولى ان الحلف بغير الله منهى عنه شرعا ، ففى البخارى وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الا ان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله او ليصمت . »

والنهى عند الكثير محمول على الحرمة وهو الظاهر من لفظ الحديث وحمله الاكثر على الكراهة وصرفوا لفظ الحديث عما يقتضيه ظاهره ، وانظر ما المرجع للعدول عن هذا الظاهر ، ومحل الخلاف بين الكثير والاكثر ان يكون الحالف صادقا والمحلوف به معظما شرعا كالنبى والكعبة اما اذا كان كاذبا او كان المحلوف به ليس منتظما فى سلك التعظيم اصلا فان الحرمة متفق عليها . ومع صريح النهى الوارد فى الحديث فى الحلف بغير الله نرى العامة كهذا الذى حلف ببركة سيده لا يتورعون عن الحلف بغير الله ، ولهم فى ذلك مذاهب منهم من يحلف بشيخه المربى له فى زعمه ، ومنهم من يحلف بأبيه او جده . وآخر بقية سيد فلان او بضريحه او بتابوته او حتى بزاويته وما الى ذلك من انتحالاتهم ، وما سولته لهم انفسهم من التفنن فى هذا الباطل . والذى هو اقبح من ذلك واشنع انك لو حلفت لهم يمينا شرعية واقسمت بالله جهد يمينك ما صدقوك ولا اقاموا ليمينك وزنا ، لكن لو حلف لهم حالف بما اعتادوا الحلف به مما ليس بمعظم شرعا لرايتهم يستبشرون به وتصغى اليه افئدتهم ويقطعون بصدق الحالف بهذه اليمين الفاجرة ويقولون ، لولا انه صادق لما اقدم على هذه اليمين التى تخلى الديار وتذهب بالاموال وترجع على صاحبها بالوبال متى حلف بها كاذبا لانه استخف بالمحلوف به من شيخ او قبة او ضريح ، وهكذا يرمون بأنفسهم فى المهالك وهم لا يشعرون بأنهم هالكون ، كما انهم لا يشعرون بأنهم يتناولهم قول الله تعالى :

**« واذا ذكر الله وحده اشمئزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون »**.

صدق الله العظيم اللهم اصلح حالنا وحالهم ووفقنا جميعا لما فيه رضاك .

الملاحظة الثانية : نرى الحالف ببركة السيد المذكور قد زاد على ذلك قوله الذى كلم الله على جبل مكنوس ويا ليته بعدما تجرع على الحلف بغير الله لم يزد ما زاد ، وان كانت تلك الزيادة قابلة للتأويل بحملها على ضرب من التجوز وهو ان يراد من كلام العبد ربه كما جاء فى العبارة السابقة ، مناجاته لهبالاقبال عليه والتضرع بين يديه مناديا له بمثل اللهم او مخاطبا له بقوله **اياك نعبد واياك نستعين** وفى الحديث المصلى يناجى ربه فمناجـــاة الله تعالى ومحادثته غير مكالمته لان مقام الكلام لا بد ان يسمع صاحبه كلام الله القديم المنزه عن الحروف والاصوات ، وهذا خاص بالانبيـــاء عليهم الصلاة والسلام .

**« وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب »**.

وقال الله تعالى ايضا :

**« وكلم الله موسى تكليما »**

فمن زعم ان الله كلمه كما كلم موسى عليه الســـلام ، فان زعمه باطل ، لانه ينافى اختصاص موسى واصطفاءه على الناس بالكـــلام اما المناجاة والمحادثة فليستا كذلك ، وانما هما كما تقدم عبارة عن الاقبال ، وحضور القلب واستغراق الفكرة فى بحار العظمة والجلال والكبرياء ، مع ما يثمره ذلك من الفهم عن الله بواسطة الهامات تلقى فى قلب العارف حال استغراقه فى بحار التجليات الالهية ، بحيث تصير تلك الالهامات علـــوما ضرورية يفهم منها المعنى المقصود ، كما يفهم من الكلام الحقيقى . فاذا قيل العارف يكلم ربه كان المعنى ان يناجيه لا انه يكلمه كلاما حقيقيا ، فالقائل فيما تقدم ان صاحب الترجمة كلم الله على جبل مكنوس ان اراد بالكلام المناجاة بالمعنى السابق ، فله وجه خصوصا وانه اسند الكلام لغير الله حيث قال الذى كلم الله ولم يقل الذى كلمه الله ، وان اراد بالكلام غير المناجاة ، وانما سمع الناس يقولون فقال فهو متهور ينطق بما لا يفهم يغفر الله لنا وله . ثم السيد المترجم له كما قدمـــنا قد انقطع عن الخلق وتوجه بكليته الى الحق ، فكان على استعداد تام وفراغ قلب ، وجمع همة متعرضا دائما للنفحات الالهية ، والمنح الربانية متشوفا الى ما يلقى فى روعه من المواهب اللدنية والعلوم العرفانية التى لا يسعها الا قلوب العارفين

الذين بلغوا مقام الفناء ، ولم يشاهدوا فى الكون سوى الله تعالى ، فكانت اجسامهم روحانية متعلقة بالملأ الاعلى ، وقلوبهم محلا لتجليات الأله جل وعلا تلك التجليات التى لا تتكيف ولا تقف عند حد . قال ابن الفارض فى بعض قصائده المشهورة المتداولة بكثرة :

« يا قبلتى فى صلاتى — انا وقفت اصلى »
« جمالكم نصب عينى — اليه وجهت كلى »
« وسركم فى ضميرى — والقلب طور التجلى »

وكان سيدى محمد بن ابراهيم الذى نتحدث عنه من اجلهم ، وما اشرنا اليه من اخوال العارفين مجال واسع محله كتب التصوف حملنا على التطفل عليه صرف اللفظ السابق عن ظاهره وحمله على ما يليق بمقام السيد المترجم له . والله تعالى يلهمنا الصواب ويعصمنا من الخطأ والزلل ، ثم اننا قد جرى لنا فى بعض تراجم من اسلفنا ذكر الكرامة ، وكان فى اثباتها ونفيها خلاف قديم بعيد الشقة بين المخالفين ، فكان ذلك باعثا لنا على التعرض لبعض ادلة الفريقين ولذكر ما رد به كل واحد منهما ما تمسك به الآخر فقلت وبالله التوفيق الكرامة امر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ، وهذا الخارق نفى وقوعه اكثر المعتزلة واقوى ادلتهم على نفيه وعلى انكارهم اياه قولهم لو جاز وقوع هذا الامر الخارق اعنى الكرامة من غير الانبياء لعجز الناس عن الفرق بينه وبين المعجزة التى هى ايضا امر خارق للعادة يدل على صدق الرسل فيما يدعونه من الرسالة . وفيما يبلغونه الناس انه من عند الله تعالى ودليلهم هذا ساقط لا يصلح للاستدلال ، ولا ينتج ثبوت ما يدعونه من نفى الكرامة للفرق الظاهر بين الامرين اذ المعجزة مقرونة بالتحدى اى دعوى الرسالة والكرامة لا تحدى معها، بل كثيرا ما يظهرها الله تعالى على يد الولى بغير اختياره وايضا صاحب المعجزة مأمون من الاستدراج وصاحب الكرامة لا يأمن ان تكون حالة كحال بلعم بن باعورا ، وهذا فرق ثان ، وهنا فرق ثالث وهو انه اذا توقفت اجابة الدعوة وصدق الرسول على المعجزة وجب عليه أن يتحدى بها ويظهرها بخلاف الكرامة فلا يجب على الولى اظهارها ، وكان بعضهم يقول : يجب على الولى اخفاء الكرامة الا لضرورة تتطلب اظهارها او اذن له فى اظهارها او كان صاحب حال غائبا لا يكون له بها ادنى شعور وقد فرق اهل الحق بين المعجزة والكرامة بفروق كثيرة غير ما ذكرنا ، وكلها يظهر بها جليا بطلان القول بنفى الكرامة وبانكارها كظهور بطلان استدلال من يستدل لصحته ، واما القائلون بثبوتها وهم السواد الاعظم حتى من غير

اهل السنة فقد استدلوا لثبوتها بأمرين ، احدهما انها من افراد الممكن وكل ممكن لا يلزم من فرض وقوعه محال لا ينكر ثبوته ووجوده لانه من متعلقات القدرة الإلهية الصالحة لان تتعلق بكل ممكن الذى هو عبارة عما استوت نسبة العدم والوجود له على السواء ، والامر الآخر مشاهدة وقوعها للكثير من كل عصر وتصريح القرآن الكريم بنسبتها لمن اكرمهم الله بها كمريم واهل الكهف وآصف وزير سليمان بن داوود عليهما السلام ، وهو الذى عنده علم من الكتاب وقد احضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة فى اقل من لمح البصر وهؤلاء المذكورون كلهم ثبتت لهم الكرامة بآيات قرآنية قضت على ادلة النافين لها وزيفتها تزييفا ، وكما صرح القرآن الكريم بوقوع الكرامة وردت اخبار صحيحة بوقوعها من الصحابة فمن دونهم الى عصرنا الحاضر كجريان النيل بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورؤيته لجيشه بأرض العجم وهو على المنبر بالمدينة المنورة حتى قال لامير الجيش يا سارية الجبل فسمع الامير كلام عمر مع بعد المسافة ، ومن ذلك ايضا مؤاكلة ابى بكر رضى الله عنه ضيوفه فكان كلما اكل لقمة من القصعة يربو من اسفلها اكثر منها حتى شبع الضيوف وهى اكثر مما كانت عليه قبل الاكل بثلاث مرات ، ومن ذلك كما فى البخارى قصة خبيب رضى الله عنه حين كان اسيرا موثقا بالحديد وكانوا يجدون عنده العنب وما بأرض مكة حينئذ عنب ، ومن ذلك الرجل الذى سمع صوتا فى السحاب يقول اسق حديقة فلان كما فى الصحيح ، ومن ذلك قصة العلاء بن الحضرمى حين ارسله النبى صلى الله عليه وسلم فى غزاة وحال بين الجيش وعدوهم قطعة من البحر فدعا الله ومشوا كلهم بخيلهم ودوابهم على الماء ، ومن ذلك تسبيح القصعة التى اكل منها سلمان الفارسى وابو الدرداء حتى سمع تسبيحها الحاضرون ومن ذلك ان حارثة بن النعمان الصحابى كان يقول لعياله فى كل شيء احتاجوا اليه ارفعوا الفراش تجدوا حاجتكم فيرفعونه فيجدونها ، ولم يكن تحت الفراش شيء قبل ذلك ، ومن ذلك ايضا شرب خالد بن الوليد السم ولم يتضرر به ، وما الى ذلك مما لا يحصى .

وبالجملة فقد حكى عن السلف من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم كرامات منقولة عنهم بأخبار مقبولة صادرة ممن يوثق بخبرهم من الفقهاء والمؤرخين وكبار الصوفية ، وكما وقعت الكرامة لصالح هذه الامة المحمدية وقعت لصالح الامم المتقدمة حسبما نصت الآيات التى ثبتت بها كرامة مريم ، ومن ذكر سابقا معها ، وحسبما نصت الاحاديث الصحيحة ككلام الطفل لجريج الراهب حين قال له من ابوك ... قال فلان الراعى . وقصة اهل الغار الثلاثة الذين دعا كل واحد منهم بصالح عمله فانفجرت عنهم

الصخرة التى سدت باب الغار ، وهذه الصخرة لا يزيلها فى العادة الا نحو المائة رجل من الرجال الاقوياء . وكالراعى الذى كلمه الذئب، والرجل الذى خاطبته بقرته كما فى البخارى . وقد ذكرنا حديث البقرة عند ذكر كرامة بعض اسلافى الذين ترجمت لهم ، وهى ان فرسه كلمته ، وسقنا الحديث هنالك بسنده ومتنه لنبين ان ثبوت الخارق لمن ليس من الامة المحمدية يؤخذ منه بالاحرى ثبوت مثل هذا الخارق ، وامكانه لصالح الامة المحمدية المشهود لها بأنها خير امة اخرجت للناس ، وبالجملة فالكرامة ثابتة بالنقل الصحيح والاخبار المستفيضة لمن صلح من الامة المحمدية ، ومن الامم السابقة بلا حصر . وقد ذكرنا منهم عددا نقلنا بعضه من كتاب اليواقيت والجواهر للشعرانى والباقى من رسالة القشيرى التى ذكر فيها اضعاف ما نقلناه . وللشيخ يوسف النبهانى رحمه الله تاليف سماه بجامع كرامات الاولياء ، ذكر فيه نحوا من الف كرامة منسوبة لمن ظهرت على ايديهم رحمهم الله واكرمنا بمثل ما اكرمهم به ، وجعلنا من عباده الصالحين ، انه تعالى جواد كريم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

هذا وانى ترجمت لهؤلاء الستة من عمود نسبى وهم المولود ومصطفى ومحمد ومصطفى والفريح ومحمد الذى ختمت التراجم المذكورة بترجمته مقتصرا عليها لتكون كنموذج لتراجم باقى عمود نسبى اذ كل واحد منهم خير خلف لخير اسلافه من آبائه ناسجا على منوالهم . ومن يشابه اباه فما ظلم . توفى سيدى محمد بن ابراهيم هذا الذى كانت ترجمته مسك الختام اواسط القرن الثانى عشر ودفن بمقبرة المسيد مقبرة آبائه واحفاده رحم الله جميعهم والمسلمين كافة والحمد لله رب العالمين ، وكان الفراغ من هذا التقييد المفيد يوم الاربعاء تاسع عشر شوال من سنة تسع وسبعين بعد ثلاثمائة والف من هجرة من له كمال الشرف . وقد جاء والحمد لله مع قصورى فوق ما كنت اظن بكثير حيث جمع من الفوائد ما ازرى بجواهر القلائد ومن المسائل الغرر ما زهد فى نفائس الدرر وبمعونة المولى الكريم تتم الصالحات وتسهل الصعوبات ، ويصبح المتعسر فى حيز المتيسر ، ورحم الله القائل :

« اذا كان عون الخالق المرء لم يجد

عسيرا من الامور الا ميسرا

وكتبه بيده الفانية الفقير الى مولاه الغنى به عما سواه محمد الطيب المهاجى كان الله له وليا ونصيرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقتطفات من ترجمة المؤلف

صاحب التأليف الاستاذ الشيخ الطيب المهاجى هو العالم السلفى المصلح الذى قاوم البدع وقضى على الكثير من الخرافات و الاوهام التى زورا تنسب الى الاسلام حتى من بعض الذين ينتمون الى الاسلام وهذا الموقف الحازم وقفه الاستاذ بواسطة خطبه الاستنهاضية الجمعية وغير الجمعية وبواسطة الجرائد التى دائما تنشر له المقالات المتتابعة المعروفة بالصراحة والاصداع بالحق مهما كان مرا ولقد قال فى مقال له نشر تحت عنوان ( الدين والحزبية ) مالفظه ان تحزب الاحزاب والتحيز الى الفئآت والطوائف لهو المساعد الاكبر على نجاح الاستعمار فى خلق التفرقة بين افراد الشعب وتمزيق وحدة الأمة وهكذا دأبه الصراحة فى كل مواقفه ورغم توجهه الكلى الى خدمة الحركة الاصلاحية مايتخلف قط عن القآء دروسه المتنوعة التى يؤمها الطلبة من كل انحآء القطر ويلازمونها بمدرسته العامرة حتى يتخرجوا منها وهم يحملون ثقافة عالية ونفوسا كبيرة وغيرة وطنية فاكرم بها من نخبة وأفخر به من استاذ وهذه النخبة هى الآن تساهم فى مختلف الميادين العلميه والنشاطات الفكرية أستاذى الجليل تحديثى بهذه المقتطفات عن شخصيتكم الفذة من قبيل تحصيل حاصل لأن تلكم الشخصية فى الحقيقة شخصية لامعة بارزة مرموقة المكانة غنية عن تشهيرها والتنويه بشأنها وزيارتكم أيها الاستاذ لبعض الاقطار كالمغرب الأقصى وتونس والحجاز زادتكم شهرة فى الخارج حيث اجتمعتم بعلماء تلك الاقطار وأدبائها ووقعت لكم معهم عدة مباحثات جرت مجرى المناظرات دلت على تقدمكم فى العلوم وتفننكم فى المعارف وتمكنكم من استخراج مكنوناتها واستنتاج مطالبها ويجد القارى بعض تلك المباحثت فى كتابكم هذا استاذى الجليل انها لحظة

سعيدة ولمحة نفيسة فى تاريخ العمر تفاجئنـا اثناءها بصدور كتاب ممتاز بأساليبه الشيقة الحكيمة وبحقائقه الثابتة الرزينة يزيدها عذوبة ويكسوها رونقا رقة الفظ ودقة المعنى ونحن بدورنا يحق لنا ان نفخر بهذه البـادرة التى لم تكن من فضيلتكم هى الأولى فى ميدان التفكير والاستنتاج والتى ستظل مفخرة خالدة يعتز بها التراث الأدبي الجزائري الذى قـال فيه احد المستشرقين (ان الجزائر آثـرا ادبية رائعة وميزة فنية خالدة يحق لأبنائها أن يفخروا بهذا التراث القيم الذى خلدته نخبة من ابناء الجزائر ) يـوم أن كـانتتقام بمدنها أسواق العلم والأدب وتلقى اذ ذاك رواجا واسع النطاق وتقدما سريع الخطوات فبارك الله لنافيكم ياسيدى الاستاذ على هذه الالتفاتة الحساسة التى نرجوا ان تكون حافزا مقويا ومحركا لهمم المتقاعسين الذين نسوا أواتناسوا أن من المصلحة العامة تسخير أقلامهم واستخدام قرابحهم وتوجيه أفـكارهم الى ميدان التأليف و الانتاج ذلك الميد ان الفسيح الذى ينهض بمعنو يات تراثنا ويخلد حضارة لغتنا وختاما نرجو من العليى القدير أن يفسح فى اجل استاذنا ويؤيده بروح منه ويعينه على بث العلوم ونشر المعارف وتنويرالافكار

تلميذ كم عبد الله الو عزانيى مد رس با لمد ارس الحكومية

# الفهرس



---

## تنبيه

**صفحة ٩٧ سطر ٢٧ هنا جملة سقطت من الاصل ونصها وفى فتح الآله للحافظ ابى رأس الناصرى قال سألنى امير المومنين مولانا سليمان ملك المغرب عن حد المغرب الأقصى فقلت قال إبن خلدون حده وجدة وجدد ذلك الحد أول القرن الثانى عشر مع جدك السلطان إسماعيل واتراك الجزائر فقال لى إنى رأيت حده تافنه فسكت .**

# تنبيه

وقع فى صفحة رقم ٩٣ — تقديم وتأخير فىالسطر الثامن والتاسع و ينبغى ان يكون كما فى الاصل هكذا الملتصق بعضها ببعض وهى ملأى بالسلع المتنوعة و البضأيع المجلو بة — و المصنو عات البلدية

كمانبه على ما فى السطر الرابع عشرمن صفحة رقم ٨٢ ان التاريخ هكذا — سنة ثمان وثلاثين ومائة

# الخطأ و الصواب

| صحيفة | سطر | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|
| ٥ | ١٢ | الؤيغ | الزيغ |
| ٦ | ٧ | ذيلة | رذيلة |
| ٦ | ٩ | العم | العلم |
| ٦ | ١٦ | خاص | خاض |
| ٩ | ١٥ | الانضما | لأنظمته |
| ١٤ | ١٤ | الزينة | بالزينة |
| ٢٢ | ٩ | يافوت | كيافوت |
| ٢٢ | ١٨ | وتعلمى | وتعلمى وتعليمى |
| ٢٨ | ٦ | اتبشير | التبشير |
| ٢٨ | ١٦ | الحرابة | الحرابة |
| ٤٢ | ٨ | القراءة | قرائنا |
| ٤٣ | ١٤ | علامات | علاماته |
| ٤٨ | ١٢ | ليبث | ليثبت |
| ٤٩ | ١٣ | اشليخ | الشيخ |
| ٥١ | ٣ | صعدى | صعيدى |
| ٥١ | ٢٢ | خلافه | خالفه |
| ٥٤ | ٢٥ | ثقاة | تقات |
| ٥٤ | ٢١ | سلام | بسلام |
| ٥٧ | ٢٠ | اثنين | اثنتين |
| ٦٢ | ٤ | يزيله | يزيل |
| ٦٨ | ٢٧ | فقرنى | فأقرأنى |
| ٨٢ | ١٠ | نربتها | تربتها |

| صحيفة | سطر | خطأ | صواب |
| --- | --- | --- | --- |
| ٩٣ | ٢١ | احدق | احذق |
| ٩٤ | ٢٨ | فالذكر | فالذاكر |
| ٩٧ | ٤ | نسى | نسب |
| ١٠٣ | ٤ | فقاوم | فتقاوم |
| ١٠٤ | ٢ | وفقت | وقفت |
| ١٠٨ | ٢٣ | يبق | يسبق |
| ١٠٩ | ٩ | هد | هذا |
| ١١٠ | ١٠ | لمده | لمدة |
| — | ١٢ | حجزتها | حجرتها |
| ١١٧ | ٤ | مالله | ماالله |
| ١١٨ | ٢٤ | لأمتثال | لأمثال |
| — | ٢٥ | ويقربهم | يقربهم |
| ١٢٠ | ١٤ | يباب | بباب |
| ١٢٣ | ١١ | أبي فريد | بن فريد |
| ١٢٤ | ١٧ | ما المرجع | ما المرجح |
| — | ٢٣ | بقية | بقبة |
| ١٢٦ | ٩ | اخوال | احوال |
| — | ١٣ | المخالفين | المتخالفين |